قطوف من
الذاكرة التاريخية

السفير صلاح الشعراوى



قطوف من
الذاكرة التاريخية

الشمراوى، صلاح.

قطوف من الذاكرة التاريخية/ صلاح الشمراوى

.ـــ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب،

٢٠٠٩

٢٠٨ ص ؛ ٢٤ سم.

تدمك ٦ ٩٣٦ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ـ الشمراوى، صلاح ـ المذكرات.

أ ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٥٧٣/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 936 - 6

ديوى ٩٢٠

قطوف من



السفير صلاح الشعراوي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٩

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى
صبرى عبدالواحد

قطوف
من
الذاكرة التاريخية

السفير/ صلاح الشعراوى



تقديم

ترددت كثيرًا فى تجميع ما لدى من أوراق وإصدارها فى كتاب، وزاد من ترددى أننى عندما عرضت الفكرة على إحدى دور النشر، كان رأى صاحبها أن الناس لا تقبل على شراء أية مذكرات ما لم يكن كاتبها شخصية مشهورة.

لكن تطورت الظروف فى نظرى، وظهرت عوامل شجعتنى على اتخاذ هذه الخطوة. إذ وجدت عند تنظيم أوراقى كمًا كبيرًا من الذكريات المكتوبة. ثم وجدت فى سوق إصدار الكتب أن البعض منها لم يكن أمينا فى نقل المعلومة، إما عن جهل بها أو عن قصد لخدمة غرض معين، أو عن رغبة فى إظهار أهمية كاتبها، وهى أهمية لم يكن لها أى كيان مميز خلال حدوثها.

وظهرت مجلة الدبلوماسى التى تصدرها وزارة الخارجية، وأقنعنى رئيس تحريرها أن أكتب فى مواضيع غير سياسية حتى تكون بين صفحاتها مقالاً تخرج قارئ المجلة من حصر فكرة فى المشاكل السياسية الخارجية. فبدأت بسرد قصة الرياضة كما عشتها، ثم تجربتى كضابط فى حرس الملك فاروق. وسعدت حقًا بما لاقته هذه المقالات من قبول ورضاء.

وأخيرًا جمعتنى الظروف بمجموعة من الأصدقاء. وخلال تناولنا للأحداث الجارية أو الأحداث السابقة، أن أبديت لهم علمى ببعض أركانها، ووجدت منهم تشجيعًا أن أسترسل فى شرح الكثير من النقاط الخافية عليهم.

وشجعنى البعض بقولهم إن التاريخ ليس حكرًا لأحد، بل إنه ليس من الضرورى أن يتولى الفرد منصبًا كبيرًا حتى يكون على بينة بكل الأمور، بل إن هناك من هو دونهم يعرف عن الأحداث وحقائقها ما لا يعرفه الكبار.

وهكذا بدأت فى التفكير جديًا فى كتابة هذه الأوراق. ووضعت خطًا أسير عليه وهو أن أركز على الأحداث أكثر من تناولى للسياسات العامة، وذلك عن قناعة من أن يكون فى الكتاب قصص تصور أحداثها جانبًا كبيرًا عن طبيعة هذه السياسات.

وأود أن أعبر عن تقديرى الكبير لكل مؤرخى مصر للجهود التى يبذلونها من أجل تعريف أبناء الوطن تاريخهم فى مكان الحدث. ولذلك فإنى أرى أن جهدى المتواضع قد يضيف لبنة من المعرفة. وأخيرًا أو أن أذكر للسيد القارئ أننى كنت أمينًا فى سردى لما عرفته ورأيته وسمعته. وأيضًا سيجد القارئ بعض النقاط القابلة للنقاش والتى أبديت رأيى فيها دون أن أتمسك بصحة وسلامة فكرى.

وختاما لكم خالص الشكر والتقدير.

هولندا
نوفمبر ١٩٥٧ - يونيه ١٩٥٩

كنت مستشارًا بإدارة المراسم عندما صدرت الحركة الدبلوماسية فى سبتمبر ١٩٥٧، متضمنة تعيينى مستشارًا لسفارة مصر فى هولندا. تلقيت هذا التعيين بسعادة وسرور ليس فقط لأن الحياة فى هولندا ميسرة وسهلة وما تتمتع به من جمال الطبيعة، بل لأننى تعرفت على جانب كبير منها من رحلاتى الرياضية السابقة، مما أتاح لى الفرصة لمعرفة بعض النواحى عن الشعب الهولندى.

ولحين تنفيذ النقل أخذت أطلع على الملفات الخاصة بهولندا مع تركيز على علاقتها مع مصر.. فهالنى اتخاذها لمواقف عدائية تجاه مصر خاصة خلال مناقشة قضية العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ فى أروقة الأمم المتحدة. بل كانت هناك بعض القرارات التى وافقت عليها كل من بريطانيا وفرنسا، ولم يعترض عليها سوى إسرائيل وكوستاريكا وهولندا. أما بالنسبة لكوستاريكا فقد عرفت السبب وهو أن زوجة رئيس الجمهورية كانت يهودية وذات شخصية طاغية على زوجها. لكن لم تفصح الملفات عن سبب موقف هولندا.

توجهت إلى هولندا على مركب نصف ركابها ألمان ولم يكن عليها من الركاب خلافى إلا راكب بريطانى وحرمة قادمان من ممباسا بكينيا ومتجهان لإنجلترا بعد انتهاء خدمة فى حكومة كينيا. وفى أول ليلة على ظهر المركب وعندما كنا

نتناول العشاء، صرح القبطان بأننا مجتمع صغير يحوى ثلاث جنسيات دخلت فى حرب ضد بعضها البعض، وعليه فإنه يرجو ألا نتكلم فى السياسة لكن الطبيعة البشرية تغلبت على رغبة القبطان فعندما كنت أنفرد به كان يشيد بمصر لأنها تحدت بريطانيا وفرنسا فى حرب السويس وما أن يظهر الرجل الإنجليزى حتى يغير الموضوع بسرعة. وبالعكس يحاول البريطانى عندما ينفرد بى فى مناقشة سياسة مصر وأسباب عدائها للغرب بصفة عامة وبريطانيا بصفة خاصة ثم يوقف المناقشة فور ظهور القبطان. كما راعنى أن كثيرًا من البحارة الألمان كانوا يقدمون على تحيتى بشكل يومى بإعجابهم بشخصية مصر وإنها لم تتراجع أمام فرنسا وبريطانيا.

وصلت السفارة فى العشرين من نوفمبر ١٩٥٧. لكن فوجئت بقيام السفير بأجازة قبل وصولى بثلاثة أيام. ووجدت نفسى قائما بالأعمال بالنيابة دون خبرة سابقة بعمل السفارات أو حتى على الأقل من أين أبدأ. لكن بكل صراحة انتابنى بعض مشاعر الغرور بهذا المنصب وتصورت أننى أستطيع من خلاله مقابلة المسئولين فى الدولة وأيضا رؤساء البعثات. للأسف لم يوجهنى أحد من الزملاء على حقيقة مركزى ومسئولياتى. عدا الملحق الإدارى والذى أدين له بالفضل فى تعرفى على أبعاد الوظيفة إذ ألمح فى كلامه ما شعرت أنه يود القول بأن ألم الموضوع شوية وأن أحد من تحركاتى وفى الوقت نفسه لم أجد تجاوبًا من بعض رؤساء البعثات الدبلوماسية وخاصة الدول الغربية.

وانتهزت فرصة تواجد أسرتى بالقاهرة فأخذت أمضى وقتى فى أغلب الأمسيات فى قراءة مكاتبات السفارة منذ إنشائها سنة ١٩٢٨ وسوف أتعرض فيما بعد عما قرأته وانطباعاتى عنها.

كان أهم ما استرعى نظرى هو كثرة المراسلات والبرقيات التى بودلت بين الرئيس عبدالناصر وقاضى مصر العظيم عبد الحميد بدوى وكيل محكمة العدل الدولية وقتئذ بخصوص مشكلة تأميم قنال السويس. وللأسف قمت فيما بعد بتنفيذ تعليمات الوزارة بحرق جميع البرقيات الرمزية لما هو قبل عام ١٩٥٨. ويا ليتنى كنت احتفظت بها لأنها كانت آية فى الوطنية والأسانيد القانونية التى تثبت

حق مصر فى التأميم. وآمل أن تكون إحدى الجهات الرسمية لا تزال تحتفظ بصورة منها.

وليست مبالغة منى أن التقارير السياسية فى عهد ما قبل الثورة كانت محدودة جدًا، ليس لتهاون أعضاء السلك الدبلوماسى، بل لأن المطلوب منهم كان محدودًا. ولم يكن شاغل مصر فى الحقل السياسى الخارجى سوى مشكلة واحدة وهى قضية الجلاء والتى كان يقوم بها وزير الخارجية أو رئيس الوزراء بنفسه واقتصر دور السفارة السياسى فيما بعد عام ١٩٤٨ فى عرض وجهة النظر العربية فى قضية فلسطين خاصة وأنه لم يكن هناك فى هولندا تمثيلاً دبلوماسيًا لأية دولة عربية أخرى. علاوة على أن الجو السياسى العام فى هولندا لم يكن يسمح للسفارة التحرك الواسع النطاق. لذلك كان التركيز على النواحى البروتوكولية.

لمحات عامة عن هولندا

هى بلد نصفها يابس ونصفها الآخر كان بحرًا واستطاعت بالسبل العلمية تجفيفها وجعلها من أخصب الأراضى الزراعية ولدى هولندا مشروعين أساسين لزيادة رقعة مساحتها الأرضية.

المشروع الأول: وهو تجفيف خليج زويدرزى الواقع فى شمالها. واستطاعت حتى اليوم تجفيف ما يقرب من ثلاث أربع مساحة الخليج.

أما المشروع الآخر: فهو يرمى إلى إنشاء جسر يربط بين جزرها فى بحر الشمال والتى لا تبعد كثيرًا عن شواطئها بهدف تجفيف المنطقة المحصورة بينهما وبين أراضى هولندا بحيث ينتهى المشروع سنة ٢٠٥٠.

وهولندا لا تفتقر فقط فى الأراضى الزراعية بل ليس لديها أية مقومات طبيعية للصناعة كالفحم والحديد والمساقط المائية لتوليد الكهرباء، لذلك اتجهت صناعتها إلى إنتاج السلع ذات الحجم الصغير والدقيق أو صناعة السفن الصغيرة.

وتتميز هولندا بالتركيب الدينى لشعبها، فيكاد معتنقى المذهب البروتستانتى والمتركز فى شمالها يتعادل فى تعداده مع معتنقى المذهب الكاثوليكى والمتركز فى جنوبها.

بل إن بعض الأحزاب السياسية سميت بسيمتها الدينية فكان هناك الحزب الكاثوليكى والحزب البروتستانتى. وإن غيرت أسماءهن حديثا دون تغيير انتماء أفرادها وأفرادها.

وتراعى الحكومة هذه الحقيقة فى تصريحها فى بناء الكنائس التى تتبع أى من المذهبين. بل تراعيها أيضًا فى توزيع الأراضى الزراعية فى المناطق الجديدة المستصلحة كما تبين لى عند زيارتنا لمشروع تجفيف خليج زويدرزى بدعوة من وزارة الخارجية الهولندية.

وكانت دهشتى أن الكراهية بين معتنقى المذهبين عميقة حتى أن الكثيرين. كما علمت. يقفلون التليفزيون أو الراديو فى الوقت المخصص للمذهب الآخر. ولا شك أن هذه الدهشة ترجع إلى أننى كنت أتوقع أن الثغرة الدينية قاصرة تقريبًا على شعوب الدول النامية وقد تصادف أن قابلت باحثًا ألمانيا يجهز رسالة فى القانون الدولى مستعينًا بمكتبة العدل الدولية وأثرت معه هذه الظاهرة. كان رده بالنسبة لى مليء بأوضاع لم أكن أتصورها أو أعرفها، لم أكن أتوقع أن حرب الثلاثين عامًا بين الكاثوليك والبروتستانت فى القرن السابع عشر لا تزال كامنة فى النفوس.

كان مما قال إنه عندما وقعت معاهدة روما ١٩٥٤ الخاصة بإنشاء السوق الأوروبية المشتركة، كانت الأحزاب الكاثوليكية هى التى تتولى الحكم فى البلاد التى وقعت على المعاهدة مما سهل التفاهم والتقارب والتغلب على الكثير من المشاكل.

وأضاف أن هذا الموضوع لعب دورًا فى توحيد ألمانيا. فمن المعروف لديهم أن المستشار الألمانى أديناور أنه كان كاثوليكى متعصب وكان طوال نشاطه السياسى منذ العشرينيات ضد الشرق الألمانى والذى يعتبر معتقل البروتستانتية

وتولدت لديه القناعة النامية أن انضمام ألمانيا الشرقية والتى يدين أكثر من ٩٥٪ من سكانها بالمذهب البروتستانتى إلى ألمانيا الغربية والتى تتقارب فيها نسب معتنقى المذهبين، سيعطى البروتستانتية الأغلبية الانتخابية وبذلك يخسر الكيان الكاثوليكى وهو ما لا يقبله.

وتتمتع هولندا بشهرة عالمية فى زراعة الورد وخاصة التيوليب بل هناك بورصة خاصة بهذه السلعة. وفى موسم التزهير تتمتع هولندا بمناظر سبحان الله فى جمالها. فتجد عدة أفدنة باللون الأصفر والبعض الآخر باللون الأحمر والأبيض وغيرها من الألوان. أما صناعة الجبن ومنتجات الألبان فلها شهرتها ومذاقها المتنوع وتخضع أسعارها لبورصة الجبن فى مدينة الكامار.

ومن المظاهر التى تلفت النظر هو توزيع الألقاب على المدن الكبرى فى هذا البلد فامستردام هى العاصمة التاريخية ولاهاى هى العاصمة السياسية حيث توجد بها الوزارات والبرلمان والسفارات أما روتردام فهى العاصمة التجارية وقد أطلق عليها «بقالة أوروبا» لوقوعها على مصب نهر الراين والتى تقع على ضفافه بلجيكا وألمانيا ولوكسمبورج وفرنسا وسويسرا أما مدينة بوترخرت ونظرًا لتوسطها الجغرافى فهى عاصمة المواصلات والنقل.

ولم تكن هولندا وقتئذ من البلاد التى اكتشفتها الشعوب العربية فكان لا يتجاوز عدد المصريين عن ثلاثين فردًا يدرس أغلبهم فى جامعة فاختننجن الزراعية أو معهد الإدارة فى دلفت ولكن عندما قمت بزيارة هولندا سنة ١٩٨٤ لاحظت وجود أعداد كبيرة من المصريين والعرب يشتغل الكثيرون منهم فى تجارة السيارات المستعملة وأيضا فى مجال الأطعمة كالشاورمة والفلافل بل الكشرى والتى أقبل عليها الهولنديون بشغف غير متوقع.

بعض المظاهر والأحداث

مقابلة مع وكيل وزارة الخارجية

كانت المشكلة السياسية الملتهبة فى عام ١٩٥٧ و ١٩٥٨ هى مشكلة غينيا الجديدة (ويست إيريان) والتى كانت واقعة تحت الحكم الهولندى وتطالب بها إندونيسيا.

تلقت السفارة برقية من الوزارة تحوى وجهة النظر المصرية فى هذا الموضوع وطلب منى تسليمها لأعلى مستوى فى وزارة الخارجية الهولندية. فطلبت مقابلة وكيل الوزارة المختص وتحدد موعد المقابلة والتى تميزت بصراحتها.

بعض عرض وجهة نظر على الوكيل، رد علىّ قائلاً بأنه أخذ علمًا بمحتواها، ولكنه يود أن يوضح لى أمورا عدة، وهى أن هولندا ومصر على طرفى نقيض فى السياسة الدولية، فمصر دولة عربية إفريقية، ترفض الدخول فى أحلاف وتتبع سياسة ضد الاستعمار كما أنها فى حالة حرب مع إسرائيل. هذا فى الوقت الذى فيه هولندا دولة أوروبية وتتبع سياسة الأحلاف كما أنها دولة استعمارية ومع إسرائيل بل وقوتها. فعليه لا توجد أية أرضية سياسية تجمع بيننا وعليه فإنه ينصح بأن نركز على النواحى الاقتصادية والثقافية.

شكرته على هذه الصراحة التى أوضحت لى على أى أرض سأقف عليها والتى ستساعدنى فى التصرف فى حدودها، ووعدته بأن أنقل وجهة النظر الهولندية بكل وضوح للقاهرة.

وعندما هممت بالانصراف فوجئت بقولة بلهجة تشوبها الألم والغيظ أنتم ضيعتونا، أممتم قنال السويس فى ٢٦ يوليو ولم تكلفكم أكثر من ٤٠ مليون دولار، فشجعتم إندونيسيا على تأميم كل ممتلكاتنا فى أول أغسطس أى بعدكم بخمسة أيام والتى فاقت قيمتها مليار دولار ورغم ضخامة الرقم لم يلتفت أحد لصراخنا ودخلنا المعركة مع سوكارنو دون أى دعم أو اهتمام دولى مؤثر وقوى. والكارثة الأكبر أنكم نجحتم فى إدارة هذا المرفق الدولى بكفاءة. وأعطيتم لدول العالم الثالث مثلاً يحتذون به.

خرجت من عنده وقد وضح لى سر عداء هولندا لمصر والذى لمسته فى قراءاتى السابقة عن هذا البلد.

مقابلة مع بدوى باشا

كانت المقابلة مع وكيل الوزارة صدمة لى لم أكن أتوقعها، ووجدت نفسى متجهًا لبدوى باشا لأعرض عليه ما قاله هذا الوكيل والتمس منه النصح والتوجيه.

شرح لى بدوى باشا أن أكون باردًا فيما سأقابله من صعاب وإذا كانت هولندا تود الاقتصار فى علاقتها مع مصر على النواحى الاقتصادية والثقافية فعلى أن أعمل على ضوء هذه الرغبة.

شرح لى أن التأميم عمل من أعمال السيادة وحق لا تستطيع أية دولة الاعتراض عليه مادامت الدولة التى قامت بالتأميم تضع فى اعتبارها المواثيق الدولية فى مثل هذا الموضوع موضع التنفيذ. بل أشار إلى أن إنجلترا التى اعترضت على التأميم هى نفسها قد مارست هذا الحق فى الكثير من الصناعات والمرافق أيام حكومة العمال.

أوضح لى أن ما أثار الغرب هو أن مصر أثبتت قدرتها على إدارة هذا المرفق بنجاح، وهذا ما أثار حفيظتهم، إذ كانوا يتمنون فشلها فى إدارة القناة ومن ثم سوف نضطر إلى اللجوء إليهم ووقتئذ سوف يملون علينا شروطهم.

وبهذه المناسبة فإنى أوجه التحية والتقدير لهذه المجموعة من أبناء مصر أمثال محمود يونس و مشهور أحمد مشهور و عزت عادل و عبد الحميد أبو بكر وكذلك المهندسون والموظفون والعمال، الذين ساهموا فى إدارة وتشغيل القناة غداة تأميمها بكل اقتدار وواجهوا الصعاب ببطولة وبسالة وحققوا معجزة النجاح والتى ظن الغرب أنه سوف يستعصى علينا تشغيل هذا المرفق ويحق لنا القول أنه إن كنا نفتخر بعظمة مصر، فإن مصر وستظل دائما عظيمة بأبنائها.

تخلف الإعلام المصرى

خلال تصفحى لما تحتويه السفارة من منشورات وأفلام وجدت كما كبيرًا من النشرات والكتيبات والأفلام الإعلامية. ولما عاينتها أسفت للمبالغ التى صرفت عليها، لضآلة معلوماتها وسوء عرض محتوياتها واللغات التى كتبت بها.

وبالطبع لم تكن هناك أية مطبوعات باللغة الهولندية والتى لا يتكلمها سوى شعبها. والمفروض أن يكون البديل لها هى اللغة الإنجليزية والتى يتكلمها غالبية أفراد الشعب الهولندى. لكن لـلأسف إن النسبة الكبرى لهذه المطبوعات كانت باللغة الألمانية والإسبانية ولم يدر مرسل هذه المطبوعات أن اللغة الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية كانت لغة كريهة للشعب الهولندى نظرًا لما لاقاه من مآسى على أيدى القوات الألمانية. أما اللغة الإسبانية فلم أعرف سبب اختيار مراسلها لها إلا إذا كان يتصور أن احتلال إسبانيا لهولندا فى القرن السابع عشر قد ترك أثرًا ثقافيًا ولغويًا. وأغلب الظن أن المشرف على مخازن مصلحة الاستعلامات أراد أن ينظف أرففه فأرسل أى شىء سواء أكان نافعًا أو تافهًا.

أما بالنسبة للأفلام فقد وجدت ما يقرب من خمسين فيلمًا عن مصر وتقدمها وتاريخها. واستعنت بسيدة هولندية تدعى مسز فولتشر وهى عضو بجمعية الصداقة الهولندية المصرية لتقييم الأفلام ومدى صلاحيتها للعرض. وبالطبع كانت غالبية الأفلام بدائية فى مواضعها سيئة فى تصويرها. فمثلاً كان من ضمنها ثلاثة أفلام عن سباق الدراجات والذى كان يقام سنويا من الأقصر للقاهرة. لم تظهر هذه الأفلام عظمة آثار الصعيد أو لقطات للسباق لكن كان تركيزها على لجان الاستقبال فى المدن والتى أحاط بها أفراد يمثلون التخلف الحضارى للأسف.

ومثال آخر على تخلف مخرج فيلم «الدولة فى خدمة الشعب» وبالطبع كنت أتوقع أن أشاهد صورة رائعة لجهود الدولة لخدمة المجتمع المصرى.

لكن بدأ الفيلم بمدفعين على مدمرة تطلق قنابلها ثم تلى ذلك مخطوط «ثورة ٢٣ يوليو» ثم أعقب ذلك طائرتين من طراز ميج يطلقان الرصاص ثم عنوان الفيلم «الدولة فى خدمة الشعب» وفجأة صاحت مسيز فولتشر قف ما هذا التهريج وما هذا التناقض بين عنوان الفيلم وطريقة تقديمه، هنا بناء وهنا تدمير. وأخذت تشرح لى نفسية الشعوب الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية من كراهيتهم لكلمة الثورة وكل ما يمت للجيوش والسلاح وذلك لما لاقوه من عناء وفناء وتدمير خلال هذه الحرب..................

واستقر الرأى أخيرًا على أربعة أفلام فقط تصلح للعرض.

نموذج آخر للعقلية الغربية

كانت مصر هدفًا للحملات الصحفية وكان الرئيس عبد الناصر هدف مستحبا لكل من يرغب فى الهجوم عليها.

وحدث أن نشرت إحدى الصحف أن عبد الناصر كان فقيرًا وكان لا يملك سوى حذاء واحد يكرر إصلاحه عند إسكافى القرية ويبقى فى دكانه لحين الانتهاء من إصلاحه وخلال انتظاره تعلق بابنة الإسكافى وأحبها وتزوجها.

غضبت من هذه المقالة لما حوته من مغالطات وأردت الرد عليها لكن مسز فولتشر وهى عضو فى جمعية الصداقة العربية الهولندية أشارت بأنه يجب ألا ألقى بالا بهذه المقالات بل يجب التركيز على المقالات الخاصة بمصر وسياستها. وأن العقلية الأوروبية غير عقلية شعوب الشرق الأوسط لأنهم يحترمون من كان أصله متواضعا ثم يصل بجهده وشخصيته إلى مركز قيادة البلاد، وأن كثيرًا من زعماء أوروبا بدأوا حياتهم من الصفر.

أستطيع القول إن محادثاتى مع مسز فولتشر غيرت الكثير من مفاهيمى ومن نظرتى للأمور كما اقتنعت بأن الإعلام المصرى الموجه لكى ينجح لابد وأن يشارك فى وضعه علماء نفسيين دارسين لمشاعر الشعوب، حتى يكون المعروض متجاوبًا مع روحهم ومفاهيمهم واحتياجاتهم للمعرفة.

درس لم أتوقعه من مسئول هولندى

فى الأسبوع الثانى من يناير كل عام، تدعو ملكة هولندا رؤساء البعثات الدبلوماسية لحفل عشاء يجمعهم مع رجال وزارة الخارجية لتهنئتهم بالعام الجديد.

وحدث أن جلس بجوارى شخصية هولندية تبادلت معها ذكرياتى السابقة فى هولندا، ثم أتبعت ذلك بإعجابى بهذا البلد وبتقدمها رغم أنها لا تملك أى من مقومات الإنتاج كالفحم والحديد والكهرباء، بل إن نصف أراضيها مستخرجة من البحر فوجئت بجارى ينظر إلى بدهشة إنه يتعجب أن يصدر هذا الكلام من

مصرى، ثم أضاف إن ثروة هولندا هى من استعمارها لأندونيسيا لقد بقينا فيها ثلاثمائة عام نهبنا كل خيراتها، بل لم نترك بها سوى تسعة فى الألف من المتعلمين.

مشاعر الهولنديين تجاه الألمان

نشرت بعض الصحف الهولندية أن عمدة إحدى المدن فى حفل افتتاح معسكر الكشافة الأوروبى ألقى كلمة ترحيب باللغة الهولندية أعقبها بأخرى باللغة الإنجليزية وبالفرنسية. ثم قال أنه رغم إجادته الألمانية إلا أنه أخذ على نفسه عهدًا الا يتكلمها طوال حياته.

تناولت هذا الموضوع مع أحد الأصدقاء الهولنديين، فأكد على أن الكثير من الهولنديين قد التزموا بعدم التحدث بالألمانية كراهية لناطقيها لما لاقوه من ذل وهوان على أيديهم خلال الحرب العالمية الثانية.

وبمرور الزمن وبعد انضمام ألمانيا لحلف الأطلنطى اتجه الكثيرون من الألمان إلى هولندا خلال عطلة نهاية الأسبوع لشراء احتياجاتهم من البن والزبده وهما سلعتان كانتا خاضعتين للبطاقات فى ألمانيا وما يأتى مساء الأحد إلا وجميع أرفف محال البقالة فى شرق هولندا تصبح خاوية من هاتين السلعتين.

لكن بدأت بعض العناصر الهولندية والتى لا تزال تحمل فى قلوبها مرارة الذل والهوان، بدأت فى مهاجمة سيارات السياح الألمان بثقب الإطارات أو كسر فوانيس السيارات أو الكتابة عليها «أيها الخنازير عودوا إلى بلادكم أو هولندا ليست مكانًا للقتلة». ولما اشتدت الحملة تقدم السفير الألمانى إلى وزير الخارجية الهولندى محتجًا، وأبدى استعداد بلاده بعدم السماح لمواطنيها زيارة هولندا. فتحركت أجهزة الدولة لدراسة الآثار المرتقبة لهذه المقاطعة واضطرت الملكة أن توجه نداء للشعب بالامتناع عن هذه المضايقات، وأنه يجب أن يتحلى الهولنديون بروح الصفح والتسامح وفتح القلوب للمستقبل.

حفل ناجح خارج التوقعات

خلال شهر يناير سنة ١٩٥٨ صدرت الحركة الدبلوماسية بنقل بعض أعضاء السفارة وحضور بعض البدلاء. وانتهزت هذه الفرصة وأنا فى دوامة الغرور بمنصبى، أن أقيم حفل استقبال لتحية المنقولين والقادمين.

وحدد يوم ٢٦ فبراير لهذا الحفل. وكانت ردود بعض أعضاء السلك تنبئ بعدم نجاح هذا الحفل.

ولكن وقع حدث سياسى مهم فى مصر وهو الإعلان المفاجئ يوم ٢٢ فبراير الخاص بالوحدة مع سوريا فانعكس هذا الحدث على حضور الحفل، إذ استجاب للدعوة كافة السفراء ومن وجهت إليهم الدعوة وتركزت أسئلتهم معى إذا كنت أعرف مسبقًا حدوث هذه الوحدة كانت إجابتى غامضة تحمل بين طياتها روح المعرفة وفى الوقت نفسه الجهل بها، المهم أن هذا الحفل حقق ما هو غير الهدف الذى أقيم من أجله، إذ زادت علاقاتى بأعضاء السفارات بل البعض منها على مستويات أعلى من درجتى حيث تولد لدى البعض بأننى على صلة بالدوائر العليا فى مصر!!!

فى ملفات السفارة القديمة

خلال قراءاتى فى ملفات السفارة القديمة عثرت على مجموعة من صور بعض التقارير الذى كان يرسلها أحد السفراء فى غاية الطرافة.

إذ ركز السفير فى هذه التقارير على محاسنه ووجاهته. وفى تقرير كتبه عن تقديم أوراق اعتماده للملكة جوليانا أنه بعد ارتداء بذلة التشريفة، ارتدى طربوشه الأحمر القانى الذى زاده بهاء على بهاء ثم يصف المقابلة مع الملكة ويقول «وعندما سقط منديلها التقطته برشاقتى المعهودة» وفى عيد جلوس الملك أرسل مجموعة صور للبوفيه مع مجموعة من الطباخين. ويكتب أنه بعد العشاء الفاخر وزع «أكواب الشوكولاتة الساخنة اللذيذة» ثم أضاف فقرة فى نهاية التقرير أنه بمناسبة العيد السعيد لم ينس توزيع الحلوى على رجال

البوليس وأطفال الملاجئ مما جعلهم يرفعون أيديهم لله عز وجل أن يحفظ مليك البلاد.

وانتهت خدمتى فى هولندا وتوجهت لمنصبى الجديد فى اليونان مسلحًا بمعرفة محدودة عن أحوال السفارات وطريقة عملها وإدارتها.

اليونان
يونيه ١٩٥٩ - أكتوبر ١٩٦٠

بعد مضى عشرين شهرًا، وبعد أن بدأت أمورى فى الاستقرار والتكيف مع واقع البلاد وحدود علاقاتها ومشاعرها تجاه بلدى، صدرت حركة الدبلوماسيين فى مايو ١٩٥٩ متضمنة نقلى إلى اليونان. تلقيت الخبر بمشاعر مختلفة، فمن جهة أحببت هولندا رغم ظروف العمل بها، ومن جهة أخرى فإن أثينا أقرب إلى القاهرة بالإضافة إلى أن اليونان لها مكانة خاصة فى قلبى.

ويعتبر شعب اليونان بأصوله التاريخية وبما ساهمت حضارته القديمة فى تقدم البشرية والعلوم. ويفتخر بأن بلاده قد قدمت للعالم الفلاسفة العظام **سقراط وافلاطون وارسطو** وعلماء الهندسة والفلك والدراما والشعر ويفتخر بأنه شعب امتد كيانه حتى شمل أغلب سواحل البحر الأسود والتى لا تزال بعض مدنه تحمل أسماء يونانية كفارنا فى بلغاريا وأوديسا فى روسيا، كما شمل هذا الكيان كل غرب شبه جزيرة آسيا الصغرى موطن الإلياذة والأودية وكل سواحل وجزر بحر إيجه ومقدونيا موطن **الإسكندر الأكبر** والذى تحدى العالم ونشر الحضارة الإغريقية حتى الهند. ويرى الشعب اليونانى أن شبه الجزيرة اليونانية هى جزء من الهيلينية الكبرى ولهذا فإن ملك اليونان. عندما كانت ملكية. لم يكن يطلق عليه **ملك اليونان** بل **ملك الهيلينز**. وقد صنف المؤرخ البريطانى الكبير **ارنولد توينى** حضارات دول البحر الأبيض القديمة فذكر أن الحضارة الفرعونية

امتازت بالعمارة، والحضارة الرومانية تميزت بالقوانين وكيفية إدارة الدولة، أما الحضارة اليونانية فإنها تتميز بوضع قواعد العلاقة بين الدولة والفرد والحرية.

ويحترم أبناء اليونان الحضارة الفرعونية ويعتزون بالامتزاج الذى حدث معها، بداية باحترام الإسكندر الأكبر لديانة الفراعنة ومعتقداتهم ما جعلته يدعى بأنه ابن الإله آمون ويستمر هذا التمازج متمثلا فى حكم أسرة البطالسة لمصر والذى استمر ما يقرب من ثلاثة قرون ولم يكن هذا التواجد قاصرا على الحكم بل إن مصر فى ذلك العهد احتلت المرتبة الأولى فى الحفاظ على الحضارة اليونانية وعلومها وآدابها. ولا غرو أن هذه الحقائق التاريخية جعلت الجالية اليونانية أكبر جالية أوروبية فى مصر عبر كل العصور، بل كان أهل اليونان يطلقون على هذه الجالية اليونانية «الموجودون فى الدور الأسفل» ولاشك أن قرب اليونان من منطقة الشرق الأوسط علاوة على أنها كانت جزء من الإمبراطورية العثمانية حتى عام ١٨٢١ أن انعكس هذا على المجتمع اليونانى فى كثير من الظواهر مثل نظرية للحياة. فهو يحب الحياة السهلة ويؤمن بالقدرية والقدرة على التعايش والتلون بالبيئة التى يعيش فيها كما أن هناك تشابه كبير فى مجالات أخرى كالمطبخ والرقص الشعبى والذى يشبه إلى حد كبير لرقصة الدبكة ولا تزال اليونان تضع فى كل تصرفاتها فى السياسة الخارجية مراعاة المحافظة على علاقاتها مع الدول العربية وتحاول أن تخلق توازن بين هذه الحقيقة وكونها دولة أوروبية عضوة فى الاتحاد الأوروبى.

العلاقات بين مصر واليونان

امتازت العلاقات بين البلدين بالاحترام والتفاهم والتقدير. وخلال الحرب العالمية الثانية تعمقت هذه العلاقات بلجوء الأسرة المالكة اليونانية وقطاع كبير من المجتمع والشباب اليونانى إثر غزو ألمانيا لليونان إلى مصر. وبعد قيام ثورة ٢٣ يوليو التزمت مصر فى سياستها الخارجية الدفاع عن مبدأ حق تقرير المصير، وانعكس هذا الالتزام على دفاعها عن حق المجتمع اليونانى القبرصى فى تحقيق هدف وحدته مع الدولة الأم (اليونان) مثال هذا الموقف الإعجاب



استقبال الرئيس عبد الناصر فى ميناء بيريه

والتقدير من كل من ينطق اللغة اليونانية خاصة أن هذه الرغبة وقفت ضدها الكثير من الدول الكبرى بالذات. وقد ردت اليونان هذا الجميل بوقوفها بجانب مصر فى قضية تأميم قناة السويس والمساهمة الإيجابية لأبنائها المرشدين فى تيسير الملاحة فى القناة.

ولعبت الشخصيات اليونانية، التى نشأت بل ونالت جانبا من تعليمها فى مصر، دورًا كبيرًا فى تعزيز العلاقات بين البلدين. فكان وزير الخارجية المستر افيروف من عائلة قديمة عاشت فى مصر منذ منتصف القرن التاسع عشر وكان عمه من كبار تجار القطن فى الإسكندرية وأثرى من هذه التجارة حتى أنه تكفل ببناء الملعب الذى أقيمت عليه أول دورة أوليمبية سنة ١٨٩٦ وساهم وزير الخارجية فى تكوين جمعية الصداقة المصرية اليونانية. كما كان مدير إدارة الشرق الأوسط المستر بتسيوس من مواليد الإسكندرية والتى عاش فيها حتى وصل إلى المرحلة الجامعية كان هناك الكثيرون، منهم حارس مرمى المنتخب المصرى فى كرة الماء والذى كان أحد مديرى شركة الطيران اليونانية (اوليمبك) ومن الطبيعى أن هجرة الكثيرين من الجالية اليونانية فى مصر إلى البلد الأم، أوجد مشكلة فى اليونان. لكن تعامل معها الجانب اليونانى بكثير من التعقل والتفاهم. وقد شرح لى المستر افيروف وجهة النظر اليونانية تجاه هذه الهجرة بأنهم لا يلومون مصر حيث إن هؤلاء غادروها طواعية لكن المشكلة أنهم على مستوى عال من الكفاءة وإتقان العديد من اللغات مما جعل الشركات والمؤسسات تتخاطفهم، مما أثر على فرص العمل لأبناء اليونان.

ونظرًا لقصر الفترة التى أمضيتها فى اليونان فإننى لم أتعرض للكثير من الأحداث والتى سأعرض أهم ما قابلته.

زيارة الرئيس عبد الناصر لليونان

كانت زيارات الرئيس عبد الناصر قاصرة على دول العالم الثالث والاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا. لكنه قرر تقديرًا لمواقف اليونان والشعب اليونانى فى قضية تأميم قناة السويس أن يقوم بزيارة هذا البلد فى يونية ١٩٦٠ حفلت

الزيارة باهتمام كبير على المستوى الرسمى والشعبى وأبدت رابطة الطلبة اليونانيين خريجى الجامعات المصرية استعدادها لتقديم أقصى جهدها لإنجاح الزيارة. لكن لاحظت السفارة أن الحكومة اليونانية لم تنشر صور الرئيس على الحوائط أسوة بما قامت به لرؤساء الدول التى سبق زيارتهم لليونان. فطلبت من مصلحة الاستعلامات المصرية والتى تجاوبت بسرعة كبيرة فى إرسال ما يقرب من خمسة آلاف صورة لعبد الناصر. ولما كان نشر هذه الصور يتطلب الحصول على إذن من وزارة الخارجية، تقدمت إليها بالطلب لكن شعرت بتقاعسها ومراوغتها إذ جعلتنى أتردد على عدة إدارات حكومية من أجل الحصول على الإذن. وأخيرًا وصلتنى الموافقة فى الساعة الواحدة صباحًا أى قبل الزيارة بثمان ساعات والحمد لله استطاعت السفارة بالتعاون مع جمعية خريجى الجامعات المصرية أن تغرق الطرق التى سيمر بها موكب الرئيس من بيريه إلى أثينا بصوره بل وعلقت يافطات الترحيب باللغة العربية أصبحت الشوارع لا تختلف عن أى شارع فى مصر يمر بها موكب للرئيس وحققت الزيارة نجاحًا كبيرًا وساعد على نجاحها تجاوب كافة طبقات الشعب وعلى خلاف اتجاهاتهم السياسية، وشعورهم بالفخر والاعتزاز بأن تكون بلدهم اليونان هى أول دولة أوروبية يزورها عبد الناصر ومن الطريف أن تطلق صيحات الترحيب باللغة العربية مثل نورت يا ريس أو مرحب بلدياتنا وبعد انتهاء الزيارة قام سفير اليونان بالقاهرة بزيارتى وسألنى عن انطباعاتى عن الزيارة وكانت إجابتى هى الشعور بالرضا والارتياح، لكن استفسرت منه عن سبب تقاعس السلطات اليونانية فى الإذن لى بنشر صور الرئيس كانت إجابته خارج كل تصور بل رجانى فى الاحتفاظ بسر ما سيقوله لى.

وهو أن الملك كان مترددًا فى إقرار الزيارة. ثم أصبح متخوفا منها نظرًا لشعبية عبدالناصر فى اليونان لذلك طلب من الحكومة الترحيب به لكن لا تتعدى مظاهر الترحيب الشعبى فى الشوارع عن حد معين. واصل السفير فلان بأنه أفهم كل الدوائر أن عبد الناصر جاء لليونان للتعبير عن تقديره للدور الذى قامت به خلال أزمة قناة السويس.



الرئيس عبد الناصر يستقبل ملك اليونان وأسرته بدار السفارة المصرية فى يونيو ١٩٦٠

القضية القبرصية

كانت إحدى اهتماماتى الخاصة قبل عملى فى اليونان هو متابعة القضية القبرصية مع دراسة لشخصية **الأسقف مكاريوس** لذلك ركزت اهتماماتى على أحوال هذه القضية والتى أسفرت عن دراسات عن تطورها وأيضا دراسة وتحليل للدستور القبرصى والمعاهدات التى أبرمت بين بريطانيا واليونان وتركيا وهى المعاهدات المؤسسة لدولة قبرص. وساعدنى على ذلك صداقتى لمندوب **الأسقف مكاريوس** فى اليونان المستر **كرانديوتس** والذى أمدنى بمعلومات مفيدة ومثيرة عن الأحداث وعن علاقات الأسقف بكل من اليونان **وجريفاس** وأيضا عن **علاقة جريفاس بالحكومة اليونانية والتى استقبلته استقبال الأبطال عندما جاءها من قبرص لكن تطورت العلاقة إلى القطيعة بينهما حيث إن جريفاس كانت له أطماع نرجسية وتصور أن خلاص اليونان من أزمتها ستكون على يديه ولو أدى الأمر إلى قلب نظام الحكم.**

كانت تقاريرى عن قبرص دافعة للوزارة أن ترسلنى مرتين للتفاوض مع الأسقف مكاريوس لتبادل التمثيل الدبلوماسى وإنشاء سفارة مصرية فى نيقوسيا وأخيرا قررت الوزارة نقلى من اليونان إلى قبرص على أن يتم التنفيذ قبل ١٥ أكتوبر.

وفى يوم قبل السفر استدعانى المستر بتسيوس مدير إدارة الشرق الأوسط لمقابلته وفوجئت عند وصولى لمكتبه بقوله إن المستر افيروف ينتظرنى فى مكتبه. وبالطبع أخذت أفكر فى الدافع لهذه المقابلة مع وزير خارجية رغم وجود السفير المستر افيروف بقوله إنه علم بنقلى إلى قبرص ويود أن أحمل له رسالة انقلها لكل من أقابله فى الجزيرة. أفاد بأنه يعرف مدى التقدير والحب الذى يكنه المجتمع اليونانى القبرصى وعلى رأسه الأسقف مكاريوس لمصر ولرئيسها وأن هذا المجتمع يشعر بالثقة فى آراء مصر وزعيمها. وبناء عليه فإنه يطلب منى أن أحاول تعريف أعضاء المجتمع اليونانى بالجزيرة أن يكفوا عن المظاهرات والاجتماعات التى تطالب بضم الجزيرة لليونان (وهى الحركة المعروفة (اينوسيس) أى الوحدة) لأن الوحدة لن تتحقق وأن اليونان قد تعبت من هذه القضية سواء فى المجال الدولى أو الداخلى والتى أصبحت لعبة الأحزاب السياسية اليونانية. وأن لدى الدوائر اليونانية شعورا بالقناعة بأن الحل الذى توصلت له الأطراف المعنية وهو استقلال الجزيرة هو الحل الأمثل لها وأن الأوفق لهم الاهتمام بحل مشاكلهم السياسية والاقتصادية.

أود القول بأننى عندما وصلت لقبرص شعرت بأن هناك تحول جذرى فى التمسك بشعار الوحدة إذ تولد لدى الكثيرين من القبارصة الشعور بالكيان الذاتى وأنهم أصبحوا عضوا مستقلا فى المجتمع الدولى علاوة على أن أصبح منهم الوزراء والسفراء والبرلمانيين ولذلك لم أكن فى حاجة لبذل أى جهد فى توصيل رسالة افيروف للمجتمع القبرصى.

محفظة رئيس وزراء لبنان

اتصل بى سفير لبنان وأفادنى بأنه سيحضر فورًا لمقابلتى نظرًا لأنه يواجه موقفًا سخيفًا فى منزله. وصل سيادته وهو فى غاية الاشمئزاز واليأس ذكر أن السيد رشيد كرامى رئيس وزراء لبنان وهو صديق عمره وزميل دراسته يقيم بدار السكن بصفته الشخصية لقضاء بضعة أيام عنده بعيدًا عن الرسميات وتصادف فى ذلك الوقت أن زارته ابنة أخته مع زوجها لقضاء بضعة أيام من شهر العسل.

أكمل السفير قصته بأن السيد كرامى أخبره أمس أنه لا يجد حافظة نقوده وبالتالى فهو مضطر للعودة مبكرًا.

انزعج السفير وأسرته لهذا الخبر، وبذلوا جميعًا أقصى جهدهم للعثور عليها دون نجاح لكن فى صباح اليوم عندما أرادت السيدة حرمه ترتيب حجرة العروسين أن سقطت محفظة رشيد كرامى من بدلة العريس وهو الآن لا يعرف كيف يواجه الموقف معه أخذنا نتباحث فى الأمر وأخيرًا اقترحت عليه أن يعطى للخادمة إجازة لمدة أسبوع ويخبر الرئيس كرامى بأنه رفدها حيث إنها هى التى سرقت حافظة نقوده لكن فى الوقت نفسه عليه أن يطرد العروسين بغض النظر عن القرابة سعد السفير بهذا الحل وتخلص من الموقف الحرج الذى كان فيه.

ولكن الرئيس كرامى أعجبته اليونان فقرر البقاء أسبوعًا آخر واضطر السفير إلى رفد الخادمة وإعادتها بعد مغادرة كرامى.



موسكو
١٥ سبتمبر ١٩٦٤

فى ديسمبر سنة ١٩٦٣ صدر قرار جمهورى بتعيينى سفيرا لمصر فى زنزبار أو بالطبع لم أكن سعيدا بهذا القرار حيث إن هذه الجزيرة كانت لا تزال تعيش فى أجواء القرن الثامن عشر.

لكن شاءت الأقدار ألا أنفذ هذا القرار نتيجة للأوضاع التى مرت بها زنزبار من ثورة أهلها المنحدرين من أصل إفريقى ضد سادة البلاد المنحدرين من أصل عربى ثم انتهت الجزيرة من الوجود كدولة مستقلة إذ ضمتها تنجانيقا فى إبريل سنة ١٩٦٤ وأصبح اسمها الجديد وهو الجارى الآن (تنزانيا).

وقع هذا الضم قبل سفرى لتولى هذا المنصب بيوم واحد فقط وكنت قد أجرت مسكنى واشترى أحد الأصدقاء سيارتى وشعرت بأننى أصبحت عالة على من يأوينى فتوجهت لوزير الخارجية السيد/ محمود رياض وشرحت له وضعى فكان رده أن تعيين السفراء فى الخارج من اختصاص السيد/ رئيس الجمهورية أو ما هو دون ذلك فإنه يستطيع التصرف فيه.

وفقنى الحظ فى أن سفيرنا العظيم فى موسكو الدكتور مراد غالب كان بالقاهرة ويرغب فى اختيار وزير مفوض للعمل معه. وقد كان لشخصية هذا الرجل العظيم أثرا فى نفسى منذ لقائى الأول معه عام ١٩٥٥ حيث كنت عضوا

فى منتخبنا القومى لكرة الماء ونلعب فى بطولة موسكو الدولية وكان سيادته سكرتيرا أول بالسفارة وحمدت الله أنه وافق على التحاقى بالسفارة بموسكو وفى يوم ١٦ سبتمبر ١٩٦٤ استلمت عملى بالسفارة لكن لم أجد أحدا يهتم بى إذ كانت كلها مجندة لخدمة زيارة السيد/ على صبرى رئيس مجلس الوزراء والوفد المرافق له والذى بلغ حوالى أربعة وستين شخصا يمثلون كافة أنشطة مصر الاقتصادية والإنتاجية.

وهنا أشير إلى أن خروشوف والذى كان فى استقبال السيد/ على صبرى هالة هذا العدد فقال له (ومن تركته يعمل فى مصر وبدأت حياتى فى موسكو، والتى سأتعرض لها تحت عناوين مختلفة بعضها عام والبعض الآخر له صفة فردية. علما بأننى سأتعرض للسياسات العامة فى أضيق الحدود حتى لا تشد القارئ عن الحدث ومعناه. وأرجو أن لا ينسى القارئ أننى أكتب عن أحداث وأوضاع مرت عليها أكثر من أربعين عاما وتعرضت الأمور والسياسات السوفيتية لكثير من العوامل والهزات والتى طورت الاتحاد السوفيتى إلى ما هو عليه الآن.

المجتمع السوفيتى

لقد تحمل شعب هذا البلد ما لم تحمله شعبا آخر. فقد كانت حياته خلال العصر القيصرى لا يبعد كثيرا عن مظاهر الرق والذى استمر حتى قيام الثورة البلشفية فى أكتوبر عام ١٩١٧، واستمر هذا الشعب فى خضوعه للنظام المطلق بعد قيام الثورة تحت إعصار ستالين وعهده والذى راح ضحيته أكثر من ٣٠ مليون نسمة بل وصل جبروته أن يصدر أمرا عند قيام الحرب العالمية الثانية بنفى شعبين هما الشيشان وإقليم الفولجا الألمانية إلى سيبريا وتملكت ستالين عقيدة ضرورة اتباع هذه السياسة القاسية بهدف الوصول بشعبه إلى مستوى شعوب غرب أوروبا مهما كانت الثمن. لكن جاء قيام الحرب العالمية الثانية وبالا على ما تم إنجازه إذ فقد الاتحاد السوفيتى ما يقرب من عشرين مليون نسمة.



مع السفير مراد غالب فى جامع موسكو فى أحد الأعياد الإسلامية

و ٨٠٪ من قدراته الصناعية وحرق وتدمير كافة مدن وقرى غرب الاتحاد السوفيتي. ورغم انتصاره فى هذه الحرب إلى أن سياسته استمرت على منوالها المتشدد حتى جاء موته عام ١٩٥٣ إنقاذا لهذا الشعب البائس من حكمه القاسى.

وجاءت قيادة جديدة تطورت فى أدائها بقدر محسوب حتى لا يفلت العيار. لكن لعبت ظروف العالم الغربى وإنجازاته العلمية والتى قفزت فوق الستار الحديدى دورا كبيرا فى تطوير نظامه السياسى والاقتصادى والتى استمرت دهرين ثم تولدت عنها تكوين الأحزاب السياسية واتباع سياسات السوق. وبدأت الامبراطورية السوفيتية فى التآكل والسقوط بداية فى بولندا وأتبعتها باقى دول الستار الحديدى حتى جاء يلتسين ويتغير الاتحاد السوفيتى وفلسفته ويتغير العلم الروسى من الأحمر القانى إلى ثلاثة ألوان. وساعد فى إذكاء روح التطور أفراد القوات المسلحة التى حررت بلدان شرق أوروبا ولمست رغم مآسى الحرب أن هناك مجتمعات أكثر تقدما عن مجتمعهم الروسى والتى كانت الدعاية السوفيتية تشيد به وبأنه الأمثل لخدمة الشعوب ولا يجب أن نغفل فى تحليلنا جغرافية الاتحاد السوفيتى وانعكاسه على سلوك الفرد الروسى.

من حيث بعد المسافات بين التجمعات السكانية وقسوة الأحوال الجوية ولنا أن نتخيل شكل الحياة عندما تصل درجة الحرارة إلى ٤٠ مئوية تحت الصفر الأمر الذى يحد من الاختلاط وخروج الفرد إلى خارج منزله أى أن الطبيعة تحالفت مع الأنظمة السياسية منذ عهد القيصرية إلى عزوف المواطن الروسى عن الاختلاط وخاصة مع الأجانب.

وأستطيع القول بأن الفرد الروسى به الكثير من أخلاق المجتمع الريفى من حيث تمسك الفرد بالأرض وفى ذلك قال خروشوف «بأن الفلاح لا يتنازل بسهولة عن قطعة الأرض التى يمتلكها حتى لو كانت بحجم ظله». وكان الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت يسمح لكل فلاح بحرية زراعة نصف فدان وفق رغبته. وفى الأسواق الحرة المخصصة لإنتاج هذه الأراضى كنا نتمتع بأحلى وأطعم إنتاج زراعى وحيوانى من هذه الأراضى رغم أن سعرهما أضعاف مثيلاتها فى المحلات الحكومية إما علاقة الفرد السوفيتى بالأجانب فكانت إذا اتيحت له

الفرصة هو أخذ الحيطة فى كلامه خاصة إذا كان الأجنبى لا يشاركه الشراب. أما إذا تبسط الأجنبى وشاركه شرابه فإنك تجد شخصا آخر يطلق النكتة تلو الأخرى خاصة لو كانت على نظامه وشخصيته وعلى أسلوب حياته وأتذكر من النكات المعبرة عن الحياة فى الاتحاد السوفيتى فى إطار نظريته التى تهتم باحتياجات المستقبل على حساب الجيل المعاصر هو أن شخصا توجه إلى منزل رجل الفضاء كاجارين وطلب مقابلته فأجابه ابنه بأن والده توجه إلى القمر وسيعود بعد ساعة فسأله عن والدته فأجابه بأنها ذهبت إلى السوق لتشترى خضارا وسوف تعود بعد ثلاث ساعات ويقول أحدهم إن صديقه كان فى زيارة رسمية فى باريس وعقب عودته سأله عن الأحوال فى فرنسا فكان رده «أن هذه البلاد لا تعرف النظام لأن كل واحد فيها ماشى على كيفه اللى عايز يمشى يمين يمشى واللى عايز يمشى شمال يمشى أما هنا فى الاتحاد السوفيتى الكل لازم يمشى شمال» وكانت دهشتى كبيرة عندما شعرت بحقيقة كانت تخفيها كتب النظرية والدعاية الحزبية والحكومية وهى أن الشعب السوفيتى لم ينس دينه بل هو موجود فى وجدانه. فقد كنا تحت الانطباع بأنه لا يعترف بأى دين سماوى بناء على ماجاء فى الدستور السوفيتى والذى ينص على أن الدولة تشجع الاتحاد وما كانت تبشر به النظرية الاشتراكية العلمية بأنها لا تؤمن بما هو وراء الطبيعة والتلقين النظرى الذى كان يفرض على المواطن الروسى منذ دخوله المدارس وكان الكثيرون من العاملين فى الدولة وقطاعاتها لا يعلنون عن ميولهم الدينية حتى لا تكون عقبة أمام ترقياتهم إذ أن من يعرف عنهم ممارسته لدين أو له ميول دينية لا يرقى إلى منصب قيادى لأكثر من خمسة أشخاص ولذلك كانوا يخفون حقيقة إيمانهم لحين خروجهم إلى المعاش فيمارسون الدين إما فى دور العبادة أو فى منازلهم ومن هنا يشاهدهم أحفادهم ويعرفون أن هناك دينا وعقيدة وهكذا يمرون فى نفس الدورة التى مر بها أجدادهم.

لكن كان هناك فرق كبير فى تعامل الدولة مع المسيحية وتعاملها مع الجمهوريات الإسلامية إذ اعتبرت الثورة أن الكنيسة كانت متضامنة مع النظام القيصرى واعتبرتها أحد أعمدة الإقطاع بما كانت تملكه من أراضى شاسعة أما

الشعوب الإسلامية فقد كانت أكثر حرية فى ممارسة عقيدتها بل والتمسك بها ويرجع الكثيرون السبب فى ذلك هو أن لينين أعلن أن الجمهوريات الإسلامية كانت شبه مستعمرات للحكومة القيصرية وقبضة رجال الدين المسيحى هنا بالإضافة إلى بعد هذه الجمهوريات عن مراكز التوجه الشيوعية فى كل من موسكو ولينتجراد وأتذكر أنه فى أيام عيدى الفطر والأضحى تقوم الحكومة السوفيتية بمنع المرور فى الشوارع المؤدية للجامع الوحيد فى موسكو ومن ثم يتجمع مجموعه من المسلمين ويتوجهوا إلى الجامع ويرددون (الله أكبر محمد رسول الله) ولا أكثر من ذلك ويزدحم الجامع بشكل رهيب لكن الملحوظة الكبرى أن كانت هناك نسبة كبيرة من الشباب المسلم يمارس الصلاة بإيمان عميق. وأتذكر أيضا أن الحكومة السوفيتية قدمت عرضا لمسرحية كان فيها تحريض قاس على السيد الرسول (ص) وازدحم المسرح بالمسلمين والذين أبدوا اعتراضهم عليها بل كان البعض يبكى لما يتعرض له رسول الله (ص) من إساءة وإهانة واضطرت الحكومة إزاء احتجاجهم إلى إيقاف العرض بعد ثلاثة أيام حفاظا على مشاعر المجتمع الإسلامى.

ورغم أن الحكومة والحزب عملوا على جعل الحركة العمالية الدولية هو هدفه إلا أن هذا لم يقض على روح الوطنية. فعندما قامت الحرب مع ألمانيا نشرت الدولة صورة لسيدة روسية وكتبت عليها (أمك روسيا تناديك) ولم يكتب الاتحاد السوفيتى. وفى هذا المجال حاز الجيش السوفيتى مكانة كبيرة فى قلوب الشعب السوفيتى حيث إن بدخوله برلين منتصرا أشبع رغبة كانت فى مشاعره وأملا كان يريد تحقيقه منذ قرون وهو التفوق على ألمانيا فى أى مجال.

ولذلك لم يكن غريبا أن يدخل أكبر قائدين عسكريين فى المكتب السياسى تدعيما لخروشوف عندما قاد حملته على عهد ستالين والمتعاونين معه.

المجتمع الدبلوماسى والعمل الدبلوماسى

أستطيع القول إن المجتمع الدبلوماسى كان يضم فى غالبية خير ما يمثل

بلاده فى الخارج. بل إن الكثيرين منهم لا يتولون مناصبهم فى سفاراتهم فى موسكو إلا بعد أن يتعلموا اللغة الروسية، والتى تتم فى دورات تدريبية تشمل محاضرات عن الاتحاد السوفيتى وسياساته بحيث يتولى منصبه وهو على دراية قوية بما سيقابله فى منصبه، وكان السلك الدبلوماسى يعيش فى عمارات خاصة بهم ومحرم على الفرد السوفيتى الإقامة فيها. ولذلك كثر الاختلاط بيننا دون رسميات. فزاد ذلك من معرفتنا بالأحداث والتحليلات بل وأيضا بأحوال بلاد الدبلوماسيين أنفسهم. أما العمل فقد كانت تقابله صعوبات عديدة (فالخبير فى الاتحاد السوفيتى هو ليس بقدر ما يعلم، ولكن بقدر ما لا يعلم) عبارة قالها مراسل مجلة نيوزويك فى موسكو بعد وصولى بأيام قليلة من استلام العمل بسفارة مصر تلقيت هذه العبارة الفلسفية الغامضة، من رجل له خبرة تسع سنوات عمل فى هذا البلد. واعتبرتها نوعا من الهرطقة السياسية التى يحب الكثيرون التلفظ بها كدليل على تعمقهم فى فهم الأمور ولم يمر وقت طويل حتى وجدت أنه لنجاح العمل فى الاتحاد السوفيتى فإنه يحتاج لبذل جهد وعمل أكثر من أى موقع دبلوماسى آخر حتى تضيق الفجوة بين العلم والجهل بما يدور فى هذا البلد كما أن هناك قواعد وأسس لابد من وضعها فى الاعتبار بل والالتزام بها حتى تتوصل إلى حد معقول من النجاح فى مهمتك.

بداية لابد لمن كان يعمل هناك فى ذلك العصر أن تكون لديه دراسة متعمقة عن النظرية الاشتراكية العلمية. وقواعدها وأهدافها وأسلوب تطبيقها، حيث إن الأحداث السياسية والقرارات الاقتصادية، لابد من تأصيلها أيدلوجيا، عليه أن يتحلى بالصبر على قراءات عديدة وقراءة الخطب والمقالات الجافة الطويلة، إذ قد تحوى بين سطورها عبارة واثنتين هى الغرض الأساسى من هذه المطولات، عليه أن يتمتع بقدرة على التحليل الموضوعى للحدث أو القرار، لأن ما ينشرعن أى حدث. يقابل إما بالإشادة والإطراء أو بالهجوم والنقد. فعليه فإن الفرد فى تحليله يجب أن يكون موضوعيا حتى لا ينزلق لأى من الاتجاهين وزاد من صعوبة التوصل إلى الحقيقة أن عالمية الأحداث والمناسبات وكذا التقدم فى وسائل الأعلام أدت إلى تشابك الأمور والحلول، بل وفى بعض الأحيان إلى التضارب فى

القرارات.

فأحيانا كان الاتحاد السوفيتى يتعامل مع الموقف أو المشكلة على أساس أنه دولة، وأحيانا فى موقف مشابه، على أساس أيدلوجى.

و أخيرا فإن من ثوابت النجاح فى العمل الدبلوماسى هو ضرورة تضافر وتعاون الأجهزة التى تعمل فى حقل السياسة الخاصة بالاتحاد السوفيتى الحكومية منها والأهلية، وعدم إهمال أية بادرة أو ظاهرة حتى ولو كانت فى حالة السكون، لأنه قد يكون فى سكونها مغزى سياسى.

وأضرب مثلا على ذلك ففى أغسطس عام ١٩٦٦ حدث اجتماع فى موسكو ضم رؤساء مجالس وزارات الدول الاشتراكية والأوروبية و سكرتيرى الأحزاب الشيوعية. ونظرا لخطورة مثل هذا الاجتماع الذى جمع بين جهاز الدولة وجهاز الحزب من كل دولة فقد اهتممنا بمجريات أموره وتوقعنا أن يكون البيان المشترك شاملا وواضحا. لكن خيبت أملنا كانت كبيرة إذ صدر البيان المشترك ولم تزد كلماته عن أنه فى يوم كذا اجتمع رؤساء وزارات وسكرتيرو الأحزاب الشيوعية فى البلاد الاشتراكية الأوروبية ودار الحوار فى جو أخوى رفاقى، ثم قام السادة المشتركين بزيارة قاعدة بوكانير المخصصة لإطلاق الصواريخ، ولم يزد حرفا واحدا عن ذلك فاضطرت السفارة أن تطرح هذا الموضوع ومناقشته فقمنا بتحليل الظروف السياسية التى تمر فيها هذه الدول الاشتراكية الأوروبية وأيضا الحركة الاشتراكية على مستوى هذه الدول وباقى دول العالم. وحيث إن البيان وصف الحوار بأنه كان أخوى ورفاقى، اعتبرنا أنها دليل على عدم عرض النزاع السوفيتى الصينى وإلا كانت رومانيا قد اعترضت وتغيرت هذه العبارة إلى أخوى وصريح. وصرنا فى تحليل جوانب البيان إلى أن وصلت إلى موضوع الزيارة لمحطة إطلاق الصواريخ فلم نجد تبريرا لها سوى أن هذه الزيارة كانت ترضيه لشعوب هذه الدول الاشتراكية حيث إن الاتحاد السوفيتى قد سمح للجنرال (دى جول) أحد أعمدة دول حلف الأطلنطى خلال زيارته إلى موسكو بمشاهدة إطلاق أحد الصواريخ من هذه القاعدة، فى الوقت الذى لم يسمح من قبل لهؤلاء القادة شرف هذه المشاركة وأستطيع القول بأن ما وصلنا إليه من

تحليلات أثبتته المقالات الصحفية والتصريحات التى تلت المؤتمر صحة ما توصلنا إليه فى حدود ليس أكثر من خمسين فى المائة وهى نسبة عالية من النجاح.

ومن معاشرتى للسلك الدبلوماسى أثبتت أن الطبيعة البشرية قوية فى نفوس البشر عن المستوى الحضارى فالتطلع والتعاطف بل الغيرة والحقد والشللية كانت متمثلة فى هذا المجتمع. فمثلا صرحت لى زوجة الملحق العسكرى لسفارة دولة عظمى أنه لا توجد بسفارتها أى شلة تضم أكثر من ثلاثة أو أربعة أفراد. كما كان هناك صراع يجرى فى كثير من السفارات بين السفارة والمكاتب الفنية وخاصة العسكرية وكانت سفارات دول العالم الثالث وخاصة العربية هدفا للاختراق بواسطة من يدعون أنهم متعاطفون مع قضايا هذه الدول بل ولا مانع من أن يدفعوا بزوجات بعضهم أو السكرتيرات للحصول على أية معلومات تفيدهم.

وشمل المجتمع الدبلوماسى أنماطا مختلفة من البشر فكان هناك سفير لإحدى الدول الغربية والذى جمع ستة مليون روبل من أسواق سويسرا وفيينا ليتاجر بها فى السوق السوداء وبالطبع طلب الروس من بلده استدعاءه وكانت العلاقة بين الوزير المفوض فى سفارة غربية كبيرة وسفيرة فى غاية السوء مما تسبب فى أن الوزير لم يدخل دار السكن خلال الأربع سنوات التى خدمها معه إلا مرتين ولا أنسى السفير الذى اشتهر بالقسوة فى معاملاته مع أعضاء سفارته والتى كانت مكونة من تسعة أعضاء، سبعة منهم طلبوا نقلهم والثامن اضطرته الظروف أن يقبل العمل تحت رئاسته أما التاسع فقد انتحر. ويتحدث الوسط الدبلوماسى عن سفير دولة غربية كبيرة يهوى لعبة البوكر استطاع بنفوذه فى وزارة خارجيته أن يعين أربعة دبلوماسيين أغنياء فى سفارته وكانت مهمتهم الأساسية لعب البوكر معه وسفير آخر وزع أفراد أسرته المكونة من أربعة أفراد على محلات الأنتيكات فى موسكو ولينينجراد حتى يكون أول مشتر لأية تحفة. ولا غرو أن كانت دار سكنه متحفًا للتحف.

وتصمم سفيرة على عدم زواج ساعى السفارة والمقيم فيها إلا اذا تعهد بعدم

وليس آخرا إن سفير إحدى دول أمريكا اللاتينية استطاع أن يخدع الحكومة السوفيتية والوسط الدبلوماسي لمدة أربعة أعوام إذ قدم سيدة على أنها زوجته بينما كانت هي في الواقع عشيقته وأحمد الله أن سفارتنا في موسكو كانت تضم نخبة من أكفاء الدبلوماسيين بالوزارة وأكثرهم علما وثقافة، وقد كان للسفير العظيم مراد غالب بفضل علمه وأخلاقه دورا كبيرا في خلق هذا الجو البناء، الأمر الذي دفع بسفير النمسا والذي كان يتقلد قبل تعيينه في موسكو منصب مديرا للمعهد الدبلوماسي النمساوي العتيق لمدة عشرين عاما أن يقول للسفير. أهنئك يا مراد على مستوى أعضاء سفارتك) وأثار ترابطنا ومستوانا احترام الجميع بل حسدنا البعض على ترابطنا الاجتماعي. واستطاعت السفارة بفضل هذا الروح إنشاء نادي اجتماعي للجالية العربية نلتقي فيه مرة كل اسبوع وأيضا في الأعياد. بل واستطاع إنشاء مدرسة ابتدائية يقوم بالتدريس فيها زوجات أعضاء السفارة. ولازالت هذه المدرسة قائمة حتى الآن لخدمة أبناء الجاليات العربية.

بعد هذا العرض السريع للأحوال العامة التي كنا نعمل فيها في موسكو، سوف أتعرض لبعض الأحداث والمواقف.

يوم عزل خروشوف

في يوم ١٣ أكتوبر سنة ١٩٦٤، ولم يكن قد مضى شهر على عملي في موسكو، حدث أن توجهت مساء إلى ميدان الكرملين لمشاهدة الترتيبات التي يقوم بها الاتحاد السوفيتي لاستقبال رجال الفضاء لأول رحلة جماعية في الفضاء. وعندما عدت إلى منزلي اتصل بي السفير الدكتور مراد غالب وطلب مني الاستماع إلى محطات الإذاعة الأجنبية، حيث إن هناك أخبارا مهمة ستذاع وعلى الاتصال به إذا ما عرفت شيئا فمكثت على جهاز الراديو أقلب محطاته حتى الساعات الأولى من الصباح، ولكن لم أسمع شيئا مثيرا لكن في اليوم التالي فوجئت كما فوجئ الجميع بصدور قرار من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي بعزل خروشوف من مناصبه كسكرتير عام الحزب الشيوعي والذي هو

السوفيتى بعزل خروشوف من مناصبه كسكرتير عام الحزب الشيوعى والذى هو أقوى منصب فى الدولة، وأيضا من منصبه كرئيس للوزراء. وتضمنت القرارات أيضا تعيين قيادة ثلاثية للاتحاد السوفيتى أطلق عليها (ترويكا) ومكونة من المستر بريجنيف سكرتيرا عاما للحزب، وبدجورنى رئيسا للدولة وكوسيجين رئيسا للوزراء ولم تصدر قرارات أخرى، وبالتالى فسرت الأمور على أن اجتماع اللجنة المركزية كان قاصرا على محاسبة خروشوف وعزله.

ومن الطبيعى أن هذا الخبر المثير جعل السفارات تعمل بنشاط مكثف كخلية نحل فى محاولة التعرف على حقيقة هذه الأحداث ودوافعها فزادت معدلات الزيارات بينها، وزادت (الهمهمة والوشوشة) وكل يحاول تحليل الأحداث، لأن ما نشر رسميا كان مقتضبا ومبهما وفى الوقت نفسه لا يمكن الاعتماد كلية على ما تنشره وسائل الإعلام الغربية وكان من المناظر الطريفة المقابلات التى تمت بين أغلب السفراء إذ كانت تجرى فى الشوارع تجنبا لمخاطر التصنت عليهم فى مقارهم.

وفى هذا الجو النشط، كنت أقوم بزيارات التعارف على من هم فى درجتى من رجال السلك ونصحنى البعض أن أسرع بزيارة المستر بريملا والوزير المفوض البريطانى لخبرته العريقة فى سياسة الاتحاد السوفيتى إذ بدأ فى هذا التخصص منذ الحرب العالمية الثانية، بل وعمل بالاتحاد السوفيتى أربع مرات، وكان رئيسا لمكتب هذه الدولة فى وزارة الخارجية البريطانية كما سبق له الخدمة فى كوبا خلال أزمة الصواريخ المشهورة. وبالفعل كانت مقابلته ممتعة كما سبق له الخدمة فى كوبا خلال أزمة الصواريخ المشهورة. وبالفعل كانت مقابلته ممتعة وشيقة بل ومفيدة، إذ أنه علاوة على ماضى خدمته كان المستر بريملا يتمتع بذاكرة قوية والتى كان يتباهى بترديد مقتطفات من خطب ومقالات نشرت منذ سنين عديدة ليؤكد بها على وجهة نظره. كما لاحظت أيضا أنه كلما زدته إطراء يكون فى حديثه أكثر عطاء.

سألنى المستر بريملاو، كيف أرى الأحداث الجارية فى الاتحاد السوفيتى؟! كان ردى بأننى لازلت حديثا فى هذا البلد، ولا أعتقد أن رأيى أو حكمى سيكون

مفيدا، بل من الأفضل أن أسمع منه. أجاب بأنه فيما يحدث لا فرق بين زميل حديث الخدمة فى موسكو وآخر قديم له مثل خبرته؛ لأن عزل خروشوف كان مفاجأة لهم ولكافة الدوائر الغربية، إذ أنه فى المقابلة الأسبوعية التى تعقد فى السفارة الأمريكية وتشترك فيها السفارات الغربية للتباحث والمناقشة فى الأمور الجارية بالاتحاد السوفيتى، أجمع المشاركون فيه على أن خروشوف هو أقوى شخصية فى البلاد، فكان قرار عزله مفاجأة لهم جميعا ولم يتوقعها أحد منهم.

استمر بريملاو فى حديثه ذاكرا، أنه فى يوم عزل خروشوف، وردت لهم برقية من وزارة الخارجية، أن مراسل الجارديان أبرق لصحيفته يصف التجهيزات ومظاهر الترتيبات التى يقوم بها الاتحاد السوفيتى للاحتفال بعودة أفراد رحلة جماعية فى الفضاء وختم المراسل برقيته بأنه لاحظ توقف هذه التجهيزات عن اليوم السابق.

ثم ذكر بريملاو أنه بعد هذا العرض، طلبت منهم وزارة الخارجية البريطانية التحرى عن مدلول هذه العبارة الأخيرة، وكان تعليقا على هذا الطلب أن الشخص الجالس على مكتب الشئون السوفيتية بالوزارة يحاول أن يثبت وجوده ويظهر عضلاته، عموما اتصلنا بالسفارة الأمريكية وبأفراد الإعلام الغربى عما إذا كانت هناك أمور غير عادية، فكانت إجابتهم ما بين السخرية والنفى، بل وأكدوا أن خروشوف لا يزال فى شبه جزيرة القرم مع وزير البحث العلمى الفرنسى. وتابعنا الموقف فى العاصمة ولكن لم نلاحظ شيئا غير عادى.

واستطرد بريملاو قائلا ولكن عندما توجهنا للسفارة لفترة عمل بعد الظهر أفادنى أحد الزملاء أنه شاهد ثلاث سيارات سوداء رسمية قادمة من مطار فونو كوفا والمخصص لقادة الحزب والدولة ورؤساء الدولة الأجنبية متجهة إلى الكرملين بسرعة فائقة، ويعتقد أن خروشوف كان بإحدى هذه العربات.

وهنا ضربنا أجراس الإنذار وأصبحنا جميعا نحن وكافة السفارات الصديقة (All Eyes and Ears) وعلمنا أن هناك اجتماعا طارئا للجنة المركزية للحزب، وأن خروشوف استدعى من القرم، ولكن أؤكد لك أنه رغم كل ما بذلناه من جهد

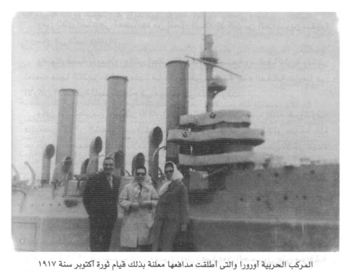
لم نعرف سببا لهذا الاجتماع، ولكن فى الساعة العاشرة مساء والدقيقة اثنتين وعشرين، علمنا برفع صورة كبيرة لخروشوف من على جدران المتحف التاريخى الواقع فى ميدان الكرملين فقلنا (The King is down) ولهذا لا أعتقد يا صديقى، أن من سبقك فى الخدمة فى موسكو يعلم أكثر منك، أن النظام فى الاتحاد السوفيتى من أعقد ما يمكن، فلا زلنا لا نعرف من دعى لهذا الاجتماع كيف لا يدرى خروشوف به رغم مناصبه، ورغم أعوانه فى كل من الحكومة والحزب!

ومن الذى استدعى أعضاءها من أنحاء البلاد إذ كان من الحاضرين سفيرا موسكو فى دلهى وبلغراد.

وانتهت قصة بريملاو، والتى أعتقد أنها كانت واضحة وصادقة وثرية ولكننى تعلمت منها الكثير، تعلمت منها ما ذكرته فى مقدمة هذه المقالة عن ما هى الأركان الأساسية للعمل بنجاح فى موسكو فى ذلك الوقت.

وكان من الطبيعى أن تكثر الأقاويل والاستنتاجات عن سبب إقالة خروشوف، فالبعض ذكر أن الشعب السوفيتى شعر بمهانة لتصرفه غير اللائق عندما خلع حذائه فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ولوح به للرئيس، والبعض الآخر اتهمه بأنه أضاع هيبة الاتحاد السوفيتى بمعالجته الفاشلة لقضية الصواريخ السوفيتية المرسلة لكوبا وبتقهقره المشين أمام الولايات المتحدة بل ردد البعض أن أحد الشبان صفعه فى إحدى المناسبات أمام الحاضرين لهذا السبب، وقال البعض إن تصرفه كان بدائيا وهمجيا عندما قابل رجال الأعمال الأمريكان، إذ خطب فيهم وهو واقف على كرسى متعرضا للاهتزاز والوقوع. ولم يترك اليهود هذه الفرصة للتعرض بمصر، إذ نشروا إشاعة أنه منح مصر خلال زيارته لها فى يوليو سنة ١٩٦٤ قرضا بمائتى مليون روبل ذهبا دون الحصول على موافقة الحكومة السوفيتية.

وذهب بعض العقلاء فى قولهم بأن خروشوف الذى هاجم ستالين فى المؤتمر العشرين سنة ١٩٥٦ وهاجم ديكتاتوريته، أصبح هو نفسه ديكتاتورا بجمعه لوظيفتى رئاسة الحزب والحكومة وإن اختلف عن ستالين فى وحشية التطبيق والتنفيذ.



المركب الحربية أورورا والتى أطلقت مدافعها معلنة بذلك قيام ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧

عموماً بدأت خدمتى فى موسكو، بحادث كبير دفعنى لأن أزيد من جهدى فى العمل، حيث إنه يختلف فى طبيعته عن كل ما تعلمته فى مراكزى السابقة، محاولاً كما سبق وذكرته التوصل بالتفكير الموضوعى إلى أقرب نقطة للتحليل السياسى الصحيح.

صرخة نكروما

فى فبراير عام ١٩٦٦ توجه نكروما إلى الصين فى زيارة رسمية عن طريق موسكو، ولكن ما كادت تطأ قدماه بكين حتى قام انقلاب عسكرى فى بلاده غانا، أودى بنظامه وجاء بآخر أكثر ميلا إلى الغرب، فقطع نكروما زيارته وأسرع بالعودة إلى موسكو لدراسة الموقف ولتقرير خطواته التالية.

وفى اليوم التالى من وصوله، استدعانى وطلب منى إبلاغ الرئيس عبد الناصر بأن يشمل أسرته برعايته، كما أضاف بأنه سيعود إلى بلد إفريقى مجاور لغانا ليواصل كفاحه وجهوده ضد الاستعمار. واستأذنت منه للانصراف، وما كدت أصل إلى باب الصالون إذا به يصيح (اسمع واسمع جيدا، بلغ رئيسك الآتى أن الغرب لن يتركه، ففى العام الماضى ١٩٦٥ كان سوكارنو فى آسيا، وهذا العام ١٩٦٦ نكروما فى إفريقيا، وسيكون دوره فى العام القادم ١٩٦٧، فليأخذ حذره) وجاء عام ١٩٦٧ وكلنا نعلم ما حدث...

مفهوم العمق التاريخى للشعوب فى نظر الأمريكان

حدث فى إحدى حفلات الاستقبال أن وقفت مع مجموعة من دبلوماسى أوروبا، وتناول حديثنا تعاقب حضارات الدول بداية بحضارة الفراعنة.

وخلال وقفتنا انضم إلينا الوزير المفوض الأمريكى وسألنا عن الموضوع الذى نتكلم فيه. ولما أجبناه كان رده أنهم لا يعطون للزمن وزنا فى حكمهم على الحضارات فإن ما يؤمنوا به هو مدى مساهمة هذه الدولة فى تقدم الإنسانية فبلاده التى مضى على تواجدها على الخريطة السياسية قرنان من الزمان قد ساهمت فى التقدم الحضارى ما لم قدمته أى حضارة أو دولة أخرى.

فانيرى له الزملاء الأوروبيون موضحين أنهم هم أساس الحضارة الأمريكية فقد قامت أساسا على ما توصلت إليه بلادهم فى مختلف العلوم بل ولا تزال المساهمة الأوروبية قائمة بعلمائها الذين تسرقهم أمريكا فى الزمن المعاصر.

استعراض عسكرى تحت الأرض

فى عام ١٩٤١ وصلت القوات الألمانية ضواحى موسكو وبقيت فى مواقعها لحين انحصار شهر الشتاء. ولكن فوجئ الشعب بستالين يعلن أنه سيقيم استعراضا عسكريا فى موسكو بمناسبة الاحتفال بأعياد أكتوبر تلقى هتلر هذا التحدى بتهديد عنيف بأنه سيدمر ويقتل كل الأفراد المشتركة فى هذا الاستعراض واستمرت المعركة بين الزعيمين ستالين يؤكد وهتلر يتوعد. وفى يوم الاحتفال بثورة أكتوبر توجه ستالين وقادة الاتحاد السوفيتى إلى محطة مايكوفسكى وهى أكبر محطة مترو ولا تؤثر فيها أى قنابل نظرا لعمقها تحت الأرض، ومرت عربات المترو المسطحة تحمل المدرعات والمربات وعربات الركاب تحمل جنود المشاة وهكذا تحقق وعد ستالين.

درس على مائدة العشاء

كان السيد الطرزى سفير سوريا لدى الاتحاد السوفيتى من الشخصيات العربية المشهود لهم بالكفاءة وقوة الذاكرة. وفى يوم أقام حفل عشاء دعا إليه السفراء العرب وكان لى حظ مشاركتهم باعتبارى قائما بالأعمال بالنيابة.. وكان من ضمن المدعوين سفير تونس والمعروف عنه انتقاده الحاد للقومية العربية وعدم اعترافه بها. وفى ذات الليلة كان هجومه عليها عنيفا وقاسيا الأمر الذى أحرج صاحب الدعوة** وخلال تناول العشاء أدار السفير السورى الحديث، وبدأ هو و السفير اللبنانى والعراقى فى استعادة أيام الشباب ومساهمتهم فى المظاهرات ضد الفرنسيين والإنجليز خلال فترة دراستهم. وقال السفير السورى إنه كان يدرس بالجامعة الأمريكية فى بيروت حين قبض عليه خلال مشاركته

بمظاهرات تدافع عن حق لبنان فى الاستقلال وأكمل السفير اللبنانى ذكرياته بأنه كان فى ذلك الوقت بحلب برفقة والده عندما أصابه أحد رجال البوليس بجرح فى رأسه خلال المظاهرات التى قامت بها جامعة حلب لهذا الغرض.

ثم أعقب ذلك السفير العراقى الذى شارك فى المظاهرات التى قامت فى عمان ضد التواجد البريطانى.

وعندئذ التفت السفير السورى للسفير التونسى قائلا: ما كنا نتكلم فيه يا أخى لهو أحسن تعبيرًا عن معنى القومية العربية فى أبسط شرح لها.

لقد قبض على فى بيروت، وجرح السفير اللبنانى فى حلب والسفير العراقى شارك فى مظاهرات عمان.

لم يعلق السفير التونسى على هذا الكلام، بل سكت، ولم نعرف إن كان قد اقتنع بسرد السفير السورى أم لا.

لكن حدثت مفاجأة بعدها بشهر تقريبا، إذ وجهت وزارة الخارجية السوفيتية الدعوة لبعض السفراء لزيارة أحد مشاريع الكهرباء.

وكان من ضمن المشاركين سفير أوروجواى والذى كان أحيانا يفرط فى الشراب ويقول دون وعى ما يدور فى ذهنه وفوجئنا به وبدون مناسبة يتهجم على العرب ويشيد بإسرائيل، وكانت المفاجأة الأكبر بأن الذى تولى الرد عليه وبشدة تكاد تصل إلى حد السباب، بل وبالعمالة لإسرائيل كان السفير التونسى.

روسيا أم الاتحاد السوفيتى

فى صيف ١٩٦٦ قام الجنرال ديجول بزيارة للاتحاد السوفيتى وحفلت هذه الزيارة بمظاهر ضخمة من التكريم والتقدير لشخصيته وجهوده فى التأكيد الشخصية الاستقلالية لفرنسا فى المجال الدولى.

لكن حدث أن الجنرال ديجول فى اليوم الأول من الزيارة كان يردد فى خطبه كلمة روسيا بدلا من الاتحاد السوفيتى، فأشارت القيادة السوفيتية بطريقة هادئة ومهذبة لأحد أعضاء الوفد الفرنسى بهذه الملحوظة.

في حديث مع مستشار السفارة البلجيكية في موسكو ذكر لي أن ديجول أبدى اعتذاره لهذا الخلط غير المقصود وأنه ليس لخلطه أي مدلول سياسي قائلا: لقد تغلب عليه الحس التاريخي لاسم هذا البلد على الحس السياسي.

المستر جروميكو والنادي الأهلي

في ديسمبر سنة ١٩٦٩ قام المستر جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفيتي بزيارة لمصر، وعينت مرافقا له في تحركاته.

وبعد مقابلته للرئيس عبد الناصر، توجهنا إلى منزل السيد أنور السادات نائب رئيس الجمهورية بالجيزة وتصادف في ذلك اليوم أن فاز النادي الأهلي على نادي الزمالك، وطوال الطريق كنا نرى الأعلام الحمراء والشباب يهلل للنادي الأهلي.. وازدادت الأعلام كلما قربنا منه وعندما وصلنا إلى ميدان التحرير التفت إلى المستر جروميكو بوجهه الجامد وسأل هل حدث شيء في البلد.

شرحت له سبب هذه الأعلام الحمراء فابتسم وسكت.

مفهوم الدول الصغيرة لدى البعض

في ديسمبر ١٩٦٧، ونحن نعيش في مأساة حرب ٦٧، اتصل بي مستشار السفارة السويسرية وسألني بلهجة مثيرة عما إذا كنت قد سمعت الأخبار. بصراحة انزعجت وصحت بلهفة (هل هي تتعلق بمصر).

رد على «لا إنما أكلمك وقوات الفيت كدنج تحارب داخل السفارة الأمريكية في سايجون أبديت له دهشتي وإعجابي بهذه الجسارة الفيتنامية، لكن ما أثار دهشتي هي اللهجة الحماسية التي كان يتكلم بها هذا الزميل وهو يخبرني بهذه الأحداث.

وفي ذات اليوم، قابلته في حفل استقبال وسألته عن سبب لهجته المثيرة والتي شعرت منها إعجابه بما قامت به قوات الفيت كدنج.

أجابني بأنه كدولة صغيرة تنظر شرقا فتجد العملاق الروسى وتنظر غربا فتجد العملاق الأمريكى، وتخشى أن تنظر شمالا وتجد ألمانيا موحدة، وبالتالى أين سيكون مكاننا.

نحن كدولة صغيرة إننا لا نقبل إزالة الدول الصغيرة من على الخريطة السياسية أيا كانت ميولها واتجاهاتها، لأنه قد يأتى الدور على بلدى»

ثم اقترب منى وأضاف بأنه من هذا المنطق نؤيد كثير من الدول ومنها دولته لبقاء دولة إسرائيل لا حبا فى ذاتها بل لأنها دولة صغيرة تعيش فى خضم أمة كبيرة.

مصر والاتحاد السوفيتى

كانت فترة عملى فى الاتحاد السوفيتى من سبتمبر ١٩٦٤ حتى أغسطس ١٩٦٨ غنية بكل ما فى هذه الكلمة من معان. ويكفى القول إننى كنت أمارس مهنتى فى بلد هى أحد قطبى العالم ومركز الاشتراكية العلمية الدولية وما من قرار على الساحة الدولية إلا ولها صوت مسموع وحاسم، وكانت ملاذاً لشعوب العالم الثالث فى جهادهم للحصول على استقلالهم السياسى والاقتصادى كل هذه الحقائق، وغيرها زودتنى بذخيرة ثرية من المعلومات والمعرفة.

وفى إطار هذه الحقائق كان لمصر دور كبير ومكانة متقدمة لدى الاتحاد السوفيتى بل كانت العلاقة بين البلدين مثالا للتفاهم والتعاون.

ولى وقفة فى هذه النقطة، وهى أن التعاون كان بين دولتين وليس بين عقيدتين، إذ لابد من التفرقة بين الاتحاد السوفيتى كدولة وبينه كنظرية. ورغم التعاون الوثيق فى كافة المجالات إلا أن مصر كانت حريصة ألا يعبر هذا التعاون إلى مجال العقيدة، ونتذكر فى هذه النقطة إلى الجدل الذى أثير بين الرئيس عبد الناصر وخروشوف عندما تمادى الاتحاد السوفيتى فى علاقته مع عبد الكريم قاسم والذى ادعى إيمانه بالنظرية الاشتراكية العلمية ومتبينا المد الشيوعى فى المنطقة ومرة أخرى عندما ظهر الاتحاد السوفيتى عزمه على إعطاء دورة

أيدلوجية لضباط البعثات العسكرية المصرية فى الاتحاد السوفيتى، فاعترض عبد الناصر على هذا التفكير بل طلب من السفير مراد غالب إبلاغهم أن مصر سوف تسحب كافة البعثات العسكرية إذا أصر السوفييت على هذه الدورات وعندما وجهت الدعوة إلى خروشوف لزيارة مصر سنة ١٩٦٤ أظهر تردده فى تحقيق الزيارة إذ كيف وهو رئيس أكبر دولة شيوعية فى العالم يقوم بزيارة دولة تضع الشيوعيين فى السجون والمعتقلات.

وقامت القيادة المصرية بإجراء للتغلب على هذا الاعتراض بأن أطلقت سراحهم قبل موعد الزيارة ثم أعادت سجنهم بعد انتهائها وأخيرا كان هناك آلاف من الخبراء السوفييت فى كثر من المجالات ومع ذلك وقف عمق إيمان الشعب المصرى بدينه حائلا دون انتشار الشيوعية ولم يكتب لها الانتشار إلا فى حدود ضيقة جدا ألخص كلامى فى هذه النقطة أن العلاقة بين الدولتين كانت علاقة دولة بدولة وليس بين نظرية ونظرية وأن القيادة المصرية وضعت حدودا للتعاون بين البلدين.

ومن الغريب أن العلاقات بين البلدين عند إنشائها فى الأربعينيات اتسمت بسكون سياسى واقتصادى، بل وعندماقامت ثورة ٢٣ يوليو كانت هدفا لهجوم حاد من الاتحاد السوفيتى ونال زعماء الثورة وابلا من النقد ووصفهم فاشين ونازيين. لكن تطورت العلاقات جذريا بداية من عام ١٩٥٤ عندما وقعت صفقة الأسلحة التى تلاها فرض الاتحاد السوفيتى لمشروع السد العالى. ومساهمته العملية والهندسية فى إقامته. ثم توالت مبادرة التعاون فى شتى المجالات وتتعمق كلما زادت محاربة الغرب للنظام الناصرى.

وأتذكر فى هذا المجال بعض الأحداث بين البلدين.

نعم (فإن هذا القمح من لحمنا)

فى يوم السبت الموافق ٦ يوليو سنة ١٩٦٥ توجهت للسفارة بعد الظهر لإنجاز بعض الأعمال وكنت فى هذه الفترة قائما بأعمال نظرا لقيام السيد السفير

بإجازته السنوية وبينما كنت فى حديث مع أحد الزملاء فوجئت بتليفون فى حوالى الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين وإذا بالمتحدث شخص من الكرملين يطالبنى بالتوجه فورا لمقابلة كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى .

وكان الطلب وتوقيته مفاجأة لى حقا. إذ أنه كان بعد ظهر يوم سبت والمعروف لدينا جميعا أن السوفييت يقدسون أجازة آخر الأسبوع. ثم ما بال رئيس الوزراء يطلبنى على هذا الوجه من السرعة وفى هذه الساعة. فاعتذرت للمتحدث قائلا له إننى مضطر للتوجه للمنزل لتغيير ملابسى وسأحضر فورا، فوافق على هذا وكان هدفى من ذلك إتاحة الفرصة لنفسى لالتقاط أنفاسى ومحاولة معرفة سبب هذه المقابلة العاجلة جدا. هل هى تتعلق الموقف فى الجزائر؟ حيث إن «بن بلا» قد أطيح من منصبه من أيام سبقت. هل تتعلق بشىء خاص عاجل بالموقف بين مصر وإسرائيل. هل ارتكب أحد منا وليكن سفيرنا شيئا يستوجب هذا الاستدعاء. سألت زميلى عما إذا كان لدينا شىء من القاهرة يتطلب مقابلة كوسيجين وبعد أن شربت فنجانا من القهوة أسترد به أنفاسى توجهت إلى الكرملين حيث قابلنى على مدخله أحد رجال الحرس وقادنى فورا إلى حجرة مكتب كوسيجين ودخلتها وكانت حجرة طويلة، وفى آخرها منضدة يقف بجوارها رئيس الوزراء السوفيتى بوجهه الصارم، فاستعذت بالله، وطلبت ستره ومعاونته. وبادرنى كوسيجين بقوله إنه عندما كان نائب رئيس الوزراء السوفيتى بالقاهرة، طلب منه رئيسكم عبد الناصر إمداده بكميات من القمح نظرا لقرب نفاذ المخزون لديكم. وأنت تعلم دقة موقفنا من هذا الموضوع حيث إننا استوردنا عشرات الآلاف من الأطنان هذا العام لعجز محصولنا، ولكن نظرا للصداقة بين الشعبين ولعلمنا بحساسية هذا الموضوع وأهميته البالغة فقد أصدرنا تعليماتنا بتوجيه ٣٠٠ ألف طن بصفة عاجلة لكم بل أمرنا المراكب المتوجهة إلى الموانى السوفيتية بتحويل مسارها إلى الإسكندرية لتفريغها، أما بالنسبة للثمن فهذا يمكن الاتفاق عليه فيما بعد كانت الكلمات المتدفقة من فم كوسيجين، عبارة عن مفاجآت متتالية لى، وبعد برهة أجبته بأن شعبنا الذى وجد معاونة الاتحاد السوفيتى فى بناء سده العالى، لن يسعه إلا أن يقدم شكره

الجـزيل له، خـاصـة وأن كل حبـة قـمح سـوف تصل إلى فم كل واحـد منـه. وأنني سـوف أبرق فورا لحكومتي بهذه المعلومات فما كان من كوسيجين إلا أن مسك صدره بيده اليمنى قائلا «نعم فإن هذا القمح من لحمنا» وقد كانت مصر تستورد القـمح من الولايات المتحـدة إمـا بالثـمن أو عن طريق مـشـروع المسـاعـدات الغذائية. وحدثت اتصالات عديدة من الجانب المصرى، لكن الأمريكان سوفوا فى الرد حتى وصل الاحتياطى الاستراتيجى فى مصر مايكفى لمدة ١٥ يومًا عندمـا اعتذرت أمريكا عن إمـداد مصـر بالقـمح الأمر الذى دفع عـبد النـاصـر التقدم بطلبه.

قام الرئيس عبد الناصر بزيارة رسمية إلى الاتحاد السوفيتى فى أغسطس ١٩٦٥ وكانت الزيارة ناجحة بكافة المقاييس. إذ تنازل السوفييت عن نصف مليار جنيه حسابى من الديون العسكرية كهدية لعبد الناصر بمناسبة هذه الزيارة. أما هدية مصر فكانت آنية من الألابستر من مخازن حفريات سقارة.

لم يكن فى الميزان التجارى المصرى الروسى أية بند يتعلق بالبترول ولكن ظهرت حاجة مصر لبترول خام تقوم هى بتكريره وبيعه على أن يخصص عائد البيع لتغطية تعويضات أبناء الجاليات الإيطالية واليونانية. وإزاء هذه الحاجة قام السيد الوزير الدكتور القيسونى بزيارة إلى موسكو ومعه وعد بأن الاتحاد السوفيتى سوف يضع تحت تصرفه ١,٢ مليون طن زيت خام وخلال مقابلته لوزير التجارة السوفيتى المستر باتولتشيف أبدى رغبته فى زيادة الكمية مليون طن أخرى. وكان رد باتولتشيف إنه لا مانع لديه لكن لا يستطيع إقرار ذلك بمفرده ونصحه بأن يثير هذا الموضوع مع رئيس الوزراء كوسيجين عند زيارته له حيث إن البترول السوفيتى هو المورد الرئيسى للعملة الصعبة. كماوعده بأنه إذا سأله كوسيجين عما إذا كان المركز البترولى الروسى يسمح بذلك فسوف يجيبه بالموافقة وبالفعل حقق الدكتور قيسونى هدفه وارتفع رصيد مصر فى الواردات البترولية الروسية فى الميزان التجارى من صفر إلى ٢,٢ مليون طن، بعد حوالى شهر فوجئت السفارة ببرقية من وزارة الاقتصاد بمطالبة الاتحاد السوفيتى بمليون طن أخرى!!! وبالطبع رفض هذا الطلب.

فى مايو ١٩٦٦، فوجئت السفارة ببرقية تفيد بأن وفدًا اقتصاديًا كبيرًا برئاسة أحد السادة الوزراء سيزور موسكو بعد يومين. واستطاع الوزير المفوض التجارى معرفة سبب زيارة الوفد وأخبرنى بأن المستر جروميكو عند زيارته لمصر فى مارس ذلك العام للقاهرة علم بصعوبة الموقف الاقتصادى بمصر وحاجتها إلى قمح ومواد خام لزوم مصانعها.

وأنه أوضح للمصريين صعوبة مركز القمح فى الاتحاد السوفيتى واقترح تخفيفـا لهذا العبء أن تقوم مصر بشراء موادها الخام اللازمة من الاتحاد السوفيتى بقيمة الدين العسكرى على أساس إعادة جدولته فى السنوات التالية، وتشترى مصر قمحًا من السوق الحرة من الخارج قمحا.

وحيث إننى كنت قائما بالأعمال بالنيابة فقد توجهت لاستقبال الوفد وخلال انتظارنا للحقائب سألت السيد الوزير عن الهدف من الزيارة لأتأكد مما توصل إليه الوزير المفوض التجارى فكان رده غريبا «بكرة هتعرف فى المفاوضات» فسكت على مضض. وفى اليوم التالى وفى جلسة الافتتاح فوجئ الجميع بأحد الزملاء يدخل قاعة الاجتماع بحقيبة سفر جلد كبيرة والتى فتحها وأخرج منها ثلاث مجموعات كبيرة من المطبوعات. وبعد كلمات الترحيب والإشادة بالتعاون بين البلدين، قال الوزير إنه أحضر معه طلبات مصر متمثلة فى هذه المطبوعات وأنه يأمل فى الحصول على رد خلال أسبوع. وهنا سأله الوزير الروسى وكم تقدر هذه الاحتياجات من الناحية المالية فرد الوزير المصرى أنه يقدرها بمليار وثلاثمائة مليون جنيه حسابى. وفوجئنا جميعا بالوزير الروسى يتكلم باللغة الإنجليزية «إننى سوف أقع من على الكرسى» وكرر رقم الوزير المصرى ثم أضاف وأنا لا أستطيع الرد عليكم قبل أسبوعين حتى لو جندت كل أعضاء وزارتى لدراستها ولذلك أنصح سيادتكم بالعودة إلى مصر وسنوافيكم بما يمكننا القيام به. ورد الوزير المصرى إنه مطالب بالعودة لمصر ومعه الرد السوفيتى ولذلك سوف يبقى أسبوعا واضطر السوفييت إلى عمل برنامج ترفيهى لهم بزيارة لننجراد وبعد عودتهم صرحت لهم شخصية روسية (الم توحشكم عائلاتكم) وكأنها دعوة صريحة لهم بالعودة لمصر أضيف بأن وزير مصرى آخر

قام بزيارة لاحقة لموسكو فعرضت عليه ما حدث. فكان رده للأسف لم يعرف الوزير الهدف من زيارته إذ أنه تعرض لاحتياجات مصر فى الخطة الخمسية.

أرجو تبليغ هذه الرسالة

فى حفل السفارة التى أقامته احتفالا بالعيد القومى يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٦ اختلى بى نائب رئيس العلاقات الاقتصادية الخارجية وقال «أرجوك تبليغ ما سأقوله لك ولرؤسائك بالطريقة التى تراها مناسبة. لقد صرح رئيس وزرائكم السيد زكريا محى الدين فى مجلس الأمة بأن نسبة الغياب فى شركة الحديد والصلب بحلوان بلغت تقريبا حوالى ٢١٪ الأمر الذى جعلكم تطالبون منا القيام بإدارة المصنع. نحن غير عاجزين عن القيام بهذه المهمة ولكن سبق أن لجأت مصر لشركات ألمانية كشركة كروب وشركة أخرى متخصصة لإدارة الأعمال الهندسية لكنهما فشلا ليس لعجزهما بل لأن قوانين العمال عندكم تعطى حقوقا ولم تفرض على العمال واجباتهم. ورغم أننا دولة عمالية تقف دوما فى صف العمال إلا أننا لا نستطيع إدارة هذا المصنع إلا بقوانيننا. فعندنا إذا بلغت نسبة الغياب فى إحدى المؤسسات واحد فى المائة .

نقوم بمساءلة ثلاث جهات إدارة المصنع ولجنة المصنع النقابية ولجنة الحزب بالمصنع ومن ثم فنحن قد نعتذر عن طلبكم مالم تضعوا قوانيننا فى الاعتبار.

أشرت إليه أننى لن أتأخر فى توصيل هذه الرسالة ولكننى أعتقد أنه أكثر اتصالا بالمسئولين فى مصر، فأجاب أنهم أحيانا لا يقبلون النقد.

المأساة
جرح فى آلام ١٩٦٧

يمر الفرد فى مسار حياته بكثير من الأحداث المفرحة والحزينة لكن هل هناك يوما أكثر حزنا فى ضمير الشعب المصرى من يوم ٥ يونية ١٩٦٧ وفى الوقت نفسه هل هناك يوما أكثر مجدا وحدثا نفتخر به أكثر من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

كان يوم ٥ يونية مأساة لنا بكل ما تحويه هذه الكلمة من معانى...

مأساة ملأتنا ندما ومعاناة وغيظا وستبقى صورته فى ذكرانا وذكرى الأجيال القادمة مهما تمر السنون ومهما تمر بحياتنا من أحداث. استلمت عملى بسفارة مصر فى موسكو كوزير مفوض فى منتصف شهر سبتمبر سنة ١٩٦٢. وخلال هذه الفترة هالنى شدة الهجوم الإعلامى على مصر وقادتها ووصفهم بالجبن والاحتماء بالقوات المتواجدة فى سيناء. وكانت إذاعتى عمان ودمشق تقودان هذه الحملة والتى زادت بعد هجوم القوات الإسرائيلية على قرية السموع الأردنية وبعدها المعركة الجوية فى سماء سوريا والتى فقدت فيها سبعة من طائرتها. وتسمع هذه الإذاعات وهى تردد بأن فى الوقت التى تتعرض فيه صدور أبنائها للشهادة، تحارب القيادة المصرية من خلف الميكروفونات ولاشك أن هذا الصراخ وهذا الهجوم القاسى على مصر ورئيسها كان له دور كبير فى تطور

الأحداث واتخاذ قرارات غير مدروسة واستغلت إسرائيل هذه الروح العدائية فأذكتها بخداع عسكرى إذ كانت تكثر حركة قواتها شمالا خلال النهار وتسحبها ليلا. مما أدى إلى تصور السوريين أن هناك تجمعات عسكرية بنية القيام بعمليات ضدها. ولذلك عند قيام الفريق محمد فوزى بزيارة للجبهة السورية بعد ١٥ مايو لم يجد الحشود التى كانت سوريا تندد بها.

وجاءت زيارة الوفد البرلمانى المصرى برئاسة الرئيس السادات فى العاشر من مايو سنة ١٩٦٧ وقام الرئيس السادات وبرفقته الدكتور مراد غالب سفير مصر فى موسكو بزيارة للمستر كوسيجن رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى حيث أفاده الأخير بأن هناك أنباء تردد عن وجود حشود إسرائيلية على الحدود السورية، وأنه ينصح بتوخى الحذر واللجوء إلى مجلس الأمن وعليه أبرق الرئيس السادات مصر بما أبلغ به. ومن ثم أخذت الأمور تطور بداية بطلب سحب القوات الدولية من سيناء إلى إعلان إغلاق خليج العقبة مما أعطى الانطباع الذى لاشك فيه وهو أن الحرب مع إسرائيل سوف تقع فى الأيام القليلة التالية.

وفى يوم السبت ٢٦ مايو حضر وزير الحربية شمس بدران فى زيارة عاجلة لمدة ثمانى وأربعين ساعة لمقابلة المسئولين السوفييت وفى يوم عودة الوفد توجهت لقصر الضيافة. وكنت فى استقبال المارشال جريشكو وزير الحربية السوفيتى والذى جاء بحلته العسكرية. لمقابلة الوزير شمس بدران والذى قابله بالقميص والبنطلون.. وشبشب فى قدميه. وانتهت الزيارة وتوجهنا للمطار لتوديع الوفد. وحضر جريشكو للمطار وشد على يد الوزير شمس وردد عبارات المجاملة والتأييد وأن الاتحاد السوفيتى سيقف دوما مع مصر. ولم يذكر إطلاقا كلمة سنحارب معكم أو شىء من هذا القبيل.

وبعد التوديع رافقت السيد السفير فى عودتنا للسفارة وسألته عن أحوال الزيارة. وكان السفير فى حالة ضيق شديد ورد على بأن شمس بدران كان يرد على تساؤلات القيادة السوفيتية السياسية والعسكرية عن سلامة الإجراءات التى اتخذتها مصر فى سيناء لأن الحرب ستقع لا محالة فى ذلك. وأن شمس بدران أجاب بأن مصر مستعدة تمام الاستعداد لمواجهة الموقف وأن خطوط الإمداد

قد انتظمت، وأنه تم زرع حقول الألغام، وأنه قد وضعت الخطط لضرب طرق اقتراب العدو.

وإزاء ما ردده الوزير شمس بدران سألته القيادة السوفيتية عن سبب زيارته، فكانت إجابته لطلب السلاح، ورد السوفييت أن فى مثل هذه الظروف الدقيقة الحاسمة كان الأولى به البقاء فى مصر وإرسال شخصية أخرى لهذا الطلب. علاوة على أن تنفيذ هذه الطلبات سوف تتطلب أسابيع إن لم تكن شهورا، وأن الأحداث والوقت أسرع من قدرتهم على تلبية طلباته فورا.

فى صباح يوم الأحد ٢٨ مايو يوم عودة شمس من موسكو وقبل وصوله للقاهرة، كان الرئيس عبد الناصر قد قابل وفد اتحاد الصحفيين العرب برئاسة المرحوم الكاتب أحمد بهاء الدين وصرح لهم أن مصر. ستعتمد على الله وعلى أبنائها لرد شرف العرب.

لكن فى اليوم التالى لوصول الوزير شمس أى يوم الإثنين ٢٩ قابل عبد الناصر الأعضاء البرلمانيين للاتحاد الاشتراكى وذكر خلال حديثه أن الاتحاد السوفيتى سوف يحارب معنا فكان هذا الخبر بمثابة قنبلة فى الأوساط العالمية وانزعجت الدول ومن ضمنها الاتحاد السوفيتى، إذ سوف تعاد الحسابات لمواجهة نتائج هذا التصريح. وتلقت السفارة فى مساء ذلك اليوم برقية بأن حامل حقيبة دبلوماسية سوف يصل فى اليوم التالى أى يوم الثلاثاء ٣٠ على الطائرة السوفيتية وعلى السفارة استقباله وتسليم الرسالة التى يحملها إلى السيد السفير فورا.

جاء حامل الحقيبة وسلم الرسالة للسفير وفى جلسة معه تكلم بكل فخر عن الروح المعنوية العالية للشعب المصرى، وأن الانتصار سيكون لنا خاصة عندما يحارب معنا الاتحاد السوفيتى، انزعجت لهذا الكلام وأخبرته بأن الاتحاد السوفيتى لن يحرك ساكنا بالإضافة إلى أن مثل هذه المشاركة ستؤدى إلى نشوب حربا عالمية، وهو ما يتطلب منه اتخاذه لأوضاع عسكرية وتحركات لقواته بأسلحتها المختلفة على مستوى العالم وأننا لم نلاحظ أو نسمع شيئا عن

مثل هذه الإجراءات بعدها بيومين عاد حامل الحقيبة إلى القاهرة حاملا رد السفير والذى أفادنى وهو ممتلئ غيظا من تصور شمس بدران بأن بكلمات المجاملة التى رددها جريشكو فى المطار تعنى مشاركة الاتحاد السوفيتى العسكرية فى النزاع مع إسرائيل. كانت السفارة وعلى رأسها السيد السفير تحت ضغط عصبى شديد، وأصبحت محط اهتمام أفراد السلك الدبلوماسى فى موسكو، والذى كان تركيزهم على ماذا سنفعل وماذا سيفعل الاتحاد السوفيتى.

وكنا تحت هذا الضغط نتلقى الأخبار من الإذاعات الأجنبية دون أية توجيهات من القاهرة. لقد عشنا أياما قلقة قبل ذلك اليوم، حماس مشوب بحذر، وأمل ممزوج بخوف، ورغبة تظللها رهبة وجاء اليوم المشئوم ٥ يونيه، إذ بينما كنت فى مكتبى اتصل بى المستشار السفارة العراقية حوالى الساعة التاسعة والنصف صباحا ويقول بأنه كان على موعد مع مسئول سوفيتى بقسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية السوفيتية إلا أن الأخير اعتذر عن المقابلة نظرا لأن الأحداث قد بدأت فى الشرق الأوسط.

أبلغت السيد السفير الدكتور مراد غالب بالخبر، وأسرعت السفارة بإرسال برقية عن طريق المحطة اللاسلكية الموجودة بها، ذكرنا فيها أنه قد بلغ السفارة أنباء عن بداية الأحداث فى الشرق الأوسط برجاء الإفادة.

وجاء الرد لكنه كان باعثا للسخرية، إذ ورد فيه ما يلى علمنا أن هناك غارات على بعض مطاراتنا.. وانتهى الرد.

أسرع أعضاء السفارة بإحضار أجهزة الراديو لسماع الأخبار وأصبحنا كلنا آذان، وقلوبنا ومشاعرنا ملهوفة على أرضنا الطاهرة. ونسمع البلاغات المتتالية أسقطت وسائل دفاعنا الجوى عشرين طائرة .. ثلاثين.. خمسًا وأربعين حتى سألت نفسى إذا كانت الخسائر بهذا الحجم فماذا يا ترى حجم القوة الجوية الإسرائيلية التى تهاجم مصر.. لابد وأن تكون بالمئات وبدأ سيل السفراء العرب يفد على السفارة وكذا أفواج من طلبة البعثات العسكرية والمدنية.. وعقب كل بلاغ نسمع صوت الطلبة قادما من الدور الأسفل للمكاتب (الله أكبر) واستمرت

الإذاعات من العاشرة حتى الواحدة والنصف ولا نسمع فيها سوى عبارة أسقطت وسائل دفاعنا الجوى كذا طائرة تليها أناشيد ومارشات عسكرية وأقول بكل أمانة إن مشاعرى بدأت فى التغير من الأمل إلى القلق ومن حماس إلى الحذر.

وبدأ الحاضرون فى الانصراف والكل يقبل الآخر ويتمنى ويدعو بالنصر حتى بقيت منفردا مع السفير، وإذا به يواجهنى بسؤال: مالى أراك متجهما ومتحفظا؟ فقلت يا سيادة السفير، بقدر مازلت أتذكر من معلوماتى العسكرية، فإننى غير مستريح لصيغة البلاغات العسكرية والتى تركز على عبارة أسقطت وسائل دفاعنا الجوى. ومعنى هذا أن طائرتنا ليست فى الجو، لأن الدفاع الجوى لا يستطيع العمل إذا كانت طائرتنا فى الجو مشتبكة مع العدو. وعليه فنحن أمام احتمالين إما أن تكون طائرتنا قد وزعت على المطارات السرية أو فى المخابئ مستفيدين الدرس الذى تلقيناه سنة ٥٦ وهذا ما أتمناه.. والاحتمال الآخر أن تكون المفاجئة الإسرائيلية شاملة خربت سلاحنا الجوى فى مطاراته وهذا مالا أتصوره ولا أتمناه لأن ذلك معناه حرمان قواتنا الأرضية فى سيناء من أية حماية جوية وهذه مصيبة أخرى.

استمع السيد السفير لهذا التحليل بوجوم مكررا قوله من قبل إن عبد الناصر على حد معرفته كان لا يرغب فى الحرب ومبديا استنكاره أو دهشته عن المسئول الذى استطاع أن يزيحه عن هذه العقيدة.

وبقيت فى السفارة وساعدنى على ذلك تواجد أسرتى فى القاهرة كنت فى حيرة شديدة أود معرفة الحقيقة أود الاطمئنان على بلدى وقواتنا المسلحة ولكن كان على أن أتجرع مأساة البلاغات العسكرية المصرية المملة المكررة وفى الساعة الرابعة بعد الظهر أخبرنى السفير أنه متوجه لمقابلة المستر كوسيجن رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى وبعد ساعة تقريبا عادالسفير وطلب منى إعادة التحليل الذى ذكرته عن معنى استخدام وسائل الدفاع الجوى وسألته إن كان قد علم شيئا من زيارته، ولكن اقتصرت إجابته على كلمتين (ربنا يستر) وبعد ساعة توجه السيد السفير ومعه السفير السورى لمقابلة كوسيجين لكن بعد عودته التزم حجرته ولم يخبرنى بأية معلومات ولم أشأ مطالبته بإفادتى عما دار فى

المقابلة. لأنني شعرت أنه يحمل على صدره هما كبيرا. وجلست فى السفارة أتابع الأخبار من كافة المحطات المحلية والعالمية. وفى أخبار الساعة الواحدة صباحا أذاع راديو لندن أن الطيران المصرى قد أصيب بضربة قاضية وهو قابع فى مطاراته، وأن إسرائيل تعتبر أن هذا معناه حيازتها للنصر.

وقع على هذا الخبر وقع الصاعقة لقد استمرت الحرب زمنيا أربعة أيام ولكنها انتهت واقعيا قبل نهايتها بأربعة أيام.

وفى الساعة الثالثة صباحا، اتصل بالسفارة شخصا من القاهرة قائلا إن السيد المشير يريد الاتصال بالسيد السفير وأخذت انتظر تكملة حديثة لكن الطرف الآخر أخبرنى أن المكالمة قد ألغيت. فاتصلت بالسفير ذاكرا له ما حدث، فأخذ يفكر وأخيرا ردد بألم وهدوء، وأين أستطيع الاتصال به الآن. لم أستطع تلك الليلة حتى الإغفاء بل كنت فى سباق مع محطات الإذاعة والتى لم أسمع منها سوى الأغانى والموسيقى ولعنت العالم الذى يتمتع بالموسيقى، بينما أبناء بلدى فى خضم معارك لا رحمة لها يقاسون فيها من قيظ حار وصحراء قاحلة لا ظل فيها، ولا مطر ولا ماء ولا شجر.

وأخذت أستعجل الزمن والوقت. وأنظر فى الساعة متوسلا منها أن تسرع بعقاربها إلى الساعة الخامسة والسادسة حتى أستمع لإذاعتنا لعلى أسمع خبرا يخرجنى من حالة التشاؤم والألم والقهر.

وجاء السفير للمكتب فى حوالى الساعة السادسة صباحا، وأخبرته بما سمعته من إذاعتنا من أن بعضاً من قواتنا قد انسحبت من مواقعها الأمامية..

ولكن البعض الآخر عبر الحدود الإسرائيلية ولم يعلق على هذه الأخبار بل أمسك بسماعة التليفون وطلب محادثة السيد/ سامى شرف سكرتير الرئيس جمال عبد الناصر لشئون المعلومات وبعد ساعة كان الأخير على الخط. وأنا هنا أنقل للقارئ ما سمعته..

يا سامى إيه حكاية الأخبار إللى سمعناها إمبارح.

- .....

بتقول منصدقهاش كلها إزاى الكلام ده الكل كلمنى عنها.

- ......

- غريبة يعنى لسه واقفين.

-......

- طيب المشير طلبنى إمبارح، لكن الاتصال انقطع ولم أستطيع الاتصال بيه، فيه حاجه.

-......

- شدوا حيلكم وأى خدمه.

وانتهت المكالمة وبادرت بسؤال السفير عما ذكره سامى شرف فقال بيقول الحالة مش وحشة بالشكل الذى أذاعته محطات الإذاعة الأجنبية وبأننا سنسمع أخبار طيبة اليوم أو باكر اصل يا صلاح أنا إمبارح لما رحت لمقابلة كوسيجن بعد الظهر ذكر لى أن الطيران بتاعنا دمر أغلبه على الأرض وأن القوات المصرية فى سيناء فى موقف تحسد عليه لكن غريبة أن سامى شرف ينكر سوء الحالة بهذا الشكل، هل ياترى بيطمنى أم أنه ليس فى كامل الصورة يا صلاح بكرة هتعرف حاجات غريبة عن بلدنا.... واللى نجح فى إقناع عبد الناصر بالحرب يقدر يخبى عليه أى حاجه.

أذكر هذا الحديث ولا أقصد إطلاقًا دفاعًا ولا هجومًا على أى شخص ولكن أذكر الحقيقة.

استمرت الأحداث المؤسفة ويأتى لى زميل متفائل يقول صبرك بس يجى يوم الجمعة وخطبة من عبد الناصر فى الأزهر وستكون هى القاضية وفيها البركة زى ما حصل فى سنة ١٩٥٦ لكن لم يقبل عقلى ووجدانى هذا التصور فالأحداث أكبر من خطبة والوقت أسرع من الانتظار يومًا أو ثلاثة.

إنتهى هذا اليوم المشئوم واختصر التاريخ أربعة أيام وهى زمن الحرب فى يوم واحد. أربعة أيام دمغت بلادنا بالهزيمة....... لقد حاربت بلاد أخرى وهزمت

ولكن ليست بهذه الصورة. إن النصر والهزيمة فى الحروب تنقش فى صفحات التاريخ أكثر من أى حدث آخر مهما تعاقبت عليها السنون. إننا نعرف انتصارات الإسكندر الأكبر على الفرس ويوليوس قيصر على أعداء روما وانتصارات محمد على فى أرض الحجاز وسوريا والأناضول ولكننا لم نسمع عن ضحايا مجاعة الصين فى الثلاثينيات أو ضحايا حركات تطهير ستالين والتى راح فى كل منها الملايين من الأرواح.

ويأتى يوم ٨ يونيه وافتح إذاعة صوت أمريكا واستمع لصوت يوثانت يقول (إنه بسماع تلك الأنباء المشجعة بقبول مصر لإيقاف النار مع إسرائيل أمامى أمل أن يقوم باقى الأطراف على اتخاذ تلك الخطوة) وبصراحة لم أتحمل هذا التصريح فانفجرت مشاعرى ولزمت حجرتى حتى الصباح أفكر فى مستقبل بلدى وأشير هنا أنه بعد السنين عدد من السنين عندما كنت سفيرًا فى قبرص إن كان السفير/ محمود القونى يقوم بزيارة لها كوزير للسياحة إن ذكر لى أن أعصابه لم تتحمل إذاعة بيان مصر وطلب من يوثانت أن يلقيه بدلاً عنه.

لكن فى زخم هذه الآلام كانت هناك نبتة صغيرة من الأمل تنمو، كانت بشرى بأنها ستعبر بنا مرارة الهزيمة.

وترد شرقنا إن مصر لم تمت عبر آلاف السنين رغم ما تعرضت له من غزوات وأزمات.

إن نبتة الأمل ستسير فى دمائنا مرددة فقرة من نشيد وطنى.

باسمك يا بلدى............. جيشك وشعبك.............. يرد التحدى.

وقد كان يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣.

نحن فى شموخ ١٩٧٣

كنت أود أن أضع هذه الأوراق فى مسارها الزمنى عندما أكتب عن حقبة أخرى فى حياتى وهى فترة العمل فى مكتب السيد مستشار الأمن القومى سنة ١٩٧٣ لكن وجدت أن أضعها هنا حتى أمحو ما علق بذهنى بما حدث سنة ١٩٦٧ لقد كتبت بأن هناك نبتة صغيرة ظهرت على المسرح السياسى والعسكرى إذ سرعان ما نمت هذه النبتة من رحم الهزيمة فتحرك الشعب وبقوة يومى ٨، ٩ يونيه رافضًا الهزيمة ورافضًا قبول تنحية الرئيس عبد الناصر مطالبًا إياه بالبقاء ومواصلة الكفاح وأن الشعب يقبل التضحية وليس الاستسلام ورب قائل إن عملية التنازل والتحرك الشعبى ما هى إلا تمثيلية قام بها الاتحاد الاشتراكى. ولكن أقول إنه كان من السهل أن يقول الشعب لعبد الناصر وهو يعانى مرارة الهزيمة، كفا ما حدث نتيجة سياسات فاشلة ودعنا نختار شخصًا آخر لحكم البلاد، ولن يكون هذا التصرف محل انتقاد التاريخ بعد هذه الهزيمة النكراء.

ولكنى أقول إن الاتحاد الاشتراكى كان أضعف من أن يحرك هذه الجموع ويكفى أنه عجز فى الدفاع عن رؤسائه من الاعتقال والمحاكمة.

ونقطة أخرى لماذا نقلل من مشاعر الشعب المصرى، حقيقة أنه شعب مسالم، لكنه يتحرك بقوة هادرة عند اللزوم. لقد ثار فى وجه الحملة الفرنسية

فى عصر كانت البلاد غارقة فى بحر من الجهل وتخلف، وهو الذى أجبر الخليفة العثمانى على قبول محمد على وليًا عليه، وهو الذى وقف أمام الخديو توفيق والذى كان يعتبر الشعب المصرى (عبيد إحساناتنا) مطالبًا بحقوقه السياسية. ويتحرك الشعب بريادة طلبة المدارس ومدرسة الحقوق مطالبًا زعمائه المطالبة بالاستقلال سنة ١٩١٩، بل هو الذى ضغط على الزعماء للاتحاد لمواجهة بريطانيا عام ١٩٣٥ وهو الأمر الذى أدى إلى معاهدة ١٩٣٦. ولذلك لا أكون مغاليًا إذا تملكتنى القناعة بأن الذى أعلن قرار الحرب ليس الرئيس عبد الناصر وليس الرئيس السادات بل الشعب المصرى. ولم يقتصر دور الشعب على التصميم والإرادة بل عانى خلال هذه الحقبة من الزمان من تردى البنية الأساسية والخدمات. وتحمل شعب مدينة السويس تدمير بلدتهم بالكامل وبالرغم من ذلك احتفظ بروحه وعزيمته التى ظهرت خلال فترة الثغرة فى حرب ١٩٧٣. وهاجر أكثر من مليون ونصف مواطن من مدن القناة وتحملت محافظات الدلتا العبء الأكبر فى إيوائهم وأرزاقهم، كان لا يسمح للمسافر للخارج بأكثر من خمسة جنيهات إسترلينية فقط لقد كنا ننظر بعين الغيظ والحسرة للقادمين من الخارج وخاصة من الدول العربية وهم يحملون معهم آخر ما توصلت إليه الشركات وعاش الآلاف من شبابنا على خط القناة ما يقرب من سبع سنوات وهو مالم يحدث من قبل وخفضت ميزانيات الوزارات إلى الحد الأدنى وكانت وزارة الخارجية. على رأسهم رغم ما كان مطلوب منها ومن أعضائها التحرك فى مختلف دوائر العمل السياسى الخارجى. وأعطى مثلاً على ذلك، إذ حدد فى ميزانية سفارة مصر فى قبرص مصاريف الأدوات الكتابية والدعاية بثلاثة جنيهات شهريًا!!!

وتحالف الشعب مع القوات المسلحة فى بناء شبكة الصواريخ فى منطقة القنال رغم الغارات الجوية الإسرائيلية الشرسة والتى راح ضحيتها الآلاف من العمال المصريين ومع ذلك استطاع بناء حائط الصواريخ المضادة للطائرات والذى ساهم إلى حد كبير فى تحجيم القوة الإسرائيلية فوق منطقة القنال خلال حرب ٧٣.

أما عمليات القوات المسلحة فكانت متوازنة مع تحديات الشعب، إذ استطاعت قوة صغيرة من القوات المسلحة عقب إنتهاء الحرب مباشرة من إيقاف قول مدرع إسرائيلى كان متجهًا لاحتلال بور فؤاد فى معركة رأس المش وقامت مجموعة من الطائرات رغم ما ألحق بسلاحنا الجوى من خسائر مادية ومعنوية بالإغارة على قوات العدو شرق القناة.

وأخذت القوات البحرية حقها فى التحدى فى نجاحها بإغراق أكبر قطعة فى الأسطول الإسرائيلى. واستمرت القوات المسلحة فى عملية التطوير والتى شملت قيادتها وجنودها وتسليحها. واكتسبت خبرة الحرب الحقيقة من حرب الاستنزاف والتى ساهمت فى وضع الجندى الإسرائيلى فى حجمه الطبيعى وكان المطلوب من أفراد السلك الدبلوماسى المصرى التحرك فى هذا الجو الشائك وكانت جهودنا تقابل بنظرات مختلفة، البعض منها كان يشفق علينا وعلى مصر لحبه لها ولتاريخها والبعض الآخر اعتبر هزيمة ٦٧ ضربة لنضاله كالصومال وقبرص. وقطاع آخر تحس منه روح الشماتة وفى هذه الظروف كنت سفيرًا لمصر فى قبرص من ديسمبر ٦٩ إلى إبريل ٧٣ والتى تعتبر نقطة أمن قومى متقدمة وعانيت مثل زملائى من كل هذه الإيحاءات وخلال هذه الفترة كانت مصر تعانى من الغطرسة الإسرائيلية ويتملكنى شعور من الغيظ والألم عندما يدمر الطيران الإسرائيلى مصنع أبو زعبل، ثم يثنى هذا العمل بتدمير مدرسة بحر البقر مما أسفر عن عشرات من الضحايا الأطفال. وأتذكر أنه فى أعقاب هذا الحادث ومظاهر الألم مرتسمة على وجهى، أن قابلنى السفير الفرنسى فى قبرص والذى كان مولعًا بمصر وتاريخها، فشد من أزرى. بكلمات لا أنساها (لا تيأس فمصر سوف تعيش. إنها أكثر بلد فى التاريخ تعرضت لغزوات ومع ذلك بقيت وبقى اسمها، إننا فى أى تجمع دولى عندما يطلب من مندوبكم إلقاء كلمته ننظر إليه لنسمع ما ستقوله حضارتكم وتاريخكم.

وجاء يوم ٧ إبريل سنة ١٩٧٣ والذى كان يومًا عجيبًا وعصيبًا إذ قامت فى ذلك اليوم مجموعتان من الفلسطينيين هاجمت إحداها منزل السفير الإسرائيلى، وقامت الأخرى بالهجوم على طائرة العال فى مطار نيقوسيا إذ فى

ذلك اليوم وصلتنى برقية من القاهرة تطلب منى التواجد فى القاهرة قبل يوم ١٥ من ذات الشهر. وتعجبت من صيغة البرقية إذ لم يذكر فيها سبب هذا النزول.

عدت إلى القاهرة وإذا بى أجد نفسى قد عينت فى مكتب السيد السفير حافظ إسماعيل مستشار الرئيس لشئون الأمن القومى.

وكانت تنظيم المكتب قائم على أربعة أقسام رئيسية القسم الخاص بالسيد المستشار وفى الوقت نفسه كان مسئولاً عن الشئون الإدارية وقسم لشئون العلاقات الخارجية والذى توليت الإشراف عليه، والقسم الثانى لشئون فلسطين وقد ترأسه المرحوم السفير جمال بركات أما القسم الثالث فكان خاص بالشئون الداخلية. وكانت مجموعة أعضاء المكتب كبيرهم وصغيرهم نخبة ممتازة من جميع الوجوه، جلدًا فى العمل وخبرة بالمواضيع والمشاكل، وأخوة فى التعامل. وكانت بحق فترة رائعة فى حياتى الدبلوماسية. وخلال شهورى الأولى فى العمل فى هذا المكتب، كان هناك تركيز فى بعض التحركات الدبلوماسية. فبالإضافة إلى تعزيز العلاقات مع الدول العربية كانت مصر تسعى لتحسين العلاقات مع أثيوبيا على أساس تواجدها القوى فى جنوب البحر الأحمر، وأيضًا بنفس الروح مع إيران بوصفها المورد الأساسى للبترول فى إسرائيل وانتابنا شعور بأن من المتوقع قيام مصر بعمليات تعرضية عسكرية كبيرة ولكن لم يصل إلى علمنا أنه سوف تحدث حرب مع إسرائيل.

بل بالعكس كنا نتساءل عن جدوى هذه العمليات دون حرب.

واستمرت مكاتبنا فى العمل فى قصر عابدين، إلى أن جاءتنا فى منازلنا يوم الجمعة ٥ أكتوبر تعليمات بالتواجد فى قصر الحرية بجهة روكسى فى تمام الساعة الثامنة صباحًا يوم السبت وأن هناك لقاء مع السيد حافظ إسماعيل فى تمام الساعة التاسعة صباحًا. وفى تلك الساعة حضر سيادته وعلى وجهه مظاهر الجدية والحزم وبدأ حديثه بقوله إنه منذ هذه الساعة قد تم عزل مكاتبنا عن الخارج وأن تليفون مكتبه هو وسيلة الاتصال الوحيد للخارج وأن هذا الإجراء قد اتخذ لأن الحرب مع إسرائيل سوف تنشب فى ذلك اليوم وسيكون

السيناريو كالآتي في تمام الساعة ١٣,٥٥ سيصدر بيان من الإذاعة أن قوات من العدو قامت بغارات على بعض مواقع قواتنا في البحر الأحمر. وبعدها بدقيقتين سيذاع بيان آخر بأن السيد الرئيس باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة قد أمر القوات بالتعامل معها. وفي تمام الساعة الثانية بعد الظهر ستعبر مائتا طائرة مصرية خط القناة لضرب الأهداف العسكرية الإسرائيلية في سيناء وتبدأ الحرب. كما أضاف أن السيد الرئيس السادات سينقل مركز قيادته إلى قصر الطاهرة. وختم كلامه بأنه يتوقع تحملنا لمسئولية المحافظة على سرية هذه المعلومات وألا تخرج أية إشارة لما سمعناه من المكتب، ثم تركنا سيادته وتوجه إلى مكتبه.

بعد سماعنا لما قاله السيد حافظ إسماعيل دخلنا في حالة سكون وتفكير وامتزجت مشاعرنا بين الأمل في ضرب إسرائيل ورد شرف مصر ومشاعر الخوف من الأداء العسكري، وأيضًا القلق على قواتنا وما سوف تلاقيه من خسائر بشرية في عملية العبور والتي تعتبر في حكم العلم العسكري من أصعب وأعقد العمليات. واستمر الحال على هذا المنوال، واختصرت الأحاديث حيث كان الكل يفكر ويأمل ويخشى، وزاد من قلقنا أننا لم نسمع أي خبر من الإذاعة عن القتال أو تطوره. إلى أن ظهر زميلنا المكلف بالاتصال بمركز (١٠). (مركز قيادة المشير أحمد إسماعيل) في حوالي الساعة السادسة والنصف مساء فالتفتت الأعناق تجاهه تترقب بلهفة ماذا لديه من أخبار وقف الزميل على مدخل القاعة، لكنه بدأ كلامه برجاء غريب، وهو ألا يشتمه أحد لما سيقوله من أنباء. وسألنا. ما الداعي لهذا الطلب فكانت إجابته أن ما سنسمعه لن يصدقه أحد لأن قواتنا عبرت القناة واستولت على إحدى عشرة نقطة حصينة لزمنا السكون ولكن فوجئنا بصوت أحد الزملاء يسبه ويصيح قائلاً هنرجع تاني لسنة ٦٧. فرد عليه الزميل لماذا لا نتأكد من كلامه بأن نسأل السيد المستشار حافظ إسماعيل. وبالفعل توجهت إلى مكتب سيادته، فوجدت على وجهه الصارم معالم السرور والانشراح قائلاً لقد سقط في الساعة الأخيرة موقعان آخران أي أننا استولينا على ١٣ نقطة حصينة.

عدت بهذه الأخبار العظيمة، واستطعنا التقاط أنفاسنا والتى بقيت محبوسة طوال السبع سنوات العجاف، ورغم ذلك لم ترد إلينا تفصيلات أخرى إلا أن النشوة التى امتلكتنا جعلتنا نتصور كيف كان العبور واقتحام النقط الحصينة واسترجع الزملاء العسكريون الجهود التى بذلت لتكوين جيش حديث مقاتل بعد ٦٧ وكان القول السائد أن الفضل يعود أساسًا إلى الفريق محمد فوزى وكانت الإذاعة المصرية متحفظة فى بياناتها، خشية أن يتصور الشعب أنها ستعيد بذاكرته إلى البيانات المضللة فى حرب ٦٧. ولذلك اعتمدنا بصفة أكبر على الإذاعات الأجنبية والتى وصفت حالة الهلع فى إسرائيل ولن أستمر فى هذه الصفحات الحديث عن باقى أيام حرب ٧٣ حيث إن اهتمامى كان مركزًا على ذلك اليوم العظيم والذى وصفه توفيق الحكيم بأنه (عبور للهزيمة أما نحن فكنا نتذكر كلمات ذلك النشيد باسمك يا بلدى.... جيشك وشعبك.... يرد التحدى.

ختام لهذه المرحلة

بعد العرض الذى قدمته وبه بعض صور التعامل مع الاتحاد السوفيتى والتى حفلت بأحداث جسام.

أرجو أن يسمح لى التاريخ بفرض ثلاث نقاط مهمة. وأنا هنا فى هذا المجال أعرض فقط وجهة نظرى قد تكون صوابًا أو خطأ ولكن قناعتى بها بنيت على أساس الممارسة والمشاهدة. النقطة الأولى وهى الثقة فى التعامل العسكرى مع الاتحاد السوفيتى. لا يمكن أن ينكر أحد قيام الاتحاد السوفيتى بتسليح الجيش المصرى وتدريب عدد كبير من ضباطه من مختلف الرتب منذ عام ١٩٥٥ ولم يكن هذا التسليح عبئًا على الاقتصاد المصرى بل كان قسط التسليح يسدد من فائض الميزان التجارى الذى كان فى ذلك الوقت يحقق فائضًا سنويًا يعادل هذا القسط. ولم تكن المساعدات الكبيرة التالية بعد حرب ٥٦ وحرب ٦٧ هى الصفة المميزة لهذا التعامل بل إن أسعار الأسلحة كانت فى أقصى حالات التدنى ويكفى القول إن الطائرة ميج ٢١ كان يبيعها لنا ٢٥٠ ألف جنيه حسابى. لكن رغم هذا فلم تكن هناك ثقة من الجانبين فى عملية الإمداد وسرعة الاستجابة للطلبات وأطلت هذه المشاعر بظلالها على العلاقات بين البلدين ولكننى أعتقد أن كلاهما يتحمل جانبا من هذه المشكلة فالجانب المصرى كان دائم الشكوى من تأخير الاتحاد السوفيتى لشحنات الأسلحة، أو أن ما يعرضه على الجانب

المصرى أقل مما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية وقارن الجانب المصرى هذا الأسلوب بالأسلوب الذى تقدمه الولايات المتحدة الترسانة العسكرية الإسرائيلية من حيث الكم والكيف. أما الجانب السوفيتى فقد كانت محور تفكيره فى هذه المشكلة هو تخلف الجيش المصرى عن استيعاب الأسلحة المقدمة له وهو ما أدى إلى انكساره فى ميدان العمليات العسكرية، الأمر الذى أدى إلى أن القوات المسلحة الروسية بدأت تفقد الثقة فى كفاءة سلاحها. وقد أقر بذلك المستر بريجنيف للسيد على صبرى عندما قام الأخير بزيارة الاتحاد السوفيتى فى أعياد أكتوبر ٦٧، بل بلغ التأثر على بريجنيف خلال هذه المقابلة بأن اغرورقت عيناه بالدموع.

كما تولد إحساس لدى السوفيت الخوف من اندفاع المصريين لرد شرفهم من هزيمة ٦٧، دون استيعابهم الكامل لما يتطلبه التدريب فى كل مرحلة من مراحله. ولذلك كانوا يطلبون من فترة التدريب كل مرحلة أكثر من المعدل المتوسط وعندما تتولد لديهم القناعة بحسن أداء القوات المسلحة ينتقلون بمستوى التدريب والتسليح إلى مستوى أعلى. ولذلك وجه لهم الاتهام بل كانوا يتعمدون العرقلة فى تلبية الاحتياجات.

فى الوقت نفسه لم تدرك القيادة السوفيتية بما طرأ على القوات المسلحة المصرية من تغيير سواء فى قيادتها أو فى نوعية أفرادها والتى تغلفها روح الانتقام والرغبة فى رد شرف القوات المسلحة، والتى انعكست على الإقبال على التدريب الشاق والانضباط العسكرى بروح معنوية عالية. ومن هنا نشأت الفجوة بين العقليتين. ورغم هذا فقد استمر التعاون العسكرى حتى أواخر السبعينيات وإن كان له مظاهر أخرى.

أما النقطة الثانية والتى دار ولا يزال يدور فيها نقاش وهو من إصدار قرار حرب ١٩٧٣ الرئيس عبد الناصر أو الرئيس السادات.

فى رأيى أن الذى أصدر القرار هو الشعب نفسه يوم ٩، ١٠ يونيه، عندما طالب بها الرئيس عبد الناصر بالبقاء وبأن يعيد تجهيز الشعب والقوات

المسلحة لاستمرار الكفاح. كان للشعب المصرى كل الحق بعد هزيمة ٦٧ أن يقول لعبد الناصر (كفى) إنك لم تفلح فى حربك مع إسرائيل فدع غيرك إما أن يحقق مالم تحققه لمصر أو يوقع السلام مع إسرائيل، لكنه قال بلغته البسيطة والتلقائية اقعد. وحارب وسنحارب معا وسنربط الحزام وسنضحى بكل شىء إلا الاستسلام لقد قال البعض إن مظاهرات ٩ , ١٠ يونيه والتى طالبت عبد الناصر بالبقاء ما هى إلا من تدبير الاتحاد الاشتراكى وإنها كانت جزء من التمثيلية السياسية ولكن أقول إن الاتحاد الاشتراكى كان أضعف من هذا التحرك الشعبى الجارف، بل أظهر عجزه فى حماية رؤسائه عندما تم القبض عليهم. والخلاصة فى تصورى هو أن الشعب هو الذى أصدر قرار الحرب، وأن عبد الناصر وافق على قرار الشعب، وأن السادات هو الذى حدد موعده وقام بتنفيذه. أما النقطة الثالثة فهى تتعلق (بمن كان يحكم مصر سنة ١٩٦٧) عبارة أجبرتنى الظروف والشواهد على التفكير فيها. إذ أنه فى عام ١٩٦٥ قام عبد الناصر بزيارة رسمية للاتحاد السوفيتى ولكن حضر فجأة وفد عسكرى قبل الزيارة بأسبوع للتباحث مع الطرف السوفيتى فى المشاكل العسكرية المعلقة لتوقيع اتفاقيات جديدة ولم يستطع السيد مراد غالب استقبال الوفد فى المطار نظرا لكونه عميدا للسلك السياسى إذ كان يقيم حفل توديع لسفير اليابان. فأوفدنى بالنيابة عنه وتقديم الاعتذار للوفد لهذا السبب القهرى. لم يقبل الوفد هذا الاعتذار بل تمادى أحدهم وأصر على أنه كان يجب إلغاء حفل الوداع وتطورت المناقشة وتطاول على مكانة السفير فذكرته بأن لا ينس أن السفير فى البلد المعتمد فيه ليس شخصا عاديا بل هو يمثل رئيس الدولة شخصيا ففوجئت برد لم أكن أتوقعه إطلاقا إذ قال مين رئيس الدولة اللى بتتكلم عليه ده إحنا نشيله فى يومين ثم أعقب ذلك بقوله (يومين إيه قول ساعتين). وحقا لقد أسكتنى هذا الكلام إذ لم يعد مجال لأى تفاهم. بعدئذ فكرت مليا فيما سمعت من هذا الضابط، هل حقا المشير بهذه القوة التى تتيح له فرصة خلع الرئيس عبد الناصر قادنى التفكير إلى:

● أن السيد المشير منذ ١٩٦١ بعد الانفصال عن سوريا استطاع أن يستقل بقيادة الجيش وبترقيات ضباطه وتعييناتهم.الأمر الذى تخوف منه عبد الناصر

فكلف شمس بدران بمراقبة ممارسة المشير لهذه الاختصاصات والغريب أن السيد المشير استطاع بروحه السمحة أن يضم شمس بدران لصفه وفوق ذلك فإنه يكفى أن تسيطر على القوة العسكرية لتفعل ما تشاء.

● أن السيد المشير ترأس اتحاد كرة القدم والذى كان بسيطرته على الأندية الكروية تعنى سيطرته على جانب كبير من تفكير ومشاغل الشعب إذ أن الأندية كانت بمثابة الأحزاب السياسية فى ذلك الوقت.

● سيطر السيد المشير على القطاع العام فلم يكن يعين أحدا فى قيادته دون موافقته.

● رأس السيد المشير لجنة الإقطاع بما لها من سلطات خارقة على المجتمع المصرى.

● تولى السيد المشير مسئولية تحسين خدمة مواصلات القاهرة سواء فى مجال التدريب أو الصيانة.

● تولى مكتب المشير تحديد الأقدميات فى الدولة وكان هذا من اختصاص رئاسة الجمهورية.

● فى سنة ١٩٦٦ قام السيد المشير بزيارة الاتحاد السوفيتى. وفى جلسة بدار السفارة صرح بأنه لم يأت لطلب سلاح بل باعتباره مسئولا عن التموين وعليه فإنه جاء لعقد صفقة كبيرة من احتياجات البلاد التموينية طلب فيها ٢٥ ألف جنيه زيوت نباتية، ٢٠ ألف طن زيوت حيوانية و ٦ آلاف طن سمك مجمد.

لاشك أن كل هذه المسئوليات شغلت المشير عن واجبه الأساسى وهو قيادة الجيش والإشراف على تدريبه وتسليحه وفى الوقت نفسه سلبت من عبد الناصر قيادته لدوائر حيوية فى حكم مصر.

ولذلك يلعب هذا التساؤل فى تفكيرى من كان يحكم مصر سنة ١٩٦٦.

ولخصت تفكيرى فى أن عبد الناصر كان زعيم أمة والمشير كان رئيس دولة. وقد أكون على خطأ أو على صواب فى هذا التصور.

وإن كان الرئيس عبد الناصر قد أعلن فى خطاب تنحيه أنه المسئول فإنى أعتقد أن مسئوليته فى أنه اعتمد على شخص مع احترامى له غير قادر على تناول هذه الأمور على الوجه الصحيح والسليم مما أوقع البلاد فى كبوة لا نزال نعانى منها حتى اليوم بعد أربع سنوات من الجهد والعمل الشاق والمثمر، وصعب على فراق السفارة برئيسها العظيم الدكتور/ مراد غالب وأعضائها الممتازين. وضمت أيامها روعات الشموخ ونزعات الألم والحسرة لكن بقيت العزيمة والتحدى وبقيت مصر أمامنا لخدمتها ورفعتها ورقيها.



المكسيك
يناير ١٩٧٥ - أكتوبر ١٩٧٩

بعد تصفية مكتب مستشار الأمن القومى فى مارس ١٩٧٤، عدت إلى الوزارة دون إسناد أى منصب لى. وبقيت على هذا الوضع حوالى ثمانية أشهر، إلى أن عينت سفيرا لمصر فى المكسيك فى نوفمبر سنة ١٩٧٤ وعندما توجهت إلى الوزارة فى اليوم التالى بعلمى بهذا التعيين زارنى فى المكتب السفير حمدى أبو زيد والذى أمضى أربع سنوات كسفير لمصر فى هذا البلد مهنئًا بتعيينى فى هذا البلد الجميل والذى وصفه بأنه الجنة التى لا يعرفها أعضاء وزارة الخارجية.

وبالطبع كان لزامًا على الاطلاع على ملفات الوزارة المتعلقة بهذا البلد ولاحظت أن العلاقات تتميز بالهدوء والاحترام المتبادل، وأن العلاقات السياسية كانت أغلبها تدور فى إطار الأمم المتحدة ومنظماتها.

وقارنت بين ما سألاقيه من راحة البال بالأحوال الصعبة التى مررت بها فى قبرص.

ومن جهة أخرى لم أتوقع أن أجد مشاكل مع الجالية المصرية إذ لم يزد عدد أفرادها عن عشرة أفراد. ورغم أن وجود مصريين فى القرية يعيشون بالقرب منك له مذاق خاص، إلا أن حرمانى من وجودهم عوضته العلاقات التى توثقت بينى وبين الجالية السورية والتى كان أغلبها من الروم الأرثوذكس. إذ تميزت هذه

الجالية بارتباطها الروحى بالعالم العربى وبإجادة معظمهم اللغة العربية، بل إن البعض سمى أولاده بأسماء عربية بحتة كعمر ومجدى وفضيلة ونجاح ووداد وكانت هذه الجالية تعتبر السفير المصرى هو خير عوض لعدم وجود تمثيل دبلوماسى سورى مقيم فى المكسيك. وشعرت تجاههم بأننا أسرة واحدة، وبكل أمانة جعلونى لا أشعر بالغربة عن بلدى مصر.

نظرة عامة عن المكسيك وتاريخها وشعبها
«المكسيك ليس هناك بلد مثلها»

عندما وصلت إلى المكسيك سنة ١٩٧٥ استرعى نظرى وجود هذه العبارة على كثير من المريات، ولم أفهم معنى لوجودها سوى أنها تعبير عن حب زائد من الفرد المكسيكى لبلاده، مع لمسة من الغرور الوطنى. ثم عرفت فيما بعد من سفير الأرجنتين أن سبب تمسك شعب المكسيك هذه العبارة، هو اعتزازه بتاريخه حتى لا تذوب شخصيته فى الحضارة الأمريكية وطوفانها، إذ يجب ألا ننسى أن هناك حدودا مشتركة بين البلدين يصل طولها لحوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر.

ولهذا فإن شعب المكسيك شكل حياته وسياسته على هذه الحقيقة وهذا ما شرحته العبارة التى أطلقها خواريز أول رئيس للجمهورية بعد استقلالها سنة ١٨٢٢، «لقد خلق الله المكسيك بعيدة عنه وقريبة من أمريكا» وخلال الأربع سنوات التى قضيتها هناك. لم تختلف نتائج مشاهداتى وتحليلاتى لواقع هذا البلد ومجتمعه عما عبر عنه السفير الأرجنتينى.

بلغ تعداد شعب المكسيك فى تلك السنة حوالى ٨٨ مليون نسمة. مكونا من الهنود الذين لم تختلط دماؤهم - بعد - بالأجانب وخاصة بالإسبان. ولا يتجاوز عددهم ١٣٪ من مجموع السكان. ثم طبقة الكريول أى الإسبان المولودين فى المكسيك ولم يختلطوا بأفراد الشعب الأصلى ولا يتجاوز عددهم ١٪ أما باقى الشعب فهو ما يطلق عليه المتسيتو وهم الخليط من العنصرين الهندى والإسبانى. والشعب المكسيكى متدين جدا وخاصة فى القطاعات الفقيرة والزراعية. ولكنه يمارس الديانة المسيحية مع بعض الطقوس الهندية. وتاريخيا. اضطرت الكنيسة إلى الخروج عن بعض ممارستها المتزمتة خلال جهودها فى التغيير ديانة السكان. فسمحت لهم بممارسة بعض العادات والتقاليد الهندية كما أنها لأول مرة فى تاريخها مارست الصلاة فى الخلاء وإذا ما زار السائح الكنائس

المكسيكية سوف يندهش لغناها الفاحش من التحف والذهب والمجوهرات التى تزين جدرانها وسقوفها وتماثيلها. وشعب المكسيك يتبارك بـ «عذراء جواد اليوب» ويحفظ فى وجدانه أسطورة التى تشير إلى أن هنديا مسيحيا اسمه خوان دييجو كان فى طريقه إلى منطقة «تلاتللكو» عندما ظهرت له سيدة مجهولة على قمة تل طلبت منه أن يطلب من الأسقف «زوماراجا» أن يبنى لها كنيسة فى هذا المكان فأجابها «وكيف يتسنى لى أن أقابل الأسقف الكبير ويستمع لى وأنا الهندى البسيط فطلبت منه أن يجمع باقة من الأزهار ويقدمها إلى الأسقف كهدية منه.. ثم اختفت.. وبالفعل امتثل دييجو لهذا الطلب وجمع زهور من الحقل المجاور وتوجه إلى الأسقف الذى قابله بعد مدة من الزمن وعند المقابلة فرش الهندى عباءته وألقى بالأزهار عليها وإذا بصورة العذراء تتشكل عليها. ولا تزال العباءة موجودة بالكنيسة المقامة فى ذات المكان وفوق مذبحها. وأصبحت «عذراء جواد اليوب» قديسة للمكسيكيين ينذرون لها ويقسمون بها. بل ويقال إن المكسيكى هو من آمن بالكاثوليكية وبعذراء جواد أيوب وإذا توجهت لزيارة هذه الكنيسة سترى الكثيرين يزحفون على ركابهم، عبر الميدان الكبير أمامها وهم متجهون إليها كنوع من التقرب والخضوع، ورغم هذا التدين، إلا أن جمهورية المكسيك تعتبر جمهورية علمانية بنص دستورها الصادر عام ١٩١٧، وذلك كرد فعل لتحالف الكنيسة مع الإقطاع والأجانب. وتعاملها مع الشعوب بطريقة تخرجها عن نطاق وظيفتها الكنائسية.

وبناء على هذا الدستور انتهى دور الكنيسة كمؤسسة أو كعامل مؤثر على سياسة الدولة.

بل لا يسمح لأى رجل دين بارتداء ملابس الكهنوتية خارج أماكن العبادة، بل ومحرم على رئيس الجمهورية أن تطأ قدمه أى كنيسة حتى لو كانت المناسبة خاصة كزواج أو وفاة.

وقد عانى الشعب المكسيكى الأصلى عذابًا شديدًا على يد الغزاة الإسبان الذين غزوا البلاد على يد كورتيز عام ١٥٢٢ والذى خلدته القصص والمؤلفات ولوحات الرسم على الحائط «مورال» والتى أبدعها فنانوها مثل «ريفيرا

وسيكيروس، حتى يكاد أن يكون هذا النمط من الرسم مكسيكيًا خالصًا. ولم يكن للهندى أرض أو منزل إلا ما يمنحه سيده، ووصل الأمر فى إهانته أنه كان يباع فى أوائل القرن العشرين ب ٧٥ بيسو أى ما يقرب من ٦ دولار. وإذا ما تجولت فى الأحياء الشعبية سوف تجد بائع الكرشة والفشة والممبار ولحمة الرأس وجلد الخنزير المحمر وعندما سألت عن سبب انتشار هذه المأكولات قيل لى: إنها أطباق متوارثة منذ الاحتلال الإسبانى الذى استمر حتى سنة ١٨١٩. إذ كان الأغنياء يأكلون اللحم ويتلفون الزائد عن حاجتهم ولا يسمح للهنود بتذوقها، ولكنهم كانوا يعطونهم مخلفات الذبيحة ليأكلوها، فتفننوا فى طبخها.

وحتى يومنا هذا، عندما تثار نقطة الاستعمار الإسبانى مع المكسيكى فإنه يتحدث بألم عما عاناه الشعب من مظالم على يد هؤلاء المستعمرين وأنهم لن ينسوا هذه المعاملة، لكن فى الوقت نفسه لا يزالون يعتبرون إسبانيا الشقيقة الكبرى.

ومن إفرازات الحكم الإسبانى تفاوت الثروات والدخول بشكل ملفت للنظر، ويقال إن كورتيز فاتح المكسيك كان يمتلك الأراضى من جنوب مدينة المكسيك حتى جمهورية جواتيمالا، ومن الإحصائيات ظهرت فى عهد الرئيس بروفورميودياس سنة ١٩٠٤، كان ٩٥٪ من السكان لا يملكون دونما واحدًا، بل كانوا من طبقة ال Serf. ونصف أراضى المكسيك كانت تملكها ثلاث آلاف أسرة، بل قيل لى إن أسرة هيريرا فى الشمال كانت تملك مساحة تفوق مساحة سويسرا. أما الكنيسة فكانت تملك النصف الثانى من الأراضى. هذا بالإضافة إلى سيطرة رأس المال الأمريكى على ٧٥٪ من مناجم المكسيك وآبار بترولها. فلا غرو أن تقوم ثورة المكسيك الكبرى سنة ١٩١٠ والتى من قادتها المشهورين زاباتا وبانشوفيلا، وكانت تهدف القضاء على الإقطاع ومظاهره ووضع قواعد للإصلاح الزراعى والحد من الملكية، ورغم جهود الحزب الحاكم فى تحسين مستوى المعيشة والتقليل من الفروق وتطبيق لمحات من التكافل الاجتماعى، إلا أن مظاهر الفوارق فى الدخول لا تزال واضحة. فهناك الغنى الذى لا يسمح له كبر سنة بالتوجه للصيد فى إفريقيا. فينشئ «سفارى» خاصة على الحدود

الأمريكية المكسيكية على مساحة ٢٢٠٠ فدان، يجلب إليها مختلف أنواع الحيوانات المتوحشة، والسيدة التى تملك ما لا يقل عن ٦٠٠ حذاء، وهناك الفقراء الذين يهجمون على ما تصبه عربة القمامة، أو مناظرهم وهم واقفون فى كثير من الطرق الصحراوية - وخاصة المتجهة إلى الولايات المتحدة - يحملون صناديق تحوى ثعبانًا أو أجوانًا يعرضونها للبيع لأحد السياح.

وإذا أردت أن تشاهد حضارات المكسيك الثلاث الأزتيك والإسبانية والمعروفة بالكولونيال والحديثة فتوجه إلى ميدان الحضارات الثلاث فى حى تلاللكو، حيث توجد رموزًا معمارية لهذه الحضارات ممثلة فى أهرامات هندية، وكنيسة من عهد الإسبان «الكولونيال» ومبنى وزارة الخارجية الحديث وإذا كانت هذه الرموز الحجرية تشير إلى الحضارات التى مر بها تاريخ المكسيك، فإن الفرد المكسيكى هو نتاجها الإنسانى دون إغفال طبيعة البلاد الساحرة، فمن طبيعة نارية إذا أثاره الحدث، إلى هدوء فى نبرة الصوت وسكينة فى المعاملات بين العنصر الهندى نتيجة لما فرضه عليهم السادة الإسبان، إلى حب المرح والموسيقى والجمال، وترى البائع لايقدم لك كأسًا من المثلجات أو طبقًا من الفواكه أو باقة من الورد إلا أضاف عليه لمسة من جمال قلما تجده فى بلد آخر. بل وتعتبر المكسيك من الدول الثلاث الأول فى العالم فى تقدم المعمار، وتحفل مدنها وأحياؤها بأرقى المستويات فى هذا الميدان.

أما موسيقاه فلها طابع خاص، فهناك موسيقى الماريمبا، والتى نبعت من المناطق الشرقية المطلة على خليج المكسيك، والتى تأثرت بموسيقى الزنوج الذين جلبوا إلى البلاد لخدمة مزارع النبلاء والأغنياء الشاسعة، ثم موسيقى المارياش، والتى تشتهر بها مدينة المكسيك، وأصل الكلمة مستمد من Mar-riage لأنها كانت تستدعى لإحياء الأفراح، ويرتد أفرادها رداء خاصًا محلى بالأزرار الفضية، وعلى رأسهم القبعات المكسيكية الكبيرة «السومبريرو» وكثيرا ما يستدعون للعزف فى مناسبات خاصة، كالترحيب بقدوم مولود أو لوداع أو مشاركة فى جلسة صلح بين زوجين!!.. ومن المعالم السياحية فى العاصمة المكسيكية ميدان غلريبالدى حيث تتجمع ما يربو عن مائة فرقة من الماريمبا المارياشى والجاز، استعدادًا لتلبية عابر أو حبيب.



قوارب النزهة فى سوتش مبلكر

ومن الزيارات السياحية والتى تتجلى فيها الشخصية المكسيكية فى لهوها ومرحها. منطقة سوتشيملكو، وهى من بقايا المستنقعات التى كانت حول العاصمة وهذبتها الدولة لتكون مزارًا سياحيًا حيث تسير فيها المراكب وهى تختال فى زينتها من الورود الصناعية الملونة، وتختلط تلك المقلة للأفراد بمراكب المطاعم وفرق الموسيقى وبائعى الورد والبضائع وبذلك يتشكل خليط ممتع من البشر فى لهو برىء وبشاشة روح، وخير يوم للتمتع بهذه التحفة السياحية هو أيام الآحاد والإجازات.

فى عالمنا المعاصر توجد مظاهر مشتركة قوية بين المكسيك ومصر، فخلال إقامتى لمدة أربع سنوات فى هذا البلد تبين لى التشابه الكبير بينهما فى كافة مظاهر الحياة بل وفى سلوك شعبيهما فهناك ظاهرة التدفق على المدن حتى أصبحت مدينة المكسيك أكبر مدن العالم تعدادًا للسكان إذ تزيد عن ٢٢ مليون نسمة وصلت الآن إلى حوالى ٣٠ مليون نسمة، تشابه فى النظام السياسى والأحزاب، وجهود مضنية لرفع مستوى الدخل.

إن الحديث عن الفنون الشعبية المكسيكية ما هو إلا الدخول فى أعماق الفرد المكسيكى فى تاريخه.. فى جهاده.. فى مشاعره.. فالفن الشعبى هو جزء من حياته، وهو تعبير عن معانى التحدى لشخصيته فى صمودها أمام الغزوات الأجنبية.

وتتجلى روح تمسك الشعب المكسيكى بماضيه التاريخى فى علمه الوطنى، فبالإضافة إلى مدلول ألوان الأحمر والأبيض والأخضر فهناك «سرة» العلم المكسيكى، والتى تتمثل فى شجرة صبار عليها نسر يقبض بمخالبه على ثعبان، وهذا التكوين له قصة تاريخية تردد أن المنجمين أشاروا على ملك الأزتيك بترك موطن قبيلته القديم، والتجول فى أنحاء المكسيك إلى أن يعثر على جزيرة عليها شجرة صبار فوقها نسر يقبض بمخالبه على ثعبان، وتصبح هذه الجزيرة موطنا له ولشعبه. وخرج ملك الأزتيك وبطانته بحثًا عنها إلى أن وصلوا إلى وادى ميكسيكالى، فاستقروا فيه، وأنشئت مدينة المكسيك الحالية، وبدأوا فى تجميلها وتخطيطها ونمت العاصمة حتى أنه يقال إن عدد سكانها عند غزو الإسبان لها

سنة ١٥٢٢ بلغ أكثر من مائتى ألف وهو رقم كبير بالنسبة لذلك الزمن، وهناك تمثال يعبر عن هذه الأسطورة بجوار القصر الجمهورى.

وتعتبر المكسيك من البلاد الفنية بالآثار ومرت بها منذ مئات السنين حضارات متنوعة كحضارة الأزتيك والمايا، ولا يدانيها حضارة ورقيًا فى هذا الجزء من العالم إلى حضارة الانكا فى جمهورية البيرو، وتعلقهم بحضارتهم القديمة أى ما قبل الغزو الإسبانى هى جزء من كيانهم وفخرهم، بل وتولد لدى الكثير الشعور بالاحترام لأية حضارة قديمة أخرى وخاصة الحضارة الفرعونية مما خلق انطباعًا بأن هناك صلة بين الحضارتين، وضربوا مثلا بذلك على الأهرامات، ومع تقديرى لهذه المشاعر الطيبة إلا أن التحليل العلمى يصل بك أنه لا توجد أية صلة، بل مجرد تشابه فى بناء هندسى صمم ليصمد أمام عوامل الرياح والجو والزلازل، وليس أكثر من ذلك، وسوف أتعرض لهذه النقطة فيما بعد هذه الكلمة فى إيجاز عن المكسيك والتى تستحق الشعار الذى تتمسك به أو التى هى بحق كما قال السفير المصرى السابق إنها الجنة التى لا تعرفها وزارة الخارجية.

أهرامات مصر وأهرامات المكسيك بين الحقيقة والخيال

كان لى خلال عملى بالمكسيك فى السبعينيات فرصة للمشاركة فى الحوارات حول العلاقة بين الحضارة الفرعونية والحضارة المكسيكية والتى يثيرها تواجد الأهرامات فى كلا البلدين وكنت مازلت متمسكًا بالرأى القائل إنه ليس هناك علاقة بين الحضارات المذكورة، بل إن ما نراه هو نتاج ارتقاء ذاتى تصادف أن أخذ شكل الأهرام فحسب وقد بنيت قناعتى مع المشاركين فى هذا الرأى على الأسس التالية:

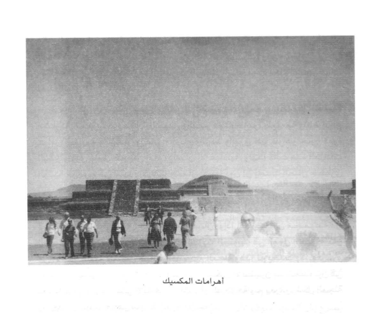
١ـ كان قدماء المصريين يكرهون الغرب على أساس أنه بالنسبة لهم يمثل الموت، لأن الشمس كما يرونها كل يوم تموت فى «الغرب» وقد أثر هذا على

فلسفتهم وتفكيرهم فأقاموا أهم جباناتهم فى غرب النيل مثل وادى الملوك والملكات والنبلاء بل وأيضا الأهرامات نفسها. إذ أن كل أهرامات مصر وهى بمثابة مقابر تقع فى غرب النهر ولا يوجد هرم فى شرقه. وانعكس هذا التفكير أيضا فى اتجاههم التوسعى أو فى معاملاتهم. فكانت أغلبها مع دول شرق سيناء. أما الغرب فلم يحدث بصور عملية إلا فى أواخر الدولة الحديثة بداية من الأسرة الثانية والعشرين حتى الأسرة السادسة والعشرين عندما استجلبوا جنودًا مرتزقة من ليبيا.

٢. فى الزمن القديم كان كل مبنى يقام، له مفهوم دينى أو اجتماعى، فجميع المسلات المصرية كانت تقام فى شرق النيل كرمز لبزوغ الشمس بينما بنيت كل الأهرامات فى الغرب كمقابر للملوك فى الدولة القديمة تعبيرا عن الموت وإذا كانت الأهرام المصرية بمثابة مقابر فإن الأهرام المكسيكية كانت معابد ولم يعثر على أى ملك مدفون فيها. إلا ملك واحد بل وكانت مقبرته بجوار الهرم وليس بداخله وعليه. فقد كان من الطبيعى أن من ينقل فكرة الأهرام المصرية هندسيا أن ينقل أيضا مدلول بنائه ويستخدم الهرم المكسيكى ولو مرة واحدة كمقبرة.

٣. من المعروف أن الحضارات والأفكار تنتقل من مكان إلى آخر على حسب الوسائل والطرق الميسرة وفى الأزمان القديمة كانت انتقالاتها بطيئة لأنها كانت تعتمد على السير أو العربة المجرورة. وعندما كانت القبائل والشعوب وقتئذ تنتقل من مكان لآخر كانت تستقر فيه إما لأن تبقى دوما أو تمهيدًا للانتقال إلى مكان آخر بعد استنزاف أغراضها ومن الطبيعى أنها فى هذه الانتقالات تترك آثارها ومظاهر حضارتها من المنطقة التى شغلتها.. وعليه فهل عثرنا على معبد أو هرم فرعونى فى المنطقة التى تمتد من غرب مصر إلى الأطلنطى.

٤. وقد يقول إن الرأى المعتاد أن المصريين عبروا بمراكبهم البحر الأبيض إلى المحيط الأطلنطى إلى أمريكا الجنوبية. وهذا أيضا أمر مستبعد حصوله حيث إن قدماء المصريين كانوا قوة أرضية أكثر منها بحرية. وبالتالى فإن علم الأسفار البحرية لديهم كان محدودا ورحلة «نخاو» للغرب فى الأسرة الثانية



أهرامات المكسيك

والعشرين إلى جبل طارق وما بعده مشكوك فيها وأعتقد أنها لم تتجاوز حدود ليبيا.

٥. حتى ولو اعتبرنا بمثنى حتشبسوت ونخاو البحرية فى الدولة الحديثة كإشارة لاحتمال حدوث هذا الاتصال الحضارى فالرد عليها بأن فكرة بناء الأهرام كمقابر انتهت بانتهاء الأسرة السادسة تقريبا أى بحوالى ١٠٠٠ سنة قبل حكم حتشبسوت و ١٦٠٠ سنة قبل حكم نخاو وخلال هذه الحقبة من الزمن ظهرت أفكار وعقائد جديدة بل وتطورت معالم الحياة المصرية وفقمتطلباتها والتى لم نرها فى المكسيك ومثال على ذلك كان من الممكن أن ينقل أفراد البعثة المصرية التى وصلت لهذه البلاد استخدام البردى وهو موجود فيها فى صناعة الورق ولكن المعروف أن أمريكا الوسطى استخدمت لحاء الشجر كمادة لصنع الورق.

٦. وإذا كان من ضمن حجج الاتصال الحضارى بين مصر وأمريكا الجنوبية مشاركة الشعوب فى عبادة الشمس والقمر فهذه ظاهرة طبيعية وثنية إذ أن عوامل الطبيعة كالشمس والقمر والرياح والرعد والبرق كلها ظواهر خارج قدرة البشر وأقوى منها. فلم يكن أمام الإنسان إلا عبادتها. ولهذا كانت هذه العبادات الوثنية موجودة فى آسيا وإفريقيا وشمال أوروبا دون أن يحدث اتصال حضارى بينها وبين الدول الرائدة فى العالم القديم وعلى رأسها مصر.

٧. وأخيرا فإن كافة العلماء يعتبرون «العجلة» من أهم الاختراعات البشرية لاستخدامها فى كافة احتياجات الإنسان. وإذا افترضنا أن مجموعة من المصريين قد تمكنوا من الوصول إلى أمريكا الجنوبية فى الدول الحديثة كان من الأجدر عليهم لتسهيل حياتهم استخدام العجلة وهذا لم يحدث إلا عند غزو الإنسان المكسيك سنة ١٥٢٢ فقد كان السكان الأصليون يستخدمون فى تحركاتهم إما النقل على الأكتاف أو الشد أو الدحرجة ولم يعرفوا شكل العجلة إلا بعد أن شاهدوها فى معدات الغزاة الإسبان.

هذه النقاط، ولدت لدى قناعة بأن أهرامات المكسيك التى شاهدتها. لم تكن سوى نتاج تفكير لإقامة مبنى هندسى راسخ يقاوم الزلازل والرياح وعوامل الطبيعة وهو ما لا يتوافر إلا فى الشكل الهرمى.

بعض الأحداث فى فترة عملى بالمكسيك

أزمة بعد أسبوع من الوصول للمكسيك

بعد وصولى بأسبوع قدمت أوراق اعتمادى لرئيس الجمهورية وكان من المتبع أن يلى حفل تقديم أوراق الاعتماد، مقابلة السفير لرجال الصحافة، وفى ذلك اليوم كان المستر كيسنجر متجهًا للقاهرة فى جولة للمباحثات مع الرئيس السادات. فسألنى أحد الصحفيين هل تعتقد أن كيسنجر سوف ينجح فى هذه الزيارة فكان ردى أن تفهم المستر كيسنجر لحقيقة الأوضاع فى الشرق الأوسط سوف يساعده على تحقيق السلام أعقبت هذه الإجابة سؤال من صحفى آخر هل تعنى أنه لو فشل سوف تقوم حرب مع إسرائيل أجبته أننى لم أذكر كلمة حرب بل أحيله إلى إجابتى السابقة لكن الغريب أن ردد صحفى ثالث هذا السؤال فلم أرد عليه.

صدرت الصحف المكسيكية فى اليوم التالى بعنوان ضخم «السفير المصرى يصرح بأن الحرب سوف تشتعل فى الشرق الأوسط إذا فشل كيسنجر فى مهمته» بل وصدرت بعض الصحف الأمريكية تردد ما كتبته الصحف المكسيكية. وفى ذات الليلة وصلتنى برقية عنيفة من الوزارة تسألنى عن صحة ما ورد فى الصحافة، وبصراحة لم أستبعد أن تستدعينى القاهرة إذا ثبت صحة هذا الخبر

أو حتى إذا كذبته لكن ما نجدنى هو أن رئاسة الجمهورية المكسيكية تسجل عادة مثل هذه المؤتمرات الصحفية.

فتوجهت فورًا لوزير الدولة لرئاسة الجمهورية وشرحت له الموقف فأرسل لى نسخة من الشريط المسجل والذى أرسلته للوزارة ورغم ذلك جاء توجيه من الوزارة بمراعاة الدقة فى أى تصريح صحفى.

وعندما سردت هذا الحادث على زملائى من السلك السياسى، أفادونى أن الصحافة المكسيكية والتى تقف عادة فى مواجهة مع أمريكا تكتب ما تتمنى أن تكتبه على لسان السفراء الأجانب وأن ما حدث معى، حدث مع سفير اليابان وسفير البرازيل.

صلاة العيد فى السفارة

بعد وصولى للمكسيك، علمت بأنه لم يحدث أن أقيمت من قبل صلاة عيد الفطر أو عيد الأضحى ولما كانت دار السكن تسمح لى بإقامتها فقد دعوت الجاليات الإسلامية للصلاة واشترطت تواجد أبنائهم حتى نشعر ببهجة العيد. ونجحت فى إرساء هذه القاعدة، الأمر الذى جعل السفارات الإسلامية تطالب بأن تكون الصلاة دورية بيننا. وفى عام ١٩٧٩ زارنى سفير باكستان وأخبرنى بكل أسف أن السفراء العرب لا يرغبون فى مشاركتى لهم فى الاحتفال بالعيد. قابلت الخبر ببرود وأفدته أننى يكفينى أن أصلى مع عائلتى وأعضاء السفارة، أى أننا لن نتجاوز العشرين فردًا.

لكن شاء الله أن يخيب ظنهم إذ فوجئت ببرقية من القاهرة بأن مدير جامعة القاهرة سيرأس وفد جامعات مصر المشارك فى بطولة الجامعات وأن عدد أفراد البعثة حوالى مائة وعشرين فردًا سيحضرون قبل العيد بيومين. فقررت أن أجعل من حضورهم فرصة الاحتفال بالعيد. واكتملت الصورة بأن أغلب أعضاء الجاليات الإسلامية استجابوا لدعوتى فى المشاركة فى صلاة العيد. وكان حفلاً ناجحًا بكافة المقاييس، بينما لم يشارك فى حفل الزملاء العرب أكثر من ثلاثين

فرداً. وتذكرت قول الله تعالى فى كتابه الكريم.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

موقف حرج فى المكسيك

لاشك أن رحلة الرئيس السادات لإسرائيل سنة ١٩٧٧ كان لها صدى كبير فى أنحاء العالم بل لا أكون مغاليًا إن قلت إن شوارع العاصمة مكسيكيو قد خلت من العربات خلال إلقاء خطابه فى الكنيست.

وتفاوت رد فعل الزيارة بين معارض لها، أو متشكك فى جدواها أو متفائل بنتائجها بل وصل الأمر إلى أن بعد إلقاء الخطاب بساعات طلب مواطن مكسيكى مقابلتى وأخبرنى أنه يهودى لكن يود أن يؤكد رسالة السلام التى قدمها الرئيس السادات القيام بمظاهرة على الدراجات تسير فى شوارع المدينة وتشكل من الجالية المصرية والجالية اليهودية المكسيكية وشكرته على هذه الروح وإن اعتذرت عن المشاركة حيث لا يوجد بالمكسيك مواطن مصرى واحد ولم تمض ساعات إلا ووصلتنى دعوات الجالية اليهودية قبل بل ودعانى السفير الإسرائيلى على العشاء فى الوقت الذى أراه مناسبًا.

بعد الخطاب اتصلت بالسفير الدكتور أشرف غربال فى واشنطن، وذكرت له أن رئيس دولة إسرائيل سيصل المكسيك بعد ظهر اليوم التالى لزيارة السادات، وأخشى أن تدور رأسه ويطلب فى إطار التفاؤل بالسلام أن يطلبنى لمقابلته، ولا أعرف كيف أتصرف حيث لا توجد لدينا أى تعليمات توجهنا.

رد على الدكتور أشرف بأنه أيضا ليس لديه تعليمات ولكن يمكن التهرب بأن أتمارض أو أترك العاصمة فكان ردى وماذا يفعل زميلى التالى فى الترتيب بالسفارة؟

فكر الدكتور أشرف ثم قال إن الفرد منا يقابل فى عمله مواقف تستوجب اتخاذ قرار. وهو وحظه إما قرار يؤدى إلى ترقية أو إلى رفده.

شكرته على هذه الحكمة والحمد لله لم يحدث ما كنت أخشى أن يحدث.

الولايات المتحدة والمكسيك

تربطهما علاقات لها خصوصيتها فهى خليط من مشاعر نفسية ومصالح حيوية، تؤثر على هذه العلاقات حقائق جغرافية تتمثل فى وجود حدود مشتركة تمتد لحوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر، وما يترتب عليها من مشاكل الحدود والتهريب والعبور غير المشروع.

فمن الناحية التاريخية لا ينسى شعب المكسيك أن أمريكا قد استولت على أراض مكسيكية كتكساس وكاليفورنيا ونيو مكسيكو وأريزونا ونيفادا.

بل إن عمليات الضم لهذه الولايات استمرت حتى منتصف القرن التاسع عشر أى أنها لا تزال فى ذاكرة هذا الشعب.

وأكثر المشاكل اشتعالا بين البلدين هى الهجرة الشرعية للعمال المكسيكيين للولايات المتحدة بحثًا عن عمل أو رغبة فى تحسين الدخل. ورغم أن أمريكا تحتج بصوت عال على هذه الهجرة إلا أن كبار الملاك فى الجنوب يعقدون صفقات مع العصابات المنظمة لتسهيل عملية التهريب حيث إنهم يستخدمونهم فى زراعاتهم كأيدى عاملة رخيصة، أى أنهم بوجهين وجه ضد الهجرة لاكتساب أصوات نقابات العمال الأمريكية والوجه الآخر هو اتباعهم ما هو ضد هذه السياسة عمليًا أما المشكلة الأخرى فهى المخدرات إذ أن للولايات المتحدة سوق كبير لها تستهلك فيها إنتاج المكسيك من المخدرات بالإضافة إلى أنها بمثابة محطة ترانزيت للمخدرات دول أخرى مصدرة لها مثل كولومبيا. وتستخدم فى عملية التهريب كل وسائل النقل بما فيها الطائرات. أتذكر أننى دهشت من إحصائية أعلنتها الولايات المتحدة من أنه تم القبض على أكثر من سبعمائة طائرة فى عام واحد. ولنا أن نتصور حجم هذه التجارة والتى قدرها البعض أنها أكثر من ١٦٠ مليار دولار.

وأهم سلاح تستخدمه الولايات المتحدة تجاه المكسيك هو الضغط الاقتصادى بأسلحته المختلفة من استثمار أو استيراد المنتجات المكسيكية أو النشاط السياحى الأمريكى.

وأتذكر أنه عند استلامى العمل فى المكسيك أن كان رئيس الجمهورية المستر إتشفاريا يتبع سياسة التقارب مع دول العالم الثالث، بل وتبنى إنشاء مركز دراسات العالم الثالث وعززه بمجموعة قوية من العلماء واستضافة الكثير من المؤتمرات. وبالطبع لم تكن الولايات المتحدة ترحب بهذه السياسة، فاتبعت معه الضغط فى النواحى التجارية فمثلاً كانت بالمكسيك تصدر لها بحوالى أربعمائة مليون دولار سنويًا من فاكهة الفراولة وفوجئنا فى يوم أن سعر الكيلو فى الأسواق انخفض إلى عشرة فى المائة من السعر الذى اعتدنا عليه وتبين لنا أن أمريكا ألغت استيرادها لها بحجة أنها مصابة بأمراض زراعية. وتكرر الآن فى منعها استيراد العجول من المكسيك الأمر الذى أثار زوبعة داخلية مضادة لانشفاريا خاصة من الولايات الشمالية. وإزاء هذا تراجع أو انكمش انشفاريا فى علاقته بالعالم الثالث.

وألخص النظرة المكسيكية مع العلاقة على الولايات المتحدة فيما قاله أحد رجال الصناعة لى «أقول لك الحقيقة نحن نحبكم ونكره الأمريكان لكن إذا تكلمنا فى مواضيع الاقتصاد والاستثمار فنحن معهم»

وانتهت خدمتى فى المكسيك فى أكتوبر ١٩٧٩، وفى ذاكرتى ملامح ذكريات عطرة لشعب عظيم، وبلاد جميلة فى طبيعتها، راسخة فى تقاليدها، مع ذخيرة من الأصدقاء لازلت على صلة بهم حتى اليوم.



قبرص

أكتوبر ١٩٦٠ - يوليو ١٩٦٢

يناير ١٩٦٣ - أغسطس ١٩٧٣

تمهيد تاريخي

جزيرة قبرص من الجزر الكبرى فى البحر الأبيض المتوسط إلا أنها تتميز بحقيقة تتفرد بها عن باقى جزر هذا البحر فموقعها الجغرافى بين أوروبا والشرق الأوسط أعطاها موقعا استراتيجيا مهمًا بين دول المنطقة فهى تبعد عن الساحل الجنوبى التركى بـ٤٠ كيلو مترًا وعن سوريا ولبنان بـ١١٠ كيلو مترات ومن إسرائيل بـ١٢٠ كيلو مترًا وعن مصر بـ٤٠٠ كيلو متر وأخيرًا عن اليونان بـ٨٠٠ كيلو متر وذلك فإن من يسيطر على هذه الجزيرة يكتسب مركزًا مميزًا يتيح له التحرك فى عدة اتجاهات فى المنطقة ولا ينسى المصريون أنها كانت نقطة انطلاق العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ على بلادهم.

ورغم بعدها عن اليونان إلا أنها احتفظت بشخصيتها الهيلينية والدينية فرغم أنها كانت نقطة وثوب لبعض الحملات الصليبية إلا أنها احتفظت بشخصيتها الهيلينية وانتمائها الدينى للكنيسة الشرقية فى القسطنطينية واكتسبت قبرص مكانة قوية فى إطار هذا المذهب المسيحى وتمتعت باستقلالية فى اختيارها

لرئيس كنيستها دون الحصول على موافقة بطريك الأرثوذكس الأكبر الموجود فى إسطنبول.

ورغم قربها من تركيا إلا أنها بقيت على ولائها للهيلينية إلا أن الغزو التركى سنة ١٥٧١ أدى إلى زيادة التواجد التركى من الناحية العددية وإن بقيت تمثل فقط حوالى عشرين بالمائة من سكان الجزيرة واستمر الحكم التركى لها إلى أن احتلتها بريطانيا سنة ١٨٧٨.

وحتى منتصف القرن العشرين لم تكن هناك مشاكل بين المجتمعين اليونانى والتركى واستمرت العلاقات السلمية بين المجتمعين إلى أن بدأت بريطانيا فى إثارتها لتخفيف الضغط عليها وذلك بالإيقاع بينهما عندما اشتدت حركة اينوسيس وجناحها العسكرى أيوكا والتى تطالب بضم الجزيرة لليونان ونجحت بريطانيا فى دفع بعض العناصر التركية تطالب بالتقسيم وضم المناطق ذات الأغلبية التركية لتركيا. واستمر النزاع إلى أن اتفقت الأطراف المعنية وهى اليونان وتركيا وبريطانيا على استقلال الجزيرة سنة ١٩٥٩ لكن هذا الاستقلال والدستور الذى وضع للجزيرة لم يوفر لها الاستقرار السياسى حتى اليوم بل لا تزال القضية حية ومطروحة على الساحة الدولية.

وبعد إعلان الاستقلال بذلت أقصى الجهود للمحافظة على الوضع الذى حددته المعاهدات والدستور مع حرص الأسقف ماكريوس على عدم إعطاء تركيا فرصة التدخل إيمانا منه بأن لو وضع الجندى التركى قدمه على الجزيرة فلن يخرج منها.

لكن شاءت الأقدار أن تقوم الحكومة العسكرية اليونانية بانقلاب على الأسقف ماكريوس سنة ١٩٧٤ أعقبه نزول الجيش التركى شمال الجزيرة واحتلاله لحوالى أربعين بالمائة من مساحة أرضيها والتى تشكل حوالى سبعين بالمائة من مقوماتها الاقتصادية كمناطق القمح والفاكهة وبعض المناجم والمناطق السياحية المتميزة مع إجبار ٤٠٪ من أبناء المجتمع اليونانى على ترك أرضيهم وأملاكهم.

وأعقب هذا الغزو تركيز جهود الحكومة القبرصية على المطالبة بانسحاب القوات التركية وفى الوقت نفسه إعادة الاستقرار الاقتصادى واستمرت فى هذه السياسة حتى يومنا هذا بما أدى إلى ارتقاع مستوى الدخل للفرد إلى ٢٥ ألف دولار الأمر الذى سهل دخولها عضوا فى الاتحاد الأوروبى.

قبرص أكتوبر ١٩٦٢

مشكلة إنشاء العلاقات الدبلوماسية

خلال عقد الخمسينيات ومع انتشار التحرر وانبعاث الروح القومية ومحاولة شعوب العالم الثالث توكيد شخصيتها الدولية برز عدد من القادة فى قارتى آسيا وإفريقيا وتواكب مع هذه الظاهرة الدولية دور جديد للسياسة الخارجية المصرية. إذا خرجت من دائرة المناداة بالاستقلال وإخراج الإنجليز من البلاد إلى ضرورة التضامن مع هذه الشعوب بقناعة سياسية إن معركة التحرر يجب أن تشمل كافة الكيانات حتى لا تتواجد ثغرة بين صفوفها تهدم ما تسعى إليه كل بلد من هذا العالم الثالث.

ومن بين الشخصيات التى استحوذت على اهتمامى شخصية الأسقف ماكاريوس والذى تولى قيادة كفاح المجتمع اليونانى فى حركته والتى تهدف إلى ضم جزيرة قبرص إلى الوطن الأم اليونان والتى عرفت بحروفها الأولى باللغة اليونانية باسم «اينوسيس» ومن خلال الصحافة المحلية والعالمية كنت ازداد إعجابًا واحترامًا لهذه الشخصية الدينية والتى أضافت إلى وظيفتها الأساسية أى مجرد جلوس على كرسى البطريركية مسئولية حركة كفاح وطنى. وزاد من دهشتى أن تنجح هذه الشخصية فى تولى منصب أسقف الكنيسة القبرصية عن طريق انتخابات مجلس الأساقفة القبرصى ولم تتجاوز عمرها أربعة وثلاثين عام مخالفة بذلك للقاعدة العامة والتى كان عامل كبر السن يلعب دورا كبيرا فى الاختيار.

وفى عام ١٩٥٩ نقلت للعمل كمستشار للسفارة المصرية فى أثينا فوجدت نفسى فى خضم دراسة مشكلة قبرص والتى كانت تشغل جانب كبير من

اهتمامات الدول المجاورة بل والدول الكبرى. ولاشك أن موقعها الاستراتيجى وقربها من منطقة الشرق الأوسط الساخنة هو الذى أعطى لهذه حاملة الطائرات الثابتة. وهو الاصطلاح الذى أطلق على الجزيرة أهمية كبرى لهذه الدول وأصبحت كل واحد منها تحاول أن تجد لنفسها قدما عليها عن طريق استغلالها لتطورات المشكلة. ولعل أكبر مثل على هذه الأهمية أنها كانت نقطة انطلاق.

العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦

وأثمر الكفاح والمناورات الدولية وانعكاسات الأزمة القبرصية على القدرات الداخلية للبلدين الأكثر اهتمامًا بمستقبلها هى تركيا واليونان واتجه إلى أن خير حل لهذه المشكلة هى إعلان استقلال قبرص ومنحها دستورًا يعطى القيادة فيها للمجتمع اليونانى مع وضع قيود لحرية استخدامه لهذا المركز القيادى للحفاظ على حقوق المجتمع التركى.

وعندما اعتزمت جمهورية مصر العربية الاعتراف بجمهورية قبرص وتبادل التمثيل الدبلوماسى كان لى شرف الاختيار من قبل وزارة الخارجية المصرية أن أقوم بمهمة التباحث مع القيادة القبرصية اليونانية والتركية فكلفت بالتوجه إليها يوم ٢٢ يونيه سنة ١٩٦٠ وبناء على هذا التكليف توجهت إلى قبرص وكنت بذلك أول مسئول مصرى تطأ قدماه أرض الجزيرة منذ العدوان الثلاثى ١٩٥٦، كانت أول شخصية قبرصية أقابلها على أرض مطار نيقوسيا الدكتور فاسوس ليساريدس الطبيب الخاص للأسقف مكاريوس وكان هذا اللقاء بداية لعلاقات شخصية مبنية على الاحترام وتبادل الرأى وعززها تقارب أفكارنا ونظرتنا للأمور والأحداث وأستطيع القول بأن إيمان الدكتور ليساريدس بقضايا التحرير وبالحق العربى سواء فى الوحدة العربية أو المشكلة الفلسطينية كان إيمانا راسخا لا يتزعزع وعن قناعة عميقة فى وجدانه وأثبتت التجارب والأيام والمحن هذه الحقيقة.

كانت طلبات وزارة الخارجية المصرية والتي كلفت بالتباحث فيها من الصعب تحقيقها ولم يكن في فكر من وضعها مدى الصعوبات والعوائق التي وضعها الدستور القبرصي أمام المسئول القبرصي عن اتخاذ قرارها السياسي في مثل هذه الطلبات.

والحق يقال إن الأسقف ماكاريوس كان متحمسًا لمطالبنا ولكنه أشار إلى صعوبة تحقيقها خاصة أن الجانب التركي بناء على مواد الدستور القبرصي يتمتع بحق الفيتو في القرارات الخاصة بإنشاء العلاقات الدبلوماسية والقنصلية وبناء عليه عدت إلى أثينا بنجاح محدود وهو استعداد قبرص لتبادل التمثيل الدبلوماسي مع مصر مع تحفظات من الجانب التركي ليس هذا مجالا لسردها.

وأرسلت للوزارة تقريرًا عاجلاً عن المباحثات مع الأسقف ماكاريوس ونائبه التركي الدكتور كوتجوك ومساعده رؤوف دنكتاش مشفوعًا برأيي بصعوبة تحقيق طلبات الوزارة ودللت على وجهة نظري بما ورد في نصوص الدستور القبرصي من قيود ووجهة نظر الجانب التركي والذي كان ولا يزال في قرارة نفسه رواسب تأييد مصر لحركة التحرير القبرصي والذي تصور إنها معادية له.

عاودت وزارة الخارجية المصرية في ٨ أغسطس ١٩٦٠ تكليفي بالقيام بالجولة الثانية واقتصرت تعليماتها على ضوء ما قدمت لها من معلومات وأسفرت هذه الجولة على الموافقة على تبادل التمثيل الدبلوماسي مع وعد من الأسقف أن يكون السفير المصري سابقًا في الأقدمية على السفير الإسرائيلي تقديرًا منه لمصر. وكان الأسقف على وعده أن قدم السفير الإسرائيلي قدم صورة أوراق اعتماده لوزارة الخارجية القبرصية في نفس يوم إعلان الاستقلال ١٦ أكتوبر سنة ١٩٦٠. ولكن الأسقف أجل استلامه لها إلى ما بعد وصول السفير المصري مصطفى لطفي في أوائل فبراير سنة ١٩٦١.

وبذل السيد مصطفى لطفي جهودًا خارقة في تعزيز علاقاته مع جميع القبارصة يونانيين وأتراك وكان نجاحه مرموقًا وساعد على ذلك مكانة مصر في قلوب أفراد المجتمع اليوناني من الناحية السياسية وقلوب الكثيرين من المجتمع التركي من الناحية الدينية وتوطدت العلاقات بين الأسقف والسيد لطفي بل

كثيرًا ما استشاره فى بعض المشاكل التى كان يواجها ويحضرنى فى هذه النقطة تكليفه بإصلاح ذات البين بين زعيمين فى حركة ايو بين وزير الداخلية والمستر سمبسون والذى تولى القيام بأعمال رئيس الجمهورية بعد الانقلاب الذى حدث ضد ماكاريوس فى يوليو ١٩٧٤.

ونجح السفير لطفى وتم عقد الصلح فى دار المكاتب وسعد الأسقف بهذا النجاح حيث إنه جنب المجتمع اليونانى الانقسام على مستوى الشارع ولجوء طرفى النزاع إلى السلاح لتسوية الأمور بينهما وما لهذا من تأثير على استقرار قبرص وهى فى أولى خطواتها وأيضا على صورتها فى المجتمع الدولى.

الفترة الأولى: من ١٦ يناير ١٩٦٠ إلى أول يوليو سنة ١٩٦٢

كانت الحكومة القبرصية الانتقالية قد سمحت لى خلال زيارتى السابقة بمعاينة دار القنصلية والتى أغلقتها السلطات البريطانية عند وقع العدوان الثلاثى على مصر فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ كانت الدار تقع فى القطاع اليونانى فى شارع مصر وإن كانت تمتلكها عائلة تركية ثرية والتى أوصى كبيرها السيد نجاتى منير بأن تبقى مصر فى هذه الدار طوال ما كانت مصر فى حاجة إليها.

ولا تزال مكاتب السفارة تتربع فى مكانها بشارع مصر بوسط نيقوسيا حتى اليوم. وللأسف كانت الدار من حيث المبنى والأثاث فى حالة يرثى لها ولكن تضافر أعضاء السفارة فى نظافتها وتجهيزها بقدر الإمكان للعمل كسفارة خاصة وأن الكثيرين من القبارصة كانوا يحضرون لزيارتنا لتهنئتنا بالمودة للجزيرة وساعدنا فى هذه المرحلة السيد مصطفى لطفى الذى كان لا يزال فى القاهرة إذ كان خير عون فى دفع الوزارة للتجاوب مع طلباتها لإصلاح أحوالها.

وفى هذه الفترة التى سبقت وصول السيد السفير أتيحت لى الفرصة للتوسع فى علاقاتى الشخصية مع الكثير من الشخصيات القبرصية على مختلف مستوياتها وفى أى مكان أتواجد فيه كنت أشعر بمدى محبة القبارصة لمصر

وتقديرهم السيد للرئيس عبد الناصر بل ليس غريبًا أنه عندما أجلس فى أحد المقاهى ويعرف مرتدوها بأننى دبلوماسى مصرى حتى تنهال على كئوس النبيذ والكونياك وقطع الملبن كما وطدت علاقاتى مع وزير الخارجية القبرصية المستر كبريانو على المستوى الرسمى والعائلى.

وخلال هذه الفترة بذلت جهدًا كبيرًا مع أفراد المجتمع التركى لإقناعه بأن مصر أصبحت تتعامل مع قبرص كدولة مستقلة وليس على أساس مجتمعين تركى ويونانى متمشية فى ذلك مع تطورات القضية القبرصية وكانت العلاقات معه مزيج من المشاعر. البعض استمر فى اتهامنا والهجوم علينا والبعض الآخر كان حذرا فى الاتصال بى.

ولكن الأغلبية كانت ترحب بى وكثيرًا ما كانت لعبة الطاولة التى يعشقونها وسيلة لتحسين العلاقات خاصة مع الدكتور كونجوك نائب رئيس الجمهورية.

وأوفى الرئيس ماكاريوس بوعده بأنه سيؤخر اعتماد السفير الإسرائيلى إلى ما بعد السفير المصرى أوراق اعتماده وصمد فخامته لتنفيذ هذا الوعد لضغوط شديدة من إنجلترا وأمريكا وتركيا حتى وصل السيد مصطفى لطفى فى أوائل فبراير سنة ١٩٦٩.

وفى تلك الحقبة كانت أمام الحكومة القبرصية مشاكل عديدة من أجل ترسيخ أركانها وبالإضافة إلى مشاكل عديدة كانت أبرزها تطبيق نسبة تعين أفراد جهاز الدولة كما نص عليه الدستور القبرصى وهى تخصيص ٣٠ بالمائة للأتراك رغم نسبتهم لكافة سكان قبرص ثمانية عشر بالمائة أما المشكلة الثانية فكانت أمام الأسقف والخاصة بتعيين وزراء المجتمع اليونانى إذ كان عليه التوصل إلى معادلة ترضى الأطراف المختلفة بين أفراد الجناح السياسى وأفراد الجناح العسكرى وأيضا بين المجاهدين السياسيين فى الداخل والمجاهدين السياسيين فى إنجلترا وأمريكا.



صورة تجمع بين عبد الناصر والأسقف مكاريوس خلال زيارته للقاهرة عام ١٩٦١

الفترة الثانية
من ١٥ يناير ١٩٦٩ إلى ٣٠ أغسطس سنة ١٩٧٣

عقب جولتى الثانية فى قبرص عينت مستشارًا للسفارة هناك وكلفت بافتتاح السفارة فى ١٦ أكتوبر ١٩٦٠ واستمر عملى بالسفارة حتى يونية ١٩٦٢ حيث تقرر نقلى إلى الديوان العام حيث عملت فيه كنائب لمدير الإدارة الإفريقية لمدة عامين. ثم نقلت من الديوان إلى موسكو فى سبتمبر عام ١٩٦٤ للعمل كوزير مفوض للسفارة وأمضيت فيها ٤ سنوات تحت رئاسة السفير الدكتور محمد مراد غالب والذى أدين له بفضل كبير فى كيفية التعامل مع الأفراد ومواجهة المواقف والنظرة الإيجابية إلى الأمور والأحداث.

ولا ننسى أن هذه الحقبة فى موسكو شملت فترة ما قبل حرب يونية ١٩٦٧ وما بعدها بعام. فترة شملت الحلوة والمرة والعزة والمجد والمشاعر المؤلمة القاسية فترة صهرت الفرد وخرجت منها كأى فرد من الشعب المصرى زيادة فى التصميم والتحدى لرد شرف مصر وكرامتها.

وعندما انتهت فترة الأربع سنوات خدمة فى موسكو فى أغسطس ١٩٦٨ عدت إلى الديوان العام لكن لم أكد قد أمضيت فيه أربعة أشهر عندما فوجئت باستدعائى لمقابلة السيد محمود رياض وزير الخارجية يوم ٦ ديسمبر وأخبرنى أنه قد وقع على الاختيار للعمل سفيرًا لمصر فى قبرص على أن أكون مستعدا لتقلد المنصب بعد أسبوعين فقط.

كان هذا التعيين مفاجأة لى امتزجت فيها مشاعر عدم الاستعداد النفسى للسفر للخارج بعد مدة قصيرة أمضيتها فى القاهرة مع مشاعر التحدى للمتاعب والمصاعب التى سوف أواجهها وبالفعل شعرت بحجم هذه المتاعب فور استلامى لمنصبى فى قبرص ووجدت لزامًا على وضع تقييم الموقف مع إعداد لحظة أتحرك على أساسها حتى أعيد لمصر مكانتها وإلى ما كانت عليه من وجود مؤثر بالجزيرة قبل عام ١٩٦٧ فمن جهة كانت لى ركائز فى الجزيرة لعملى السابق بها ممثلة أساسا فى الأسقف ماكاريوس وإيمانه بالحق العربى وتقديره وإعجابه بالرئيس جمال عبد الناصر وتصميمه على السير بالجزيرة فى سياسة عدم الانحياز.

وأيضا مجموعة من الأصدقاء الأوفياء والذين يؤمنون بهذه السياسة وعلى رأسهم الدكتور ليساريدس والمستر سبيروس كبريانو وزير الخارجية وقتئذ والمستر بنيامين وكيلها وبعض رجال السلطة التنفيذية والتشريعية ورجال الصحافة.. هذا بالإضافة إلى الشعور العام لرجل الشارع القبرصى المتعاطف معنا.

ولكن فى الوقت نفسه كان هذا الجو العام ممتزجا بتعبيرات من الألم والحسرة لهزيمتنا بل وصلت بالبعض إلى الشعور بالضياع إذ أن المجتمع القبرصى كان يرى أن مساندة مصر له هى من الأعمدة الرئيسية لبقائه وكان لا يؤمن إطلاقــا بأن أثينا تحت نظام الحكومــة العسكرية بقيــادة الجنرال بابادوبولوس سوف تكون على مستوى المسئولية الوطنية أو الالتزام بالدفاع عن الهلينية وأنها لن تتوانى فى التضحية بمصالحهم وآمالهم من أجل إرضاء الغرب حتى تخف حملة هجومه على النظام ودكتاتوريته.

كان سفير إسرائيل يعمل بنشاط محموم مستفيدا بمظاهر القوة الإسرائيلية المنتصرة فى المنطقة ومستندًا على بعض القطاعات التجارية والتى نشطت معاملاتها مع إسرائيل فى الفترة الأخيرة خاصة القطاع السياحى والتى أدت إلى زيادة أعداد السياح الإسرائيلية بالإضافة إلى التأييد المعنوى من الدوائر الغربية وتشجيعها له.

ومن جهة أخرى كانت مصر بقيادتها وقطاعاتها المختلفة تركز فى جهودها على إعادة تنظيم قواتها المسلحة وتجنيد كافة طاقاتها لخدمة هدفها الأسمى ألا وهو رد شرفها والثأر لهزيمتها. أما سياستها الخارجية فكانت تركز على إعادة الثقة فى العالم العربى دون إهمال بما يتطلب التعامل مع القوتين العظمتين من تحرك محسوب يستنفد جهدًا وفكرًا وطاقة ومن ثم لم يتبق لديها الكثير لإعطاء بعض المواقع الأخرى لما تستحقه من أهمية ولهذا قابلت خلال العام الأول من خدمتى كسفير فى قبرص متاعب كثيرة نتيجة لقصور بعض الدوائر والقطاعات المصرية فى التجاوب مع طلباتى ومتطلبات العمل بالجزيرة أو عدم تفهم سليم منها لأهمية الجزيرة ولم يتحسن الوضع إلا بعد مقابلتى لشخصية رئاسية مصرية فى صيف ١٩٧٠ وأعطى لى من وقته ساعتين ونصف شرحت خلالها أهمية قبرص الاستراتيجية وأوضاعها الداخلية وما يدور حولها من مؤامرات والمحاولات التى تبذل لخلع الأسقف ماكاريوس أو إجباره على تغير سياسته الحيادية وانعكاس كل هذا على كياننا بالجزيرة وعلى الوضع العربى بصفة عامة.

وأوضحت هذا لسيادته الشخصية خطتى التى قررت العمل بها بعد استلامى العمل بالجزيرة وأنها مقسمة على ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى: وقد تركز على توثيق العلاقة بالعناصر الصديقة واستشفاف مشاعرها وقدرتها على التعاون ولم أجد صعوبة كبيرة فى هذه المرحلة، وكلما مرت الأيام زادت هذه العلاقات توثقا وقوة، ولذلك لم تستنفد هذه المرحلة وقتا طويلاً بل سرعان ما تكونت قاعدة قوية من المتعاطفين والمؤيدين وعلى رأسهم الأسقف ماكاريوس.

المرحلة الثانية: وكانت تهدف إلى تحجيم نشاط السفير الإسرائيلى وملاحقته فى كل مكان وكل مجال وساعدنى فى ذلك غروره وشططه والذى أثار مشاعر الكثير من القبارصة.

وبلغ من نزقه وغطرسته ما ذكره لي الأسقف ماكاريوس أن السفير الإسرائيلي زاره مرة بصحبة ضيف إسرائيلي كبير وكانت معه لفافة كبيرة ولم يعرف محتواها وفي ختام المقابلة طلب منه التقاط صورة تذكارية لهذه الزيارة وعند وقوفهم استعدادًا لأخذها استأذن في إحضار مصور وعند دخول الأخير فوجئ بتصرف غريب من السفير الإسرائيلي لا يقدم عليه إلا كل مغرور طائش إذ أنزل السفير لوحة زيتية كانت معلقة على حائط مكتبه ونزع اللفافة ووضع أخرى لمدينة القدس بدلا منها الأمر الذي أحرج الأسقف وفهم ما كان يرمي إليه السفير وهو وقوفهم معًا تحت صورة لهذه المدينة لإثارة العرب عليه فلم يجد الأسقف بدًا من التحوك قليلا حتى يغطي أكبر حجم منها وكان الأسقف يروي هذه القصة بمزيج من الألم والغيظ بل الاشمئزاز، وقد تطلبت هذه المرحلة جهدًا كبيرًا، وتعاونت فيه معنا السفارة السورية تعاونًا فعالاً ومؤثرًا.

أما المرحلة الثالثة: فهو العمل على نقل المبادئ في النشاط والتحرك إلى أيدينا وتمثلت هذه المرحلة في تشجيع الدول العربية على الاشتراك في المعرض التجاري السنوي القبرصي والذي له أهمية لدى القبارصة ويعتبرونه تقديرًا لشخصيتهم الدولية وبالفعل زادت الدول العربية المشتركة من دولة واحدة وهي مصر إلى خمس وأيضا تنشيط جمعية الصداقة العربية القبرصية فأقامت عدة معارض فنية ومعرضا للبريد العربي بالإضافة إلى زيادة نشاطها الثقافي كما ظهرت وطنية الإنسان المصري الأصيل في تطوع بعض الأساتذة وبالعلماء مثل الدكتور بطرس غالي والدكتور صبحي عبد الحكيم والدكتور بدران والدكتور الظواهري وغيرهم من العلماء الأفاضل في الحضور على نفقتهم الخاصة وإقامة مراسم ثقافية ناجحة والأمر الذي كانت الجزيرة تفتقر إليه وتواكب هذا النشاط بتجاوب الكثير من السلطات المصرية مع طلبات السفارة شرحت أيضا لهذه الشخصية الرئاسية الوضع الداخلي بالجزيرة وأن الأسقف ماكاريوس على قمة المتعاطفين مع الحق العربي ومن أشد المؤمنين بسياسة عدم الانحياز نظرا لحساسية موقع الجزيرة الاستراتيجي وأن المصلحة القومية

لشعب الجزيرة تستوجب ألا تغفل قربها للعالم العربي وضرورة تدعيم العلاقات معه في كافة المجالات ولهذا فإن الأسقف يتعرض لمؤامرات للتخلص منه ومثالا على ذلك محاولة اغتياله في فبراير ١٩٧٠ ومحاولة تشجيع بعض الأساقفة في مجلس الأساقفة سحب الثقة في رئاسته للكنيسة القبرصية وكان مخلب هذه المحاولات هي حكومة أثينا العسكرية برئاسة الجنرال بابا دودلوس بل واستمرت في محاولاتها بتمويل وتسليح العناصر المعارضة للأسقف وتهريبها للجنرال جريفاس من اليونان للجزيرة والذى انشق عن الأسقف ماكاريوس في ختام معركة الكفاح واعتبر نفسه كروميل الهيلينية دون مضمون حقيقي أو جاد، كما قامت هذه الحكومة بتعزيز القوة العسكرية اليونانية المرابطة بالجزيرة بحكم الاتفاقيات المنشئة لاستقلالها ليس بهدف الدفاع عنها من عدو خارجي بل لتدعيم العناصر المعادية للأسقف.

واستكملت شرحي موضحًا السياسات الدولية الإقليمية تجاه قبرص ذاكرًا أن موقع الجزيرة الاستراتيجي وقربها لكل الشواطئ الجنوبية لتركيا ولبنان وإسرائيل ومصر وجعلها هدفًا لهذه السياسات وأن الخطورة على مستقبلها الحيادي تزداد يومًا عن يوم موضحًا دوافع هذه الخطورة. فذكرت أنه من الواضح أن سياسة قبرص الحيادية أوجدت ثغرة في الحصار الذي تحاول الولايات المتحدة بالتعاون مع إسرائيل فرضه على الدول العربية والذي يمتد من إسرائيل شرقًا إلى تركيا شمالاً وأوروبا غربًا ولذا فإن حياد قبرص أوجد ثغرة في هذا الحصار وأبقت على خط الاتصال الاستراتيجي بين مصر والشمال العربي والممثل في سوريا ولبنان والأردن والعراق إذ أن البديل لذلك هو الوصول إليهم عن طريق السعودية مع عجز الإمكانيات المصرية المادية لتحقيقه. وأشرت إلى أن القيادة التكتيكية للأسطول السادس قد انتقلت من نابلي إلى بيريه لتكون أكثر قربا من منطقة الأحداث في الشرق الأوسط وأنه لتسهيل تحقيقه أهداف هذا المخطط لابد من خلع الأسقف ماكاريوس وتولى حكم الجزيرة شخصيات أخرى معروفة بميولها الغربية. ولهذا فإننا يجب أن ننظر إلى قبرص نظرة أخرى تتعدى مفهومنا لها بأنها دولة صغيرة أو دولة غير منحازة فحسب بل يجب النظر إليها كنقطة أمن قومي متقدمة.

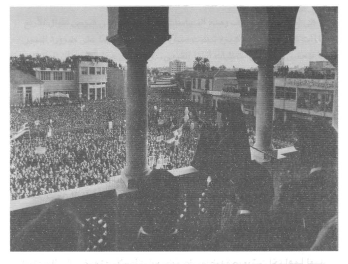
وأنه إذ تولدت لدينا قناعة بهذا التحليل فإن الأمر يستوجب تعاون السلطات المصرية مع السفارة فى هذا المفهوم وتعزيز مكانة ومركز الأسقف ماكاريوس بل وحمايته من هذه المؤامرات. سعدت حقًا بنتائج هذه المقابلة إذ آمنت هذه الشخصية بالتحليل المقدم له ووعدت بوضع كل إمكانياتها ونفوذها لخدمة هذه الأهداف. شعرت بالارتياح فيما بعد باستمرار هذه السياسة إذ لم تتغير بغياب الرئيس جمال عبد الناصر عن مسرح الحياة بل حافظ الرئيس السادات عليها واستمرت طوال خدمتى بالجزيرة حتى إبريل سنة ١٩٧٣.

فى إطار هذه الظروف وهذه السياسات كانت خدمتى فى قبرص طوال الأربع سنوات تواجه تحديات كبيرة تطلبت صبرًا وأناة بل وتصميمًا على ضرورة السير بها لتحقيق جانبًا من متطلبات أمننا القومى.. وأكرر فى هذا الصدد أن العلاقات القوية التى قامت بينى وبين الأسقف ماكاريوس كان لها الأثر الكبير فى نجاحها ولعل بعض الأحداث التى سترد فيما بعد تعطى صورة عملية لما جاء فى العرض السابق.

محاولة الاعتداء على ماكاريوس

فى أحد أيام الآحاد من شهر فبراير ١٩٧٠ كنت مدعوا على حفل غداء أقيم على شرفى فى مدينة كيرينيا على الساحل الشمالى من الجزيرة وتوجهت إليها بصحبة أسرتى قرب الظهيرة وفوجئت بأسئلة ملهوفة من الحاضرين عن نيقوسيا فأجبت بأنها هادئة كأى يوم من أيام الآحاد فزادت دهشتهم حيث إن الإذاعة اليونانية قد ذاعت خبر بفشل محاولة اغتيال الأسقف مكاريوس بإسقاط طائرته الهليوكوبتر. وبالطبع كان هذا الخبر صدمة لى فأنهيت حفل الغداء بسرعة وعدت على عجل إلى نيقوسيا واتجهت مباشرة إلى دار الأسقفية دون تعليمات من الوزارة لأقدم التهنئة بنجاته باسم مصر ورئيسها. حيث إننى كنت متأكدًا أنه لن يحدث اعتراض أو لوم على هذه الخطوة ووجدت القصر غاصا بحشود قادمة لنفس الغرض واضطر ماكاريوس إزاء هذا التواجد الشعبى أن يكتب بيانه الذى سيلقيه على الشعب من غرفة نومه. ولما علم بحضورى استدعانى إلى غرفته ولاحظت أنه يضع على منضدة صورتين إحداهما لعبد الناصر والأخرى لجون كيندى وطمأننى على سلامته شاكرا مبادرة مصر ورئيسها السريعة فى إظهار شعورها الطيب تجاهه.

وخلال الشهر اللاحق لهذا الحادث توالت زيارات السفراء الأجانب للأسقف إما للتهنئة أو لمحاولة التعرف على بعض الأخبار عن المحاولة ومن ورائها



الأسقف مكاريوس يحيى جموع الشعب القبرصى الذى وفد على الأبروشية لتهنئته على نجاته
من حادث الاعتداء عليه

ولكنني خلال هذه الفترة لم أعاود الكرة لزيارة الأسقف بل أخذت أسعى لمحاولة التعرف على أبعاد المؤامرة من معارفي القدامى والذين كانوا على مستويات مختلفة من المجتمع القبرصي.

وأخيرًا طلبت من سكرتير الأسقف تحديد موعد لمقابلته ورجوته أن تكون المقابلة في مكان آخر غير مكتبه حيث لا ثقة لي في أن المكتب مؤمن وبالفعل عندما توجهت لقصر الرئاسة في الموعد المحدد انتظرت في الصالون الملحق بالمكتب وفوجئت بالأسقف بذاته يفتح الباب الفاصل بين الحجرتين ودعاني للدخول وعندما وقفت للسلام عليه ترددت في الدخول فسألني عن حقيقة تخوفي في أمن وسلامة مكتبه فأجبته بالإيجاب يا سيادة الأسقف أنك تحكم قبرص بصفتين.

الأولى: بصفتك رئيس للجمهورية.

والثانية: بصفتك رئيسا لكنيستها.

وواجبك الكنائسي يفترض أن يكون بابك مفتوح لأي فرد وهذا يثير مخاوفي ويجعلني لا أثق حتى في الشخص الذي يقدم القهوة في مكتبك فأمن على قولي وخرجنا إلى حديقة القصر حيث أمضينا قرابة ساعتين تبادلنا فيها الأخبار والمعلومات.

ووجه الأسقف شبهته في شخصية كبيرة من معاونيه وأنه إن لم يكن أحد من عناصرها فهو على الأقل كان على علم بها وفي ختام المقابلة عاد الحديث إلى أمن مكتبه وقال لا ثقة في أي دولة في تأمين مكتبي سوى مصر فهل يمكن مساعدتي في قيام خبرائكم بهذه المهمة لي شكرته على هذه الثقة ووعدته بإبلاغ هذه الرغبة وكان تجاوب السلطات المصرية سريعًا إذ حضرت مجموعة من الفنيين بعد أيام ومعهم أجهزتهم وقادهم ابن الأخت الأسقف ميخاليدسي وهو في نفس الوقت قائد حرسه الخاص من باب خلفي في قصر الرئاسة بعد انصراف الموظفين قرب المغرب قامت المجموعة بواجبها واكتشفت وجود جهاز استماع إلكتروني لا يتجاوز عقلة الإصبع مركبًا على تليفون الأسقف وكم سعدنا

بهذا الاكتشاف لأنه يعبر عن معان كثيرة. منها صدق تصورنا للمؤامرة التى تحاك حول الأسقف وسلامة رأينا بضرورة اتخاذه لوسائل أمن أكثر شدة. ولهذا فسرعان ما طلب الأسقف معاونة مصر فى تدريب بعض الشبان القبارصة المخلصين على التدريب الأمنى فى مصر وتنفذ هذا الطلب بل عندما تعرض لحادث اعتداء آخر عام ٧١ خلال جولة فى قبرص تكرم الرئيس أنور السادات وبعث له بسيارة محصنة ضد الرصاص.

فى أعقاب حادث الاعتداء. نجدة من حيث لا أتوقع

فى يوم الحادث أرسلت برقية إلى الوزارة بها ملخصًا عنه وفى البند الرابع منها ذكرت أن برقية من السيد الرئيس سيكون لها وقعها الطيب على المستوى الشخصى والعام. وبالطبع لم تكن الصحافة على علم بزيارتى للأسقف يوم الحادث والتى قمت فيها على مسئوليتى بتقديم تهنئة الرئيس عبد الناصر. وتوالت على الأسقف برقيات التهنئة من جميع زعماء العالم ولكن لم تنشر عن وصول برقية الرئيس عبد الناصر ومرت ثلاثة أيام دون وصولها مما أثار تساؤل الجميع ولكن جاءت نجدة من حيث لا أتوقع ألجمت الجميع. إذ نشرت الصحف صورة لفتاة مصرية تتبرع بدمها للطيار الذى استطاع رغم إصابته البالغة من إنزال طائرة الأسقف المروحية بسلام.

لم يكن فى قبرص عند وصولى لها سوى ثلاث سيدات هن زوجات لأعضاء السفارة وحوالى خمسين سيدة مصرية يطلق عليهن مجازًا فنانات يعملن فى كباريهات مدن الجزيرة وقد بذلت جهودًا كبيرة لإخراجهن من قبرص حفاظًا على نقاء اسم مصر فى هذا البلد. وبالطبع تيقنت أن هذه الفتاة المصرية هى إحدى هؤلاء الفنانات فطلبت من القنصل إحضارها لكنها ترددت خشية أن أطلب منها مغادرة الجزيرة لكن القنصل طمأنها وجاءت هذه السيدة وفتحت باب المكتب وبلهجة بدائية قالت أنا عملت حاجة غلط يا بيه فكان ردى لا فإذا بها تكرر السؤال بنفس اللهجة لا والنبى لا أنت قايلى أنا عملت حاجة غلط فكلمتها بلهجة هادئة ياستى خشى وصبحى وقولى تحبى تشربى إيه.

ثم وجهت إليها سؤالا عن دافعها للقيام بالتبرع بدمائها فكان ردها معبرًا عن الأصالة المصرية بغض النظر عن مصدرها ومعبرًا عن التصاق المصرى بوطنه أيا كان موقفه ومركزه فى المجتمع إذ قالت يا بيه بلدنا مظلومة ورئيسها مظلوم وبلاد كتيرة بتكرهه لكن ماكاريوس من الناس اللى قليلين اللى بيحبوا مصر ورئيسها وأنا فى شغلتى المهببة دى نفسى أخدم بلدى فمش كتير على أن أدى شوية دم للطيار اللى أنقذ الراجل اللى بيحبنا.

كان الموقف مليئًا بالمشاعر ووجدت نفسى أقول لها تقدرى تقعدى فى قبرص زى ما أنت عايزة كان قصة التبرع على لسان كل فرد بل كان بعض القبارصة يعبرون لى عن خجلهم بأن تكون فتاة غريبة تفكر فيما لم يفكر فيه أحد منهم.

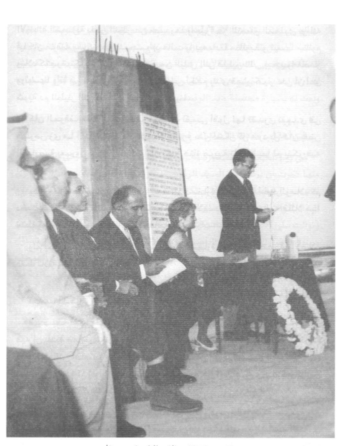
وفى حفل استقبال يبادر أحد أعضاء السفارة الأمريكية أحد الزملاء كم دفعتم لهذه الفتاة لتقوم بهذه البروباجنده ٥ آلاف دولار التفت إليه قائلا هذا منطقكم دومًا تقيمون المشاعر الإنسانية بالدولارات.

ولم يكن هذا الشخص يعلم أن ميزانية السفارة للأدوات الكتابية والأعلام فقط ثلاثة جنيهات فى الشهر.

نصب تذكارى أصبحت حجارته تذكارًا

فى صيف ١٩٧٠ خرجت علينا الصحف بتصريح لوزير التجارة والسياحة ذكر فيه أن بلدية فماجوستا ستبنى نصبًا تذكاريًا لليهود الذين ماتوا فى معسكرات الاعتقال التى أقامتها بريطانيا فى قبرص خلال الهجرات غير الشرعية التى تمت قبل عام ١٩٤٨ وأن هذا النصب سوف يزيد من أعداد السواح الإسرائيليين إلى ٣٠ ألفًا كما ذكر له بذلك السفير الإسرائيلى.

كان هذا الخبر صدمة لنا فهذا النصب أقيم لأفراد ماتوا ميتة طبيعية ولم يكونوا شهداء يستحقون التكريم. وسرعان ما اجتمعت مع السفير السورى لتنسيق العمل لإيقاف العمل فى هذا النصب التذكارى اتفقت معه على أن يطلب



النصب التذكارى الإسرائيلى فى جوسنا

مقابلة الأسقف فى أسرع وقت ممكن لشرح رد الفعل السيئ فى الأوساط العربية لإقامة هذا النصب لشعب اغتصب أرضاً عربية وقتل أبناءها وهو يتقدم للأسقف برجاء لإلغاء هذا الحفل وهذا النصب.

أما بالنسبة لى فسوف أطلب مقابلته بعد إزاحة الستار إما لشكره إذا ما أصدر تعليماته لإلغاء الحفل أو لإبداء عدم الارتياح والاحتجاج إذا ما سمح به.

وقام السفير السورى بمقابلة الأسقف الذى أبدى دهشته لمثل هذا التصرف القبرصى وأنه ليس لديه أى علم به وأنه سوف يبذل جهده لإيقاف الحفل بخصوص هذا النصب.

وعندما قابلت وزير الداخلية أفاد بأن حكومته ليس لها دخل إذ أن النصب التذكارى سيقام على أرض يمتلكها عمدة فماجوستا والذى هو فى الوقت نفسه وكيل لشركة الملاحة الإسرائيلية فى قبرص وأبديت له عدم اقتناعى بتفسيره وأنه بهذا التبرير بالجهل بهذا الموضوع سوف أحمل تمثال الرئيس الناصر وأضعه فى أى مكان دون إذن من الحكومة.

وفى اليوم المحدد أقيم حفل إزاحة الستار وكان الاحتفال هزيلاً ورصده عضوان من أعضاء السفارة بالصور وبعد يومين صدرت الجرائد القبرصية وبها خبر صغير ثلاثة انفجارات فى فماجوستا أدت إلى تدمير نوافذ فرع اتحاد العمال الشيوعى ومكتب الجريدة الشيوعية هارافجى ونسف النصب التذكارى. وبالطبع كانت دهشتنا كبيرة إذ ماعلاقة المؤسستين الشيوعيين. ونصب تذكار إسرائيلى. وبعد يومين قابلت الأسقف وبادرته بأن العرب ليس لهم أية علاقة بنسف النصب التذكارى وما أخشاه أن توجه الدوائر الإسرائيلية الاتهام لهم ولكن بكل هدوء يرد الأسقف ماكاريوس بأنه متأكد تمامًا بأن العرب ليس لديهم يد فى هذا النسف ثم أضاف دعنا نتكلم فى موضوع آخر.

مكاريوس والوحدة مع اليونان

فى عام ١٩٧٢ زادت حدة هجوم المجتمع التركى على الأسقف مكاريوس ويتهمونه بأنه يعمل لتحقيق الوحدة مع اليونان وكان الهدف من ذلك الهجوم هو تبرير انفصالهم عن مؤسسات الدولة القبرصية.

وفى مقابلة مع الأسقف سألته لماذا لا يعلن عن عدم قيامه بأى تصرف يعمل لتحقيق الوحدة؟ رد الأسقف بأنه رغم أنه لا يقوم بأى تصرف يؤدى إلى الوحدة إلا أنه لا يستطيع أن ينكر على المجتمع القبرصى اليونانى حقه التاريخى فى اختيار مصيره لأن الوحدة راسخة فى أفئدة الشعب القبرصى. ثم أعقب قوله بالتساؤل هل هناك زعيم عربى أعلن رفضه للوحدة العربية؟ أجبته بالنفى ثم أضاف بتساؤل آخر وهل هناك زعيم عربى يعمل لتحقيق الوحدة العربية فأجبته برضه لا.

الانقلاب الذى فشل

وفى يوم من شهر إبريل سنة ١٩٧٢، عدت إلى منزلى حوالى الساعة الثالثة والنصف، عندما أخبرتنى السيدة حرمى بأن الدكتور ليساريدس قد حضر إليها راجيا منها أن يقوم كلانا بإقناع قرينته بالإقامة فى دار السفارة حيث إنه قد وصلتهم معلومات مؤكدة باعتزام بعض الضباط اليونانيين مع العناصر المؤيدة للجنرال جريفاس القيام بانقلاب ضد مكاريوس فى ذات الليلة، وأنه مضطر لتركها وحدها فى المنزل إزاء ما يفرضه عليه واجبه القومى، رغم علمها بأنها وزوجها من الأهداف المطلوب تصفيتها أو القبض عليها.

دهشت لسماع هذه الأخبار، ومن أن انقلابا المفروض فيه السرية، قد عرف ويعلن عنه، وأضفت ساخرًا أنه (ناقص أن يقوم التليفزيون بالإعلان عنه وعن ساعة قيامه) لكن لم تمض فترة قصيرة إلا وتلقيت مكالمة تليفونية من أحد الأصدقاء يحذرنى وأسرتى من الخروج فى ذلك اليوم حيث إن هناك أحداثا سوف تقع بالجزيرة.

بدأت فى أخذ الموضوع بجدية وبالفعل توجهت إلى منزل مدير المخابرات القبرصية والذى كان مجاورا لدار السكن وطرقت الباب لكن لم يرد أحد فتوجهت بعدها إلى منزل المستر كبريانو وزير الخارجية وطرقت الباب لكن ما من مجيب. وأخيرا توجهت إلى عيادة أحد الأطباء نتخذها أحيانا مكانا للقاء مع

بعض الشخصيات القبرصية لتبادل الرأى فى الأمور وفوجئت بوجود حرم مدير المخابرات بها والتى طلبت منى وهى منزعجة العودة فورا للمنزل حيث إنه قد وقع فى يدى زوجها على أمر عمليات صادر من مجموعة من الضباط اليونانيين تحوى تعليمات عن انقلاب ضد الأسقف مكاريوس وعن خطط السيطرة على النقاط الحيوية مثل الإذاعة والتليفزيون وهيئة التليفونات ومداخل العاصمة.

وبناء على ما سمعته من هذه السيدة توجهت فورا إلى السفارة حيث قابلت أعضاءها، ووضعنا الترتيبات لتأمينها وعدت إلى دار السكن لتأمينه، ولم يمض من الوقت كثير وإذا بى أفاجأ بحضور الدكتور ليساريدس وبرفقته المستر ميخاليدس قائد الحرس الخاص للأسقف ومعهما جهاز لاسلكى وقال لى الدكتور ليساريدس (طلب منى الأسقف مكاريوس وضع هذا الجهاز فى منزلكم، وهو على نفس الموجة لجهاز آخر يحتفظ به الأسقف، ويرجو أنه فى حالة تطور الموقف سوف يبعث عن طريقه برسالة لاسلكية لتقوم مصر بإذاعتها على العالم، ويؤكد الأسقف أنه يقدر موقفى إذا ما اعتذرت عن قبول هذا الطلب).

لم يستغرق تفكيرى فى الرد عليه ثوانى، وافقت فورا معتزا بهذه الثقة الشخصية، وبالثقة فى بلادى، وأيضا من منطلق أنه لن يكون لى تواجد فى الجزيرة إذا ما نجح الانقلاب، فلن يقبل قادته بقائى فى الجزيرة لعلمهم بالعلاقة القوية التى تربطنى بالأسقف، وأستطيع القول بأننى لعبت على فشل الانقلاب ونجاح الأسقف فى منعه أو احتوائه، وكان رد الدكتور ليساريدس على موافقتى بقوله هذا ما كان يتوقعه الأسقف منك، ثم غادر هو وزميله دار السكن وبعدما يقرب من الساعة. عادا مرة ثانية وبدأ اتصالهما بالوحدات والمجموعات المؤيدة للأسقف وتوجيهها لاحتلال النقاط الحيوية والمعابر والمداخل المؤدية للمدينة. وفى حوالى الساعة الثامنة مساء تهلل وجههما فرحا وبسؤالى عن السبب أجابا بأن جموع منطقة باقوس وهى موطن رأس مكاريوس بدأت فى الوصول إلى العاصمة بسلاحها بل الأعجب من ذلك كانوا مع نسائهم وأطفالهم. ولم ينتصف الليل إلا وكان الأسقفية ما يفوق عن عشرة آلاف مواطن من الشعب القبرصى فشكلوا بذلك جدارا بشريا من المستحيل اختراقه إلا بوقوع ضحايا عديدة سوف تثير العالم أجمع على مدبريه.

وهكذا فشل الانقلاب وعاد الهدوء إلى العاصمة.

اغتيال ممثل منظمة التحرير الفلسطينية

لم تخلو قبرص من الحرب الخفية بين العالم العربى وإسرائيل، حيث إنها جسر لأى منهما كما أصبحت الجزيرة المكان المفضل لالتقاء الأسر الفلسطينية المشتتة بين داخل وخارج فلسطين. ولم تكن السلطات القبرصية تقيم أية عراقيل أمام هذه اللقاءات الإنسانية. الأمر الذى أثار إسرائيل وأخذت تفكر فى وسيلة لتدمير هذا المركز للمقابلات. فلجأت إلى سلاح القتل، لمعرفتها مسبقا بردود فعل العرب والتى إذ نفذت ستزيد من المشاكل التى تواجه نظام مكاريوس وتتولد منها حلقات من العنف ستدفع حكومة الأسقف مكاريوس إلى اتخاذ عدة إجراءات تحجم من النشاط العربى واللقاءات الإنسانية الفلسطينية. وفى أحد ليالى شتاء عام ١٩٧٢ فوجئت العاصمة القبرصية بانفجار عنيف فى أحد فنادقها، وتبين لنا أنه وقع فى غرفة مندوب منظمة التحرير الفلسطينية السيد ناصر وأسفرت عن قتله.

أشعل هذا الحادث مشاعر العرب الفلسطينيين وتوافد فى اليوم التالى مجموعات فلسطينية تطالب بالثأر والقصاص وشعرت بخطورة الموقف وعواقب الحادث فأسرعت بالاجتماع معهم ودارت مناقشات حامية طوال يومين، أحاول خلالها إثناءهم عن عزمهم على الانتقام شارحا المخطط الإسرائيلى، وأننا يجب أن لا نعطيهم الفرصة لزيادة همـوم الأسقف ومشاكل جزيرته وعدم دفعه كمسئول أمام شعبه واستقرار أموره إلى اتخاذ إجراءات تتسبب عنها أضرار بالفلسطينيين، حيث إن البديل لهذه الإجراءات هو اهتزاز مكانة الأسقف وضعف مركزه وهذا ما تسعى إليه إسرائيل أيضا.

وقابلت وكيل الخارجية بناء على طلبه، وأفادنى بعلم حكومته بجهودى فى عدم تحويل الصراع العربى الإسرائيلى على أرض الجزيرة إلى شكل دموى، والذى سيشكل عبئا على حكومتها ومسئوليتها تجاه سلامة أبنائها، وطالبنى بالاستمرار فى السعى حيث إن البديل لذلك سيكون ضررا على العرب ورغم حصولى على وعد فلسطينى بحصر الموضوع والاكتفاء بإظهار مشاعر الغضب بمظاهرة كبيرة

تمر فى شوارع نيقوسيا وأمام السفارة الإسرائيلية. إلا أنه لم يمض أسبوع واحد إلا وأطلق مواطن عربى الرصاص على شخصية إسرائيلية مشتبه فى عمالتها للمخابرات الإسرائيلية فى فندق نيقوسيا بالاس، وأرداه قتيلا. وسرعان ما تحركت السفارة الإسرائيلية وانبرت الأقلام المؤيدة لإسرائيل فى التشهير بالعرب وأبدى المسئولون القبارصة تخوفهم من تطور الأحداث، حتى أن بعض الأفراد من المتعاطفين معنا أبدوا عتابهم على هذا الحادث.

أسرعت لمقابلة وزير الخارجية القبرصى المستر خريستو فيدس وناشدته فى تهدئة الصحافة وشرحت له صعوبة السيطرة على المشاعر العربية وأنه من الواضح أن إسرائيل كانت البادئة فى هذه العمليات الدموية بهدف دفع قبرص لاتخاذ إجراءات أمنية ستؤدى إلى تباعدها عن العرب، وبالتالى زيادة فى عزلة مكاريوس ورجوته فى رفع وجهة النظر هذه إلى الأسقف أملا أن تجد تفهما لحقيقة الأمور.

وبالفعل هدأت الأمور، وقلت الصيحات واختصرت الأقلام فى نقدها، ومرت الأزمة فى سلام ولم تنجح إسرائيل فى تحقيق هدفها.



شقة خاصة جدا لزميل

بعد حوالى أسبوعين من هذا الحادث اتصل بى المستر خريستوفيدس وزير الخارجية على غير العادة الساعة التاسعة مساء لمقابلته فى منزله وعند وصولى أفادنى بأن زميله وزير الداخلية طلب منه الاتصال بى لأخرج الشاب العربى الذى قتل العميل الإسرائيلى من شقة أحد زملائى بالسفارة وأنهم سوف يساعدوننا على إخراجه من قبرص حتى تفادى قبرص انتقال مشاكل النزاع العربى الإسرائيلى إلى أراضيها أبديت دهشتى لهذا الطلب لأننا أولا لا علاقة لنا بهذه الأعمال وأنه لا مانع من أن تتوجه قوات البوليس فورا لمداهمة الشقة ولكنها لن تجد أحدا لأن زميلى قاطن الشقة المشار إليها قد غادر قبرص منذ أربعة أشهر عاود وزير الخارجية الاتصال بزميله وزير الداخلية فأكد له صحة الخبر لكن الشقة المشار إليها هى فى مدينة لارنكا الساحلية وليست فى العاصمة نيقوسيا ولم يكن لدى علم بهذه الشقة طلبت منه الاستئذان للذهاب إلى السفارة للتأكد من صحة معلوماتهم.

استدعيت مندوب الأمن القومى وسألته عما إذا كان لديهم شقة فى لارنكا كما أخبرنى وزير الداخلية فبدت عليه مظاهر الانزعاج وأجاب بالإيجاب وأنها مخصصة لمقابلة عملاء المكتب وأنهم لم يستخدموها منذ ثلاثة أشهر عبرت له عن استيائى من إضفاء صفة السرية على الشقة وأنهم لو كانوا استخدموها مع

باقى أعضاء السفارة وعائلاتهم كمصيف بجوار احتياجهم لها فى عملهم، لما استرعت أنظار باقى سكان العمارة والذين لاشك أنهم أبلغوا البوليس بشبهاتهم أو أن المخابرات الإسرائيلية قد تعرفت على هذه الشقة، واختلقوا قصة العربى الهارب حتى تضطر لإغلاقها عدت لوزير الخارجية والذى سألنى عما توصلت إليه فأجبته ضاحكا (ياسيدى فعلا هناك شقة فى لارنكا كان يستأجرها زميلى الذى سافر لكن المسألة هو أنه متزوج ولكن كانت له صديقة قبرصية كان يلتقى بها سرا بعيدا عن نيقوسيا وعموما فالشقة تحت أمر البوليس القبرصى للتأكد من أن السفارة لا تقوم بأى عمل مخالف للقواعد الدبلوماسية استراح الوزير لهذا الرد واسترحت أنا لتوصلى لهذا الرد رغم أننى اتهمت زميلى ظلما فقد كان من خير الزملاء خبرة واستقامة).

إنه يتكلم الإنجليزية بطلاقة

بذلت الحكومة العسكرية التى كانت تحكم اليونان فى أوائل السبعينيات جهودا كبيرة لإزاحة الأسقف مكاريوس من الحكم، على أساس أن سياسة عدم الانحياز التى يتمسك بها تقف عقبة أمام حلف الأطلنطى فبدأت بمحاولة اغتياله بواسطة وزير داخليته لكن المحاولة فشلت واتبعت ذلك بتهريب جريفاس إلى الجزيرة والذى كان متعاونا مع مكاريوس خلال حركة أيوكا لكن الشعب القبرصى كشف اللعبة ولم يجد جريفاس أى تأييد محلى فلجأت الحكومة اليونانية إلى وسيلة أخرى وهى تقويض شخصية مكاريوس فى الكنيسة القبرصية ولكن قوبلوا الذى شجعتهم على ذلك بسخرية ومهانة من الشعب القبرصى الأمر دفعهم إلى مغادرة الجزيرة أو القبوع فى أحد الأديرة.

وأخيرًا اتجهت الحكومة اليونانية إلى وسيلة جديدة وهى حرمان الأسقف مكاريوس من الشخصيات التى تؤيده لتحرمه من عناصر القوة والتى أسفرت أول مظاهرها عن استقالة وزير الخارجية المستر كبريانو والذى أصبح رئيسا للجمهورية بعد موت الأسقف.

بذل مكاريوس جهودا كبيرة لاختيار البديل لوزير الخارجية لكن اعتذرت كافة الشخصيات تجنبا لأية ضغوط يونانية عليها لكن بدا اسم المستر نيكوس ديمتريو فى الصعود كأقوى مرشح لمنصب وزير الخارجية كان المستر ديمتريو

من أغنياء مدينة لارنكا شخصية مغرورة وكان يتباهى بأنه ملك لارنكا وذو ميول غربية وعندما وصلت لقبرص فى يناير ١٩٦٩ كان وزيرا للتجارة ولكن فى نفس الوقت كان اسمه مقيدا على القائمة السوداء للمقاطعة العربية وبذلت جهدا كبيرا فى رفع اسمه من المقاطعة حتى يستطيع تلبية الدعوة الموجهة له من وزير التجارة المصرى لحضور المعرض الدولى السنوى بالقاهرة.

كنت متخوفا من تعيين ديمتريو وزير للخارجية وشاركنى فى ذلك قطاع كبير من رجال وزارة الخارجية وبعض رجال الصحافة وقبل قيامى بإجازتى سنة ١٩٧١ قابلت الأسقف مكاريوس لمعرفة آخر تطورات القضية القبرصية وسألته عما تم فى موضوع تعيين وزير الخارجية، فأجابنى بأنه يجد صعوبة في الاختيار وإن كان ديمتريو لا يزال فى مقدمة المرشحين. ثم سألنى ما رأيك فيه لبثت فترة لأجد الرد المناسب فقلت له: إنه يتكلم الإنجليزية بطلاقة فابتسم وقال هل هذه كل الصفات الحسنة فى ديمتريو فاستأذنته فى التكلم بصراحة وقلت إننى أتكلم من منطلق أن اختيار وزير خارجية قبرصى هو من صميم الأمور الداخلية ولكن اعتزازى بقبرص وبالأسقف يجعلنى أقول إن الحكومة اليونانية سوف تثير عليك الدول العربية وتتهمك بأن لسياستك وجهين الظاهر منها هو تأييد الحق العربى والباطن هو تعيين وزير خارجية كان فى يوم ما على القائمة السوداء.

كان تعليق الأسقف مختصرا بأنه سوف يعيد دراسة الأمر وبعد شهر تقريبا وصل للسفارة ملخص برقية أرسلتها سفارتنا فى أثينا تقول فيها إن وزارة الخارجية اليونانية استدعت سفيرنا هناك وأفادته بخطة مكاريوس الخادعة بأنه سيعين وزيرا متعاطفا مع إسرائيل ويتاجر معها منذ مدة طويلة لم أتوان فى إبلاغ وزير الخارجية بالنيابة والذى كان أحد المتخوفين لتعيين ديمتريو وطلبت منه إبلاغ الأسقف بمضمون البرقية وبعد يومين ورغم أن الصحافة أكدت على أن ديمتريو سيكون وزيرا للخارجية فوجئ المجتمع بتعيين المستر خريستوفيدس الأمر الذى جعل السفير البريطانى يصرح بدهشته لهذا التعيين إذ أنه فى اليوم السابق للنشر الخبر أرسل لوزارة الخارجية بخبر تعيين ديمتريو وهو الآن فى مركز حرج أمام وزارته.

نهاية مشوار قبرص

استمر عملى فى الجزيرة حتى منتصف إبريل ١٩٧٣، عندما استدعيت للقاهرة للعمل كمساعد لمستشار الأمن القومى السيد حافظ إسماعيل للشئون الخارجية. لكن طوال هذه المدة، لم تتقاعس الحكومة اليونانية العسكرية والجنرال جريفاس من تدبير المؤامرات لخلع الأسقف وأخيرا نجحوا فى يوليو ١٩٧٤ القيام بانقلاب أدى إلى خروج الأسقف من الجزيرة، ونزول القوات التركية على أراضيها واحتلالها لما يقرب من ثلث مساحتها.

ولست هنا فى مجال لسرد أحداثه وتطوراته ولكن بقى لدى اليقين بأن رغم المظاهر المحيطة بالانقلاب. فإن الأسقف سوف يعود يوما ما إلى منصبه حيث إن التوازنات الداخلية والدولية تستوجب إعادته تجنبا لمحاذير أخرى. وبالفعل لم يمض عام ١٩٧٤ إلا وكان الأسقف فى منصبه رئيسا لجمهورية قبرص.

كان الأسقف مكاريوس عظيما فى قيادته، مخلصا لمبادئه، محبا لمصر وشعبا . ولم يكن يضع كرسى الرئاسة هدفا لذاته بل وسيلة لتحقيق قناعاته ومن أهمها ألا تكون قبرص معادية لجيرانها أو تساهم فى تشكيل خطورة على سلامتهم كان مؤمنا بحق هذه الشعوب فى الوحدة والتحرير وبحق الفلسطينيين فى أرضهم.. كان الأسقف شخصية تستحق الاحترام والتقدير. أحب مصر وأحبته. وأذكر ما قاله لى أحد الوزراء القبارصة عن شعوره تجاه مصر، إنه فى يوم وجد متاعب فى اجتماع لمجلس وزرائه فلم يتردد الأسقف بقوله (إن استمر يتم على هذا المنوال سوف أتجه إلى البلد الذى أحبه ويحبنى سأتجه إلى مصر).



مقابلة الوداع مع الأسقف مكاريوس

ألمانيا الديمقراطية
برلين من ١٢/١/١٩٨٠ ـ ١/١٢/١٩٨٤

عقب عودتى من المكسيك، تقلدت منصب وكيل الوزارة ومشرفًا على سبع إدارات. وكان وزير الخارجية فى ذلك الوقت الدكتور **مصطفى خليل** رئيس مجلس الوزراء. وقد تولى منصب الوزارة حتى يستطيع التفاوض مع وزير خارجية إسرائيل بهذه الصفة. وبالطبع نظرًا لانشغاله فى إدارة شئون الدولة والمفاوضات فقد ترك إدارة الوزارة الفعلية للدكتور **بطرس غالى** وزير الدولة للشئون الخارجية.

وبعد التغيير الوزارى، عين الفريق **كمال حسن على** وزير الحربية فى التشكيل القديم، نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرا للخارجية. وبعد أسبوع من تعيينه استدعانى الدكتور **بطرس** والذى أعيد اختياره وزير للدولة للشئون الخارجية وأفادنى أنه قد تقرر تعيينى مشرفًا على مكتبى الوزيرين والتنسيق بينهما بالإضافة إلى مالدى من اختصاصات. كانت هذه الوظيفة حساسة جدًا، إذ بعد أن كان الدكتور **بطرس غالى** منفردًا فى إدارة الوزارة أصبح هناك وزيرًا للخارجية مكرسًا وقته لها لكن كان للباقة الوزير **كمال حسن على** ومرونة الدكتور **بطرس** أثر كبير فى تيسير الأمور بهدوء وتعاون وأحمد الله أننى تركت المكتب لمنصبى الأخير فى خدمتى الحكومية كسفير لمصر فى ألمانيا الديمقراطية والعلاقات بين الوزيرين على خير ما يرام. قبل صدور القرار بتعيينى سفيرًا فى هذا البلد كنت مرشحًا

لتولى سفارة كبيرة، لكن لظروف قوية كانت السفارة من نصيب شخصية كبيرة لها كيانها. وبصراحة لم أشعر بندم لفقدان هذا المنصب إذ أن البديل كان إحدى من هذه السفارات (برلين. كوبنهاجن. دبلن) ولما كانت دراسة ابنتى ألمانية، فقد فضلت برلين عن غيرها ونقلت منصبى فى أول ديسمبر سنة ١٩٨٠، مسلحًا بتأشيرة رئاسية توصى بتنشيط العلاقات مع كل من برلين وبراغ.

وصلت برلين فى أول ديسمبر ١٩٨٠ وهالنى التقدم الذى طرأ عليها. فقد سبق لى أن زرتها سنة ١٩٥٨ وكانت خرابًا لا حياة فيها، ثم فى عام ١٩٦٦ وشعرت وقتها أن هناك محاولات جادة لتحسين أحوال معيشة أبنائها. لكن فى سنة ١٩٨٠ كانت أمامى مدينة جديدة وإن لم تكن مبانيها تتمتع بمسحة من الجمال المعمارى إذ كانت أقرب إلى الثكنات العسكرية ولكنها كانت تفى بالغرض من بنائها والواقع إن مشكلة الإسكان وتجديد المدينة وإزالة آثار الحرب العالمية الثانية كانت الشغل الشاغل للقيادة الألمانية، بل كانت الحكومة تعتبر كما ذكر لى وزير الإسكان أنهم يعتبرون الإسكان مشكلة أمن قومى وهنا أود الإشارة إلى ما كان يردده أفراد المجتمع وهو أن الحلفاء كانوا يتمادون عن قصد تدمير الجزء الشرقى من ألمانيا بحجة مساعدة القوات السوفيتية فى تقدمها لبرلين لمعرفة قيادتها مسبقًا أنها لن تكون من نصيب الغرب ويضربون مثلا على ذلك ما حدث لمـــدينة درســـدن والتى تعرضت لغارة جوية قوامها ألف وخمسمائة طائرة واستمرت خمس عشرة ساعة. وأسفرت عن ثمانين ألف قتيل وجريح بل إن سكانها عندما خرجوا من مخابئهم لم يتعرفوا على مدينتهم.

وفى إطار اهتمامهم بالتعليم الدراسى، فإن الحكومة الألمانية كانت تعمل على خلق مواطن ألمانى يتحلى بصفة الالتزام واحترام العمل وتحمل المسئولية. وأتذكر عندما توجهت مع سكرتير السفارة لإلحاق ابنتى بإحدى المدارس أن وجدت مجموعة من الشباب يقومون بأعمال النظافة فى الحديقة وعندما سألنا عن مكان مكتب ناظر المدرسة تبين لنا أنه كان أحد المشاركين فى النظافة. وفيما بعد علمت أن المدرسة بها ما يقرب من ألفى طالب يخدمها ست عاملات فقط. أما الفصول الدراسية فكانت المدرسة تعين اثنين من طلبة الفصل لمدة

أسبوع يقومان بنظافته وترتيب حجرة الدراسة بعد انتهاء اليوم الدراسى. كما كانت الوزارات المختصة تخصص مصنعًا لكل مدرسة يتجه إليه طلبتها فى يوم من الأسبوع للعمل فيها لمدة أربع ساعات ويوزع العمل وفق سن الطالب أو الطالبة. وكانت ابنتى تبدأ العمل كل يوم أربعاء فى أحد المصانع من الساعة السادسة صباحًا حتى الساعة الحادية عشرة.

ووضعت الحكومة برنامجًا قويًا للممارسة الشعب للرياضة، فكانت تعقد المسابقات السنوية بين المدارس والمؤسسات والأقاليم وكل أربع سنوات تعقد دورة السبارتا كياد والتى تشمل جميع فئات الشعب ومراحل السن. ولذلك لم يكن غريبًا أن هذا الشعب الذى لا يتجاوز تعداده عن سبعة عشر مليونًا أن يكون ثالث بلاد العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى الدورات الأوليمبية. وكانوا يفتخرون بأن عندهم فى ليبزج أقوى وأكبر معهد فى العالم يدرس فيه الرياضة بل يعتبرون أن هذا النوع من النشاط بالنسبة لهم مثل البترول للدول العربية.

ورغم أن هذه الدولة لم تكن تملك من الموارد الطبيعية كالحديد أو الفحم أو القوى الكهربائية إلا أنها احتلت المرتبة الثامنة فى ترتيب دول العالم من حيث التقدم الصناعى. ولم يكن لديهم سوى الفحم النباتى والذى يعطى سعرًا حراريًا لا يزيد عن ٣٠٪ فى السعر الحرارى المستخرج من الفحم الحجرى. أما العلاقات بين مصر وألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية فكانت لها طابع فريد. إذ أن الطرفين لم ينسيا أنهما من أصل واحد وثقافة وتاريخ واحد لكن الظروف السياسية العالمية وخاصة الأوروبية كانت تلقى بظلالها على هذه العلاقة. كانت ألمانيا الغربية تعتبر نفسها هى الطرف الأقوى سياسيًا واقتصاديًا وعلميًا لذلك كانت الكثير من تصرفاتها ترمى إلى تحسين الأحوال فى ألمانيا الشرقية. فكانت مثلا تستورد منها الملابس والأثاث وبعض العدد والآلات الزراعية طبقا لمواصفات معينة كانت مثلاً تدفع سنويًا أربعمائة مليون مارك نظير نقل مخلفات مدينة برلين رغم مالديها من إمكانيات للتعامل معها وبناء على الاتفاق المبرم بين الحكومتين كانت حكومة برلين تسمح بهجرة ثلاثين ألف فرد للغرب أغلبهم



أحد مناجم الفحم النباتى وبه أطول ذراع لونش فى العالم

من المسنين ومن الذين لم يكونوا عاملين فى مراكز حساسة وكانت هناك شروطًا تفرضها حكومة برلين لمن يقوم بزيارة الغرب وهو ألا يحمل أكثر من ٥٠ مارك غربى وأن يقدم خطابًا من الذين سيقومون بزيارتهم بتحمل مصاريف علاجهم إذا ما استدعى الأمر خلال الزيارة.

ولاشك أن الحدود المشتركة بين البلدين ساعدت أبناء المانيا الشرقية عن طريق التليفزيون على متابعة الأحداث فى الغرب ومتابعة التقدم الذى يتمتع به أفراد المجتمع الغربى وكانت ألمانيا الشرقية ترد على هذا الهجوم الإعلامى بعرض أفلام توضح مدى الغلاء الذى يعانيه المجتمع الغربى. ومعاناة الألمانى الغربى فى العثور على وظيفة أو العلاج أو الدراسة وغلاء الإيجارات والمصاريف الدراسية. وهى أمور كانت تدفع حكومة برلين دعمًا لها بحوالى ١٧ مليار مارك سنويا.

وهنا أود الإشارة إلى أن شعوب أوروبا لم تكن تود أن تتوحد ألمانيا لما عانته فيها خلال الحرب العالمية الثانية ومن الغطرسة الألمانية التى كانت تتعامل معهم وأتذكر أن الملحق العسكرى النرويجى ذكر أنه لا يتمنى اليوم الذى يرى فيه ألمانيا موحدة. ولم يكن أحد يتوقع حدوث الوحدة سنة ١٩٨٩ بين الألمانيتين قبل عشرات السنين فكل الظروف تشير إلى استحالة تحقيقها فى الزمن المعاصر.

لذلك كان لتحقيق الوحدة ١٩٨٩ وبتلك السرعة مفاجأة للمجتمع الدولى ولكل من عمل فى برلين. لم تكن هناك أحداث مثيرة فى العلاقات بين البلدين، بل كان هناك عدم تجاوب من السلطات المصرية لمحاولات التقارب الألمانية، وقد يرجع ذلك إلى تخوف المسئولين فى التعامل مع دولة شيوعية امتدادًا للسياسة المصرية فى عهد الرئيس السادات وعند نزولى فى الإجازة السنوية أثرت هذا الموضوع مع الدكتور بطرس غالى والذى وعدنى بزيارة برلين فى خلال الستة أشهر التالية وبالفعل حق وعده، ومن بعدها بدأت العلاقات تتحرك بإيجابية سريعة تمثلت مثلا فى رفع التبادل التجارى بين البلدين من سبعة مليون دولار إلى ما يقرب من ١٨٠ مليون دولار، واستمر المؤشر فى التصاعد فى المدة

الباقية من عملى فى برلين. هذا بالإضافة إلى زيارة تبادل الوفود الرسمية والعمالية . كانت تجربتى فى ألمانيا الديمقراطية ثرية من حيث التعايش مع الإنسان الألمانى فى احترامه لمبدأ الالتزام واحترام العمل بل واحترام الذات.

وأختتم هذه المجالة عن هذا البلد بمحصلة ذكرتها للسيد كمال حسن على عندما نزلت أول أجازة للقاهرة إذ سألنى كيف أرى مصر من الخارج فكان ردى أن مصر لا تعانى من أزمة اقتصادية أو سياسية لكنها تعانى من تخلف فى نظام التعليم وأن التعليم فى بلادنا يفرز فردًا لا يصلح فى دمجه فى أية خطة سياسية أو اقتصادية حتى رياضية ولازلت أؤمن بما قلته.

أحداث فى الداخل
الأحداث الداخلية

فى الفترات التى عملت بها فى ديوان الوزارة فى مصر قابلت العديد من المشاكل، وواجهت بعض المواقف الصعبة، ووجدت أن رصدها كلها ستكون عبئًا على القارئ لذلك انتقيت بعضها.

مؤامرة عراقية:

فى أوائل شهر يونية ١٩٨١ كان السيد الوزير كمال حسن على يقوم بزيارة للدول الإسكندنافية، ولكنه تأخر فى عودته نظرًا لمروره على طبيبه فى سويسرا والذى كان يعالجه من مرض الروماتويد. وفى الوقت نفسه اضطر الدكتور بطرس غالى إلى السفر إلى بعض الدول الإفريقية تلبية لدعوات سابقة وعليه أصبحت أنا مسئولاً عن الوزارة لمدة قصيرة بالطبع.

فى خلال هذه الفترة القصيرة اتصل بى الفريق الماحى - رئيس المخابرات العامة أفادنى أنه بناء على طلب السيد وزير الداخلية، يرجى استدعاء القائم بأعمال السفارة العراقية فى اليوم التالى وإبلاغه أنه أصبح شخصا غير مرغوب فيه، وعليه مغادرة البلاد خلال ٢٤ ساعة هو وسبعة من أعضاء السفارة، حيث إن جهات الأمن اكتشفت مؤامرة بعثية يرأسها هذا الدبلوماسى ضد

الرئيس السادات. أجبته بأنه ليس هناك مشكلة فى استدعائه لكن لابد على ضوء ماتوصلنا إلى معرفة أبعاد المؤامرة والقائمين بها، يجب أن نعطى لأنفسنا فرصة إلى دراسة الموضوع بصورة أشمل إذ أننا لدينا ما يقرب من ٢ مليون مصرى فى العراق ونحن على أبواب موسم الإجازات وليس لدينا سوى اثنى عشر موظفا بالكاد يقومون بخدمتهم بينما فى السفارة العراقية بالقاهرة ما يقرب من خمس وثلاثين عضوًا ولو طردنا سبعة فستكون هناك معاملة بالمثل من قبل السلطات العراقية. ولذلك أرجو الانتظار ثمان وأربعين ساعة لحين وصول السيد الوزير لمناقشة الموضوع .

وبعد ساعة تقريبا اتصل بى السيد وزير الداخلية وسألنى عن سبب اعتراضى على طرد القائم بالأعمال العراقى وضحت له الظروف وأنه يجب أن نعطى لأنفسنا فرصة لمواجهة رد الفعل فكان رده بأن نصرف النظر عن هذا الموضوع ولا داعى لطرد الدبلوماسى العراقى وزملائه.

شكرته ولكن طلبت منه ورقة مكتوبة بالموافقة على هذا القرار فوعد بدراسة الموضوع وتأجيل المناقشة فيه إلى اليوم التالى لكن للأسف لم يعد السيد كمال حسن على من الخارج ومن ثم طلب منى الفريق الماحى تنفيذ طرد الدبلوماسى العراقى وبالفعل تم المطلوب.

وفى نفس اليوم اتصل بى القائم بالأعمال المصرى من الكويت فى تمام السادسة مساء وأخبرنى أنه وسبع من الزملاء غادروا بغداد صباح ذلك اليوم ولم يعد فى السفارة سوى خمسة أعضاء وإزاء ضغط العمل فى السفارة المصرية ببغداد أرادت الخارجية المصرية تعزيزهم لكن رفضت الخارجية العراقية الطلب، وكان إن تعرضت السفارة لاتهامات والضغوط الكبيرة من الجالية المصرية.

مرور السفن النووية فى قناة السويس:

فى أحد الأيام استدعانى الدكتور بطرس وطالب منى ومن مجموعة من الزملاء على رأسهم السفير عمرو موسى التواجد فى مكتبه حيث ستجرى مقابلة

مهمة مع السفير الأمريكي (إيشرتون) ومعه بعض ضباط البحرية الأمريكية لإيجاد حل لمشكلة مرور المراكب الحربية الأمريكية والتى تدار بالطاقة النووية فى قنال السويس، ذكر الدكتور بطرس أن هناك إحدى عشرة هيئة مصرية من الخارجية والجمعية والمحافظات الثلاث وهيئة الطاقة النووية ووزارة الزراعة وغيرها اعترضوا على هذا الطلب لاحتمال أى حدث لأى من هذه المراكب، بل إن الأمر لا يمنع من إطلاق إشاعة كاذبة مغرضة من إحدى الجهات المعادية توحى بأن مخالفات هذه المراكب قد أثرت على البيئة والحاصلات الزراعية والمنتجعات السياحية. وهذا ما سيسبب خسارة كبيرة للاقتصاد المصرى ركز السفير إيشرتون على أن الدافع للطلب الأمريكي يرتكز على أن ثلث مراكب البحرية تدار بالطاقة النووية وليس من المعقول أن تدور هذه المراكب حول القارة الإفريقية لتصل إلى الخليج العربى ومناطق البترول البحرية خاصة فى إطار الظروف الجارية فى ذلك الوقت والتى تميزت بالعداء الإيرانى لأمريكا ومحاصرة سفارتها فى طهران ودارت المناقشات حول كيفية التغلب على هذه النقطة بالذات وأثار الدكتور بطرس أن السماح لهذا الطراز من المراكب سوف يدخل مصر فى مشاكل مع دول أخرى وخاصة الاتحاد السوفيتى والذى سوف يطالب فى حقه فى المرور والذى كفلته معاهدة القسطنطينية سنة ١٨٧٨، خرج الوفد الأمريكي ووعد بإعادة الدراسة لإيجاد حل لهذه المشكلة مشيرًا أن الولايات المتحدة تتوقع بكل جدية أن تتعاون مصر معها.. وبعد ساعة تقريبًا استدعانى السيد الوزير كمال حسن على وأفادنى بأن الرئيس السادات وجد حلاً مرنًا لهذه المشكلة وهو أن تستعين مصر بأطقم خبراء أمريكيين لمرافقة المراكب مع المرشدين المصريين على أن تتكفل الولايات المتحدة بتدريب مجموعات من المصريين على متطلبات العمل على هذا الطراز من المراكب ومن ثم يقومون بهذه المهمة بعد أن يحصلوا على التدريب الكافى.

أول مؤتمر اشتركت فيه

هو مؤتمر تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية فى أديس أبابا سنة ١٩٦٣ أى خلال سيرى فى أروقة قاعة المؤتمرات، قابلت الدكتور محمد فوزى وزيـــر

الخارجية سألنى عن أحوالى فأجابته بصراحة يا معالى الوزير هذا أول مؤتمر أشترك فيه ويجتمع فيه هذا الحشد الكبير من الرؤساء والزعماء ووزراء خارجية إفريقيا ولذلك فإنى أشعر بأنى Half Lost فأجابنى بهدوء وبابتسامته المعروفة احمد ريك ده أنا فى أول مؤتمر اشتركت فيه كنت Completely Lost.

تحرك سريع للدكتور محمود فوزى

فى مؤتمر وزراء خارجية الدول الإفريقية والذى عقد فى مايو عام ١٩٦٣ باديس ابابا تمهيدًا لمؤتمر القمة الإفريقى الأول والذى خصص لوضع قواعد وأسس منظمة الوحدة الإفريقية، فوجئ المؤتمر بوزير خارجية سيراليون المستر كاريفا سمارت وهو يشن هجومًا على بعض زعماء إفريقيا مشككًا فى قدرتهم على التصدى لمشاكل القارة وعلى نجاحهم فى تحقيق الوحدة، بل إن تصرفات بعض الزعماء هى لإرضاء نزعاتهم الشخصية.

ثم ركز هجومه دون أن يشير بالاسم . على الرئيس عبد الناصر قائلاً بأن هناك فى شمال القارة من يسعى للزعامة والسيطرة على القارة وخلق إمبراطورية لبلاده.

كان لهذه الكلمة وقع الصدمة على المشتركين فى المؤتمر ومرت لحظة سكون عجز فيها وزير خارجية إثيوبيا عن كيفية التصرف، ولكن أخرجه من هذا المأزق الدكتور محمود فوزى إذ طلب الكلمة، فاستجاب له عمسى أن تستطيع خبرته الدبلوماسية الخروج منه.

وبدأ الدكتور فوزى يتكلم بهدوء، وأوضح أهمية هذا المؤتمر وأهمية الأهداف التى يسعى إليها، مبينًا أنه لأول مرة فى تاريخ القارة الإفريقية تقرر شعوبها مصيرها بنفسها وتعبر عن إرادتها بقرارات تنبع منها وليس من العواصم الأوروبية. وأضاف أنه مما لاشك فيه أن الدول الاستعمارية لا ترضى بهذا التطور الذى سيسلبها مزايا السيطرة والاستغلال والاحتكار. وأنها سوف تلجأ إلى كل وسيلة لإفشال هذا المؤتمر والمنظمة وإثارة الفرقة بين زعمائها، ومن

بين هذه الوسائل دفع شخصيات تثير البلبلة وتتهجم على رموز إفريقية دون مبرر، وأنه من واجبنا الكشف عن هذه الشخصيات والتصدى لها.

قوبلت هذه الكلمات بتصفيق حاد وأسقط فى يد كاريفا سمارت والذى أخذ يصيح أنه لا يقصد مارمى إليه الدكتور فوزى وأنه يأسف لما بدر منه وساء فهمه، ثم اندفع إلى الدكتور فوزى وبأعلى صوته قدم له اعتذاره.

كان تحرك الدكتور فوزى السريع ليس ردًا على كلمة كاريفا سمارت فحسب، بل قطع خط الرجعة على شخصيات أخرى عرف عنها بالعمالة، فلم يسمع بعدها صوت نشاز للتيار المتدفق بضرورة قيام الوحدة الإفريقية ونجاحها.

العين بالعين

فى مارس ١٩٥٧، اغتيل السفير كمال الدين صلاح المندوب المصرى فى المجلس الاستشارى المعين باسم الأمم المتحدة للصومال. ورغم أن التحقيق لم يصل إلى النتيجة إلا أن أصابع الاتهام كانت تشير إلى الإدارة الإيطالية. فأمر الرئيس عبد الناصر السيد محمد فائق بالتوجه إلى الصومال لدراسة الأحوال هناك ومتابعة التحقيق.

وقام السيد فائق بمهمته بنشاط ملحوظ، وتعددت لقاءاته مع كافة التيارات والجماعات الصومالية، الأمر الذى أدى بالإدارة الإيطالية أن تطلب من محمد فائق مغادرة الصومال فى غضون ٤٨ ساعة على أساس أنه شخصية غير مرغوب فيها.

وعندما وصل الخبر إلى القاهرة، استدعت وزارة الخارجية السفير الإيطالى بالقاهرة، وأخطرته بأنه شخصية غير مرغوب فيها وعليه مغادرة القاهرة خلال ٢٤ ساعة، ولما أبدى دهشته لهذا القرار والاتهام المفاجئ وأنه لم يقم بأى تصرف يبرره، كان الرد عليه أن هذا القرار هو رد لإبعاد الإدارة الإيطالية للسيد محمد فائق.

ولم تمض أربعة وعشرون ساعة حتى قدمت الحكومة الإيطالية اعتذارها وسحبت الإدارة الإيطالية قرار الأبعاد، وبقى السيد فائق يمارس واجباته.

والسن بالسن

فى أوائل عام ١٩٦٠ كلف المستشار عبد العزيز إسحاق بالتوجه إلى الكونغو للاتصال بالحركة الوطنية والتى كان يتزعمها الرئيس لومومبا وكانت خطوط الطيران فى ذلك الوقت محدودة واضطر المستشار إسحاق إلى استخدام خطوط شركة الطيران الإثيوبية إلى أديس أبابا ثم منها إلى نيروبى حيث سيستقل طائرة شركة طيران جنوب إفريقيا إلى جوهانسبرج ومنها إلى ليوبولدفيل (كينشاسا) عاصمة الكونغو وعندما وصل إلى نيروبى وكانت لا تزال تحت الاستعمار البريطانى، وجد أن لديه ١٠ ساعات لحين موعد قيام الطائرة المتجه إلى جوهانسبرج، فتقدم إلى ضابط الجوازات بالمطار وكان بريطانيًا وطلب منه تأشيرة مؤقتة أسوة بغيره من الركاب حتى يستطيع عمل جولة قصيرة فى نيروبى. فتهجم عليه الضابط قائلا «مصرى، بل وحامل جواز سفر دبلوماسى يريد دخول نيروبى، على جسدى لو حصل ذلك». فلما أراد المستشار إسحاق مناقشته عن سبب هذا التعنت هدده بأنه إن تكلم كلمة واحدة أخرى سوف يعيده على نفس الطائرة التى قدم عليها إلى نيروبى فآثر المستشار إسحاق السكوت حتى لا يتعطل عن تكملة مهمته وعندما وصل إلى السفارة المصرية فى جوهانسبرج أرسل برقية لوزارة الخارجية بما حدث له فى مطار نيروبى.

كان الرد المصرى سريعًا ومناسبًا بل وحازمًا. إذ أرسلت وزارة الخارجية إلى كافة السفارات والقنصليات بعدم منح أى نوع من التأشيرات لحملة جوازات السفر البريطانية الدبلوماسية قبل الرجوع إلى القاهرة والتى قد تطلب وقتًا للموافقة عليها.

ولما كان الموقع الجغرافى للقاهرة يشكل نقطة حساسة ومهمة لتحركات الدبلوماسيين البريطانيين للشرق العربى وآسيا وإفريقيا فقد بدأ الارتباك على هذه التحركات، الأمر الذى جعل الخارجية البريطانية تطلب من سفيرها بالقاهرة الاتصال بالخارجية المصرية لمعرفة دوافع هذا القرار المصرى وكان الرد المصرى شارحًا لما حدث للمستشار إسحاق فى نيروبى .. هذا ما دعى وزارة الخارجية البريطانية أن تطلب من سفيرها الاعتذار للخارجية المصرية

مؤكدة أن تصرف الضابط البريطانى هو تصرف شخصى وليس بناءً على سياسة رسمية، بل ولزيادة التأكيد على هذا التبليغ فإنها ترحب بالمستشار إسحاق لو عاد مرة أخرى إلى نيروبى ويطلب تأشيرة من المطار إذ سوف يجد كل ترحيب ومعاونة.

وبناءً عليه أصدرت الخارجية المصرية تعليماتها للمستشار إسحاق بإلغاء رحلته إلى الكونغو والعودة فورًا إلى مصر عن طريق نيروبى وأن يطلب تأشيرة دخول مؤقتة.

قام المستشار إسحاق بتنفيذ هذه التعليمات والتوجه إلى نيروبى وتصادف أن الضابط المناوب فى جوازات المطار كان هو نفس الضابط الذى منعه من قبل. ويقول المستشار إسحاق أنه قبل أن يتقدم للضابط طالبًا تأشيرة خروج بل كان يلح بإصرار، الأمر الذى جعل المستشار يقول له «اتركنى أتناول غدائى فى هدوء وسلام وأنا فى غنى عن تأشيرتك هذه المرة لضيق الوقت» وهنا قامت وزارة الخارجية المصرية بإلغاء قرارها سالف الذكر.

يوم ٢١ أكتوبر ١٩٧٣ يوم إيقاف الضرب

فى يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٧٣ قام كيسنجر بزيارة للاتحاد السوفيتى وأعلن أنه بعدها سيتوجه إلى الصين الشعبية وذلك للتوصل إلى حل لإيقاف الضرب بين إسرائيل والدول المحاربة لكنه خرج من المفاوضات مع الاتحاد السوفيتى والتى وصفها بأنها كانت صعبة جدا ومتشابكة وأنه مضطر للبقاء فى موسكو لجولة أخرى من المفاوضات.

فى ذلك اليوم أصدرت القيادة العامة المصرية بيانا حربيا مبشرا بالخسائر الفادحة التى ألحقتها قواتنا المسلحة بالجيش الإسرائيلى الموجودة فى الثغرة. وبعد انتهائنا من العشاء توجه كل منا إلى مركز عمله. وفى الساعة الثانية صباحا. أخبرنى الزميل أحمد ماهر بأنه يشعر أننا سنوافق على إيقاف الضرب حيث إن السيد أشرف مروان دخل حجرة نوم السيد حافظ إسماعيل وأنه سمعه

ثائرًا يكلم نفسه عن إيقاف الضرب. وبالفعل نزل السيد إسماعيل متجهًا إلى قصر الطاهرة حيث مركز قيادة الرئيس انور السادات خلال الحرب وطلب من أحمد ماهر استدعاء موظف من مكتب C.I.A الملحق بالسفارة الأمريكية.

بقينا فى مكاتبنا منتظرين ما سيفسر عنه لقاء السيد إسماعيل والذى عاد فى حوالى الساعة الرابعة صباحا ولكنه اتجه إلى مكتبه مباشرة وبعد قليل سلم مندوب C. I. A برقية ليرسلها للمستر كيسنجر فى موسكو تفيده بقبول مصر لإيقاف الضرب.

جاءنى الأخ ماهر مستاءً لما حدث ووقفنا فى حديقة قصر الحرية حيث توجد مكاتبنا. وأبديت له دهشتى من أن تقوم بإرسال هذه برقية فى هذا الوقت المبكر وإننا لم ننهار بالشكل الذى لا يجعلنا الانتظار حتى بزوغ الصباح.

وبعد قليل نزل السيد حافظ إسماعيل وأخذ يحلل الموقف وذكر أن مادامت المعركة ستنتقل إلى الميدان السياسى والدبلوماسى فإنه يجب أن يكون بجوار السيد الرئيس مجموعة من الخبراء وعلى رأسهم الدكتور فوزى لمساعدة الرئيس فى اتخاذ القرارات الحيوية. وفى حوالى الساعة السادسة صباحا تحرك السيد إسماعيل لتنفيذ ما أثاره.

لكننا شعرنا بعد ذلك بأن هناك فى الأمر شيئًا، إذ وجدنا فى مثل هذه الظروف الحرجة والحساسة أن السيد إسماعيل لم يتوجه إلى قصر الطاهرة كما هو مفروض وبعد يومين توجهت إلى سيادته لأفيده بأن التقارير تفيد أن إسرائيل تواجه مقاومة بطولية فى السويس وجبل عتاقة والأدبيه، لكن فوجئت بالسيد إسماعيل يلتفت لى ويقول إن هناك عيال فى البلد فأجبته بأن هذا شىء طبيعى فهم موجودون فى كل موقع وعلى كل مستوى فذكرنى بما قام به من طوافه على بعض الشخصيات ليكونوا قريبين من السيد الرئيس. ثم أضاف بأن البعض منهم أفهم الرئيس بأن حافظ إسماعيل يجمع فكرًا معارضًا والبعض الآخر قال للسيد الرئيس ما كان يود أن يقوله ولكن على لسان حافظ إسماعيل.

وفى اليوم التالى وضح للسيد الرئيس حسن نية حافظ إسماعيل وإخلاصه وانتهت الأزمة.

برقية غامضة من الرئاسة السوفيتية

فى اليوم الأول من حرب أكتوبر حققت كل من مصر نجاحا بارعا فى عبور قناة السويس وبداية تدمير خط بارليف أما على الجبهة السورية فقد استطاعت القوات السورية من استرداد ما يقرب من ٨٠٪ من الجولان وفى مساء يوم ٧ أكتوبر طلب السفير السوفيتى مقابلة السيد الرئيس انور السادات وأفاده بأن القيادة السوفيتية تلقت برقية غامضة من الرئاسة السورية تتساءل فيما ماذا يستطيع الاتحاد السوفيتى القيام به إذا ما استطاعت العسكرية الإسرائيلية استعادة قوتها بدت الدهشة على الرئيس السادات بأن لم يتلق أى أخبار بهذا المعنى من الرئاسة السورية وتساءل هل تقصد سوريا إيقاف الضرب وهو أمر لا يمكن الموافقة عليه.

فى يوم ٨ أكتوبر استعادت القوات الإسرائيلية جانبًا كبيرًا مما استولت عليه سوريا. وفى الوقت نفسه عاودت سوريا إرسال برقية مثل البرقية السابقة . عاد السفير السوفيتى فى القاهرة لمقابلة السيد الرئيس الذى ثار على غموض هذه البرقية وكان رده حاسمًا أنا لن أوافق على إيقاف الضرب إطلاقا ولو اتفقت عليه سوف يوجه جنودى أسلحتهم تجاهى وليس تجاه إسرائيل.



مواقف مع الجانب الإسرائيلى

كانت أول مقابلة لى مع الجانب الإسرائيلى كانت مع سفير إسرائيل الياهو بن اليسار، كان معروفا عنه طابع الغطرسة نظرًا لمكانته عند المستر بيجين وأن كفاءته رشحته أن يكون أول سفير لإسرائيل فى بلد عربى ويستوجب دواعى العمل أن يتعرف السفير على الشخصيات التى سيتعامل معها خاصة تلك التى تعمل فى وزارة الخارجية ومن ثم طلب ابن اليسار موعدًا لمقابلتى فحددت له الميعاد وفى الموعد المحدد دخلت على فى مكتبى سكرتيرتى وهى تبكى بشدة فتصورت أنها فقدت عزيزًا عليها. ولما سألتها عن السبب قالت السفير الإسرائيلى وصل. فكان ردى عليها، علينا أن نقوم بواجبنا فوق أى اعتبار ودخل السفير مزهوًا بنفسه وبدأ الحديث بأن يجب بذل الجهود فى كافة الميادين حتى نستطيع أن نحقق ما هدفت إليه معاهدة السلام. كان ردى أن الجانب المصرى يبذل جهده لكن أود أن أوضح أن سياسة المستر بيجن تخلق جوا يسمح للعناصر اليهودية المتطرفة ممارسة سياستها وضغوطها فوجئت بقوله إنه يحتج ولا يقبل أن يقال هذا عن رئيسه. سألته إن كان يود كتابة احتجاجه فى مكتبى أو يؤجله لحين عودته لمكتبه فقال هنا وسأرسله إلى السيد وزير الخارجية.

وهكذا انتهى أول لقاء مع شخصية إسرائيلية باحتجاج كتابى.

حدث إن جاء وفد برلمانى إسرائيلى يشمل جميع الاتجاهات الحزبية وصاحب الوفد عدد كبير من الصحفيين التابعين لأحزابهم. وقبل بدء المفاوضات مع السيد كمال حسن على طالب الصحفيون المصريون مساواتهم مع نظرائهم الإسرائيلى الذى تمسكوا بتأييد من أعضاء الوفد بالجلوس داخل حجرة المفاوضات فتوجهت بسرعة إلى قاعة المفاوضات وطالبت بأن من ليس له صفة برلمانية التفضل بالخروج من القاعة. لكن لم يحدث تجاوب إطلاقًا، وضحت أن المفاوضات لها صفة رسمية وعليه فلن تبدأ إلا بعد جلاء الصحفيين. والحمد لله تم المطلوب لكن تمشيًا مع المنجهية الإسرائيلية احتج السفير على موقفى والذى وصفته بالتعنت.

وفى صيف ٨١ حضر إلى مصر وفد مكون من ثلاثة وزراء من أحزاب الائتلاف ومعهم سكرتير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية وكان كل وزير يريد أن يكون نجم المفاوضات لتعزيز مركز حزبه. وإزاء هذا التفاخر تم الاتفاق بينهم أن يتولى سكرتير وزارة الخارجية عرض وجهة النظر الإسرائيلية.

بدأ هذا السكرتير كلامه وتمشيًا مع الأسلوب الإسرائيلى وهو إرباك الطرف الأخر فى بداية المفاوضات، قال إنه قبل بداية المفاوضات فإن لديه ملاحظة وهو أن الوفد المصرى يشمل بعض الـ«فهمست» نسبة إلى الوزير إسماعيل فهمى والذى استقال احتجاجًا على الزيارة للقدس. أسرع وزير الخارجية المصرية بالرد عليه بعنف بأنه لا يقبل مثل هذا الكلام لأن أعضاء الوفد المصرى كلهم مصريون يعرفون واجباتهم. بعدها استمر السكرتير الإسرائيلى فى سرد وجهة نظر إسرائيل لكن لوحظ أنه يفرض على مصر التزامات بقوله قبل كل نقطة على مصر.. المفروض.. أنكم تقوموا ب.. أوقف الوزير المصرى المحادثات لدراسة هذه النقط ثم استمرت المحادثات فى جو عاصف ولم يصل الطرفان إلى اتفاق فى أى من النقط ورغم أن الوفد المصرى كان واضحًا فى ردوده ألا أن الجانب الإسرائيلى اتهمه بعرقلة السلام وإثارة المصاعب أمام التطبيع بين البلدين.

إسرائيل ومعرض الكتاب سنة ١٩٨١

فى يناير ١٩٨١ تلقيت مكالمة من القائم بالأعمال الإسرائيلى يطلب فيها مقابلة عاجلة ومهمة وذلك بناءً على تعليمات من المستر بيجين. وفى خلال ساعة حضر لمكتبى وأخبرنى بأن سفيره فى إجازة وأنه سيصل القاهرة الليلة بناء على تعليمات المستر بيجين رئيس الوزراء وفى الوقت نفسه يطلب تحديد موعد للسفير فى اليوم التالى مع السيد وزير الخارجية. وأكمل حديثه بأن سبب هذه التعليمات هو الاحتجاج على رفض مصر لطلب إسرائيل فى الاشتراك فى معرض الكتاب.

أبلغت السيد الوزير كمال حسن على بمحتوى ما سمعته فحدد موعدًا لمقابلة السفير فى اليوم التالى فى تمام الواحدة ظهرًا فى مبنى وزارة الخارجية بالجيزة. وطلب منى الاتصال بالسيد صلاح عبد الصبور رئيس الهيئة العامة للكتاب والمشرفة على المعرض. لمعرفة جوانب الموضوع قمت بمقابلة السيد عبد الصبور فذكر لى أنه لم يرفض اشتراك إسرائيل ولكنها هى التى تأخرت فى الرد بالاشتراك بأحد الأجنحة المخصصة للدول فى الموعد المحدد لذلك، وأنه لو استثناها فسوف يغضب بعض الدول التى تم رفضها لتأخرها فى الرد. أجاب أن هناك منفذا آخر لاشتراك إسرائيل فى المعرض وذلك الاشتراك عن طريق دور النشر. ثم أضاف أنه حمد ربه لعدم وجود حجية قانونية لاشتراك إسرائيل لأن هذا سيجنب المعرض لمشاكل عديدة مع الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية والتى ستشترك فى المعرض لأول مرة، وأنه يخشى أن يكون المعرض ميدانا لصراع عربى إسرائيلى. عدت للوزارة وأخبرت السيد الوزير بمحتوى المقابلة. وفى اليوم التالى تمت المقابلة مع السفير الإسرائيلى وأخذ الوزير يدافع بقوة عن موقف مصر الإضافة أن الأمن له صوت مسموع مؤثر فى مثل هذه المواضيع.

لكن لم تكد تمضى دقائق على الساعة الواحدة، حتى أخبرنى قسم الاستماع فى الوزارة بأن راديو إسرائيل أعلن عن موافقة الرئيس السادات على اشتراك إسرائيل فى المعرض. أسرعت بإفادة السيد الوزير والذى استطاع بلباقة أن

يوجد مخرجا للهجته وحججه الأولى بأن وزارة الخارجية ستسعى بقدر الإمكان على إقناع جهات الأمن بالموافقة على اشتراكهم.

اتصلت بالسيد مدير مكتب وزير الإعلام عسى أن يفيدنى عما حدث من تطورات أدت إلى تغيير موقفنا. أمهلنى بعض الوقت ثم اتصل بى قائلا بأن السيد أنيس منصور اتصل بالسيد الرئيس وحصل منه على الموافقة. ولما أردت التأكد شخصيًا من السيد أنيس منصور حصلت على رقم تليفون سيارته، واتصلت به عما إذا كان خبر الاشتراك صحيحًا. أجاب بأن بعض الكتاب الإسرائيليين اتصلوا به والذين أبدوا دهشتهم من موقف مصر رغم وجود معاهدة بينهما وأنه أى السيد منصور لا يرى ما يمنع من التجارب مع رغبة هؤلاء الكتاب ومن ثم اتصل بالسيد الرئيس وأخذ موافقته.

وفى يوم الافتتاح حدثت مصادمات بين المتظاهرين والفلسطينيين وقوات الأمن التى كانت تقوم بحراسة جناح إسرائيل، وتحققت مخاوف صلاح عبد الصبور.

وأود أن أضيف، أنه قد نشر فى إحدى الصحف اليومية بمناسبة افتتاح معرض الكتاب لعام ٢٠٠٨، أن السيد عبد الصبور قد تعرض لهجوم ومقاطعة بعد الأدباء تصوروا أنه كان المسئول عن اشتراك إسرائيل فى المعرض. وبكل أمانة أبرئ المرحوم السيد عبد الصبور من هذه التهمة.

ما وراء انتقال حافظ إسماعيل للخارجية

أثار انتقال السيد حافظ إسماعيل من القوات المسلحة ١٩٦١ إلى منصب وكيل وزارة الخارجية دهشة كبيرة فى أوساط القوات المسلحة، إذ أنه كان من الضباط الأكفاء والجادين فى أداء واجباتهم. وكانت كفاءته سببًا فى أن يتولى وظيفتين مهمتين فى وقت واحد، وهما إدارة العمليات ومدير مكتب المشير.

وفى جلسة خاصة معه سألته لماذا ترك الجيش وجاء لوزارة الخارجية. أجاب بأنه لاحظ أن كثيرًا من قراراته تعرضت للتغيير من قبل المقدم شمس بدران

وهو الأمر لا يمكن السكوت عليه فتوجه السيد المشير عامر وقدم شكواه وأضاف بأنه إذا طلب منه عدم الاعتراض على تصرفات شمس بدران فليعين وزيرًا للحربية وهنا يقبل بحكم القواعد والتقاليد العسكرية الالتزام بما يقرره وزير الحربية.

كان المشير عامر فى معركته مع عبد الناصر فى سيطرته على القوات المسلحة يحتاج لمناصرة شمس بدران لكن فى الوقت نفسه لا يستطيع إغباط حق السيد حافظ إسماعيل فيما تعرض له. فتمسك بشمس وطلب من الدكتور فوزى وزير الخارجية وقتئذ قبول حافظ إسماعيل فى منصب وكيل الوزارة وكان انتقاله للخارجية قفزة ملموسة فى أداء الوزارة وتغطية المطلوب منها فى الخارج.



فى
خدمة حضرة صاحب الجلالة الملك

مقدمة

معالجة سير الشخصيات وخاصة التاريخية منها ليس لها نهاية، فحتى اليوم ورغم مرور مئات بل وأحياناً آلاف السنين تخرج دور النشر كتبا عن شخصيات لها أهميتها فى مجرى التاريخ ومصائر الأمم كرمسيس الثانى أو الإسكندر أو عمر بن الخطاب أو نابليون، حيث إنه يظهر ما يستجد من حقائق تاريخية أو تقديم الكاتب أو المؤرخ لفكرة جديدة فى تحليل تلك الشخصية والظروف التى عاش فيها والأحداث التى أثرت على تصرفاته وأعماله.

وشخصية الملك فاروق والتى عاصرها الكثيرون منا، تناولتها كتبا عديدة، تناولت أغلبها تصرفاته الشخصية أو دوره فى الحياة السياسية، وركزت على مظاهر السلبية فى هذا الدور، الأمر الذى أدى إلى تراكم روح الاستياء منه بل تزايدت رغبة الشعب فى الخلاص منه وانتهت بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

وفى هذا العرض الذى سأقدمه سأحاول تجنب الخوض فى النواحى السياسية البحتة بل وأيضا فى بعض النواحى الشخصية خاصة التى أخذت حيزا أكبر من حقها لكن سأبذل الجهد فى التركيز على تطور هذه الشخصية وهى مستقاة عن مشاهدة حقيقية ومعاشرة وثيقة نتجت عن تواجد من سنة

١٩١٥ حتى ١٩٥٢ فى خدمة القصر الملكى حيث إن بعضها كانت من أحاديث والدى اللواء شعراوى والذى خدم فى السراى من أول يناير ١٩١٥ كضابط فى حرس السلطان حسين كامل ثم إستمر مع الملك فؤاد والملك فاروق حتى ٢٠ أغسطس ١٩٤٣ أى ما يزيد عن ثمانية وعشرين عاما ما بين ضابط فى حرس الملك أو ياورا له. ورغم أن جهده كان محصورا فى الواجبات العسكرية التى كان مكلفا بها إلا أن هذا لا يعنى إغفال عينيه عن مشاهدات رواها لى كل قصة فى ظروفها. كذلك لم يشكل خروجه فصلا كاملا أو انقطاعًا عما يحدث فى السراى بل بقيت له صلات شخصية بزملائه رؤساء ومرؤسين وأيضا بحكم منصبه الجديد فى الجيش.

ولم تمض خمس سنوات على خروجه حتى التحقت أنا فى أول عام ١٩٤٨ ضابطا بالحرس الملكى حيث استمرت خدمتى به لآخر عام ١٩٥٢، ولهذا فإنى أعتبر أن علاقتى بخدمة السراى كانت مستمرة، ولم يكن هذا الفاصل الزمنى مؤثرا على مشاهداتى ومعاصرتى للتطورات التى مر بها الملك فاروق، بل بالعكس ساعدنى فى إظهار الفرق فى شخصيته عندما تولى الحكم ويوم تنازله عن العرش.

وأختم هذه المقدمة بأن أقرر أننى لا أصدر حكما عاما وقاطعا على فاروق، بل أترك للقارئ أن يحدد رأيه فى الجانب الذى يروق له ووفق ما يمليه عليه عقله أو تميل إليه مشاعره.

تقديم تاريخى

عندما جاء محمد على لمصر كأحد أفراد الحملة العثمانية لطرد نابليون منها سنة ١٨٠٠، لم يكن يحلم أن هذه الولاية ستخضع له فى المستقبل. ولكنه استطاع بذكائه ومناوراته أن يجعل الشعب المصرى يطالب الباب العالى بتنصيبه واليا عليها. ثم استطاع بجهده وبخروجه من دائرة الحصار الحضارى الذى فرضته الإمبراطورية العثمانية على ولاياتها أن يقاطعها ويستخلص منها فرمانا سنة ١٨٤١ بحصر حكم مصر فى أسرته.

وبعد تولى حفيده إسماعيل الحكم سنة ١٨٦٢، استطاع بدهائه وعن طريق الهدايا والرشاوى أن يحصل على فرمان عالى سنة ١٨٦٦ يجعل الحكم محصورا فى أكبر أولاده ثم أكبر أولاده وهكذا، وقد أنجب إسماعيل باشا ثمانية من الأولاد وكان أصغرهم البرنس أحمد فؤاد، والذى قضى أغلب عمره فى صباه وشبابه فى المنفى مع والده فى إيطاليا. وبعد تخرجه من الكلية الحربية الإيطالية عين ضابطا فى حرس ملك إيطاليا. فلا غرو أن تنشأ علاقة عاطفية ليس فقط بين البيت الملكى الإيطالى والمصرى بل أيضا مع كل ما يمت لإيطاليا من ثقافة وحضارة وشعب.

وفوق ما جاء فى فرمان الولاية لما بعد إسماعيل، لم يكن لدى فؤاد أى أمل فى الجلوس على عرش مصر.. إذ أن الخديو توفيق وهو الابن البكر لإسماعيل

تولى الحكم سنة ١٨٧٩ ثم خلفه ابنه البكر عباس حلمى الثانى سنة ١٨٩٢ والذى أنجب بدوره ولى عهده الأمير عبد المنعم وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى نفت السلطات البريطانية الخديو عباس وحرمه وذريته من تولى عرش البلاد. وبعد لأى ومشاورات عينت السلطة البريطانية العم الأكبر لعباس وهو حسين كامل سلطانا لمصر.

أما البرنس فؤاد فقد ضاع منه الأمل فى تولى عرش مصر لما سبق ذكره، وإن كان هذا لا يخفى رغبته فى أن يكون ملكا على أى بلد بأى ثمن.. فعندما قامت الحرب التركية الإيطالية سنة ١٩١١، واستولت فيها إيطاليا على ليبيا، تكون لديه تصور أن علاقاته القوية مع إيطاليا ستكون شفيعة له لتحقيق رغبته فى أن يكون ملكا على ليبيا، لكن إيطاليا لم تتجاوب معه إطلاقا رغم معرفتها بميوله ومشاعره الطيبة تجاهها، وذلك خشية أن تتغلب روابط القرابة والدين بين الملك فؤاد والدولة العثمانية على مصلحة إيطاليا وعلى دوام استقرار مركزها فى ليبيا.

ثم أتيحت له الفرصة مرة أخرى عندما قامت حروب البلقان سنة ١٩١٣ إذ أبدى فؤاد صراحة رغبته فى أن يكون ملكا على ألبانيا، وأن جذوره الألبانية خير شفيع له فى تولى هذا المنصب، لكن الدول الكبرى وخاصة النمسا لم تقبل الفكرة لنفس الأسباب التى كانت لدى إيطاليا عندما رفضت فكرة توليه حكم ليبيا.

ولكن شاءت الظروف أن ينال فؤاد مرامه. إذ أن السلطان حسين كان زاهدا فى الحكم بل تولدت لديه كراهية له حيث إنه كان أكثر ولاة مصر تعرضا لمؤامرات على حياته انعكاسًا لعدم رضا الشعب على توليه الحكم بأمر من سلطة غير سلطة الخليفة المسلم والذى كان هو الأسلوب السائد منذ الفتح العربى. وانعكست مشاعره ومتاعبه على ابنه كمال الدين حسين والذى كان أيضا زاهدا فى الحكم ومتزوجاً من أجنبية، فتنازل عن حقه فى العرش بعد وفاة أبيه.



الملك فؤاد فى شبابه مع زوجته الأولى شويكار

ولم يكن خافيا على السلطة البريطانية مطامع ورغبات فؤاد فى تولى الحكم، فتقدمت إليه بهذا المنصب والذى قبله دون تردد، إذ أن فيه إرضاء لمطامعه الشخصية بل وفرصة له أن يخلص نفسه - بما سيتوفر لديه من سلطة - من ديون تراكمت عليه وسببت له الكثير من المشاكل.

وهكذا تبوأ فؤاد على عرش السلطنة فى سنة ١٩١٧ وأصبح حكم مصر له وفى خلفه الملك فاروق، ففؤاد الثانى حتى ١٨ يونية ١٩٥٣ عندما أصدر مجلس قيادة الثورة قرارا بإلغاء الملكية وإعلان الجمهورية.

النشأة الأولى

عندما تولى فاروق عرش مصر بعد وفاة والده سنة ١٩٣٦، كان معبود الشعب بكل معانى هذه الكلمة لصغر سنه ووسامته وأمل الشعب فى أن يحكم البلاد شابا طموحًا. بل وكانت كل أم تعتبره ابنا لها يحتاج لُرعايتها وعطفها وحبها، وكل أب كان يرى من واجبه أن يقف بجواره ليس كملك بل كابن يحتاج للتوجيه السليم، وكل فتاة كانت ترى فيه الأمل لفتى أحلامها. كانت الأغنية السائدة فى أوائل سنين حكمه، أغنية شعبية ترنم بها الجميع الكبير والصغير، ولا يزال من عاش أيامها يستطيع أن يتذكرها

ملك البلاد يازين يا فاروق يا نور العين
يابو ورده على الخدين يابو سنه دهب لولى

ولكن دارت الأيام وانقلبت هذه المشاعر إلى غضب واستياء حتى أجبر على التنازل فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢، دون أسف أو رنة ألم من كافة طبقات شعبه. ومشاعر الشعوب وتغيرها لا تظهر بين يوم وليلة بل تتكون وتترعرع وتحدد اتجاهاتها، بناء على أحداث وتصرفات متتابعة تدفع الشعب إما إلى حب وإخلاص أو إلى كره ورغبة فى خلاص.

فما الذى حدث لهذه العلاقة بين فاروق وشعب، وماذا جرى خلال الستة عشر عاما وهى فترة توليه الحكم، حتى يغادر البلاد منفيا غير مأسوف عليه، فكان الجميع الغنى والفقير والمثقف والمتعلم والجاهل مرحبين بإزالته وحتى الذين لم ينضموا إلى هذا التيار وعلى رأسهم أفراد الأسرة المالكة كانوا ناقمين عليه، إذ أن سلوكياته وتصرفاته هى التى أدت إلى الأوضاع الجديدة والتى قضت على مكانتهم السامية فى المجتمع المحلى والدولى بل وحرمتهم من أملاكهم الواسعة.

أتصور أن الملك فؤاد، هو الذى وضع اللبنة الأولى فى انهيار فاروق. فالإنسان يحتاج لتكوين شخصيته إلى مقومات عديدة منها التعليم والتربية ومناخ صالح تنمو فيه فضائله ويزيد عليها فى تكوين شخصية أبناء الملوك لتنويرهم إلى ما يتطلبه المنصب فى المستقبل من معرفة تاريخ البلاد وأحوال الشعب. ولكن كان أسلوب فؤاد فى تربية أولاده أسلوبا غريبا إذ اتسم بالصرامة والشدة وعدم الاعتراف بحقائق العصر، بل وشمل الحرمان من بعض حقوقهم فى التمتع بمتطلبات أعمارهم سواء أن كانوا أطفالا أو صبايا أو شبابًا. فقد أحاطهم بسياج من العزلة ليس فقط مع أبناء الشعب، بل حتى مع أبناء وبنات الأسرة المالكة.

وساعد على هذه العزلة أن الملك فؤاد لم يكن محبوبا من أوساط الأسرة المالكة خاصة لمعاملته القاسية لزوجته الأميرة شويكار والتى أدت إلى فضيحة ملكية لم يسبق لها مثيل فى الأسرة المحمدية، وهى محاولة اغتياله بواسطة أخيها الأمير سيف الدين سنة ١٨٩٨ جزاء لهذه المعاملة القاسية. ثم زاد التباعد عندما تزوج بسيدة مصرية وهى نازلى عبد الرحيم صبرى خروجا عن تقاليد الأسرة التى درجت على زواج أبنائها من سيدة تركية أو شركسية أو حتى من أجنبية، ولذلك لم تعارض نازلى فى ابتعاد زوجها عن أسرته اجتماعيا ردا على معاناتها من تكبر الأسرة عليها. وفى هذه النقطة أشير إلى مباركتها لزواج ابنها فاروق من إحدى المصريات وهى صافيناز ذو الفقار ضاربة عرض الحائط لمطامع ومحاولات الأسرة المالكة لتزويجه من إحدى بنات الأميرات. ولعل ما جاء فى مذكرات اللورد كيلرن عن كراهية الأسرة المالكة أن تكون ملكتهم من

صفوف الشعب لتوضح لنا مدى هذه المشاعر. فقد ذكر أنه كان واقفا مع علية القوم فى محطة مصر لاستقبال الملكة فريدة عند قدومها من الإسكندرية عندما فاجأه ولى العهد الأمير محمد على بقوله «لماذا يفتح لفريدة الباب الملكى فهى ليست تركية ولا شركسية ولا حتى أجنبية فكان رد كيلرن «لاتنس ياسمو الأمير أنها ملكة مصر».

ولذلك لم يختلط فاروق فى حياته حتى وفاة والده بأى ولد من سنه، بل عاش فى قصر حوصر فيه بجو كله إناث، من أخوات وكلفوات وخدم.

وكان روكى وهو اسم الدلع الذى كانوا ينادونه به فى محيطهم الخاص، يجد خلاصه من هذا الجو الخانق عندما كان يمارس رياضة السباحة والألعاب السويدية على يد مدربه الفرنسى المسيو لوميور أو رياضة السلاح على يد مدربه الإيطالى السنيور بروكر. ولم ير فاروق العالم الخارجى إلا فى مناسبات قليلة جدا عندما شارك أباه فى حفل الكشافة أو حضوره حفل السلاح الجوى البريطانى نيابة عنه.

وشمل هذا العزل بل الحجر والدته وأيضا أخواته البنات رغم تطور أعمارهن، فلم يحدث أن خرجن من أسوار قصر القبة بالقاهرة أو قصر المنتزه بالإسكندرية. ويحضرنى فى هذه النقطة قصة كنت أنا أحد أطرافها، إذ الححت على والدى سنة ١٩٣٢ وكنت وقتئذ فى السادسة من عمرى أن تتاح لى الفرصة رؤية الأمير فاروق ولو من بعد خلال قيامه بالنزهة الصباحية فى حدائق قصر المنتزه. وتوجهت معه إلى القصر حيث كان مكتبه يقع على مدخله جهة سكة حديد أبو قير. وتصادف يومها أن حضر سليمان شماشرجى الملك فؤاد والذى أفاد بأن «أفندينا» فاروق معتكف يومها، وأن النزهة النهارية سوف تقتصر على الأميرة فوقية والتى كنت أكبرها بعدة أشهر فقط. ثم أمسك بيدى وتحرك بى عدة خطوات إلى الطريق الخاص بالنزهة، وطلب منى أن أخفض رأسى عند مرورها احتراما وتحية. ولم تمض دقائق إلا وجاءت العربة الدوكار تقل الأميرة وبدلا من أن أتفرج عليها أصبحت هى التى تتفرج على وتصيح قائلة «من فين جيبتو ده من فين جيبتو» وتكررها حتى توارت على الأنظار، وكأنها دهشت لوجود

طفل آخر فى القصر، أو كأننى مخلوق قادم من عالم آخر، ولا غرو من هذه الدهشة فإن أمثالى ليس لهم مكان فى القصر.

وسرت هذه المنزلة الملكية على الملكة نازلى، والتى كان الملك فؤاد يغير عليها غيرة شديدة. إذ إضافة إلى طبيعته المتزمتة ـ رغم ثقافته الأوروبية ـ كان فارق السن بينهما كبير بلغ سبعة وعشرين عاما إذ كان هو من مواليد سنة ١٨٦٨ وهى من مواليد ١٨٩٥ علاوة على ما تردد إلى سمعه أنها كانت تميل إلى أحد أبناء خالتها عندما تقدم هو إلى والدها عبد الرحيم باشا صبرى طالبا يدها، وأنها قبلت الزواج منه بعد ضغط شديد من والديها.

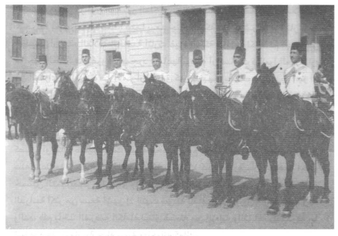
وحدث فى عام ١٩٢٢ بعد أن أصبحت ملكة لمصر أن استطاعت الصحفية الأمريكية جريس هدوستون من مقابلتها وأخذت منها حديثا صحفيا أحدث ضجة كبيرة بعد نشره. وكان من آثاره أن أمر الملك فؤاد بالا تقابل الملكة نازلى أى صحفى بعد ذلك.

فقد ذكرت نازلى فى هذا الحديث أنها عاشت حتى زواجها فى بيئة عصرية ومتحررة. وعندما بلغت الثامنة عشر قيل لها أن تستعد للزواج من السلطان، ولما عارضت لفارق السن، تعجب أهلها من ذلك وقالوا كيف ترفض بنت الشعب يد السلطان حيث إنها ستكون أول سيدة من الشعب تتزوج من حاكمه.

ثم أردفت نازلى فى حديثها أن لها هوايتين الأولى هى السفر إلى الخارج إلا أنها لا تستطيع القيام بها لأن الملك شديد الغيرة عليها. أما الهواية الثانية فهى القراءة التى تستطيع ممارستها وطلبت منها كتبا عن المرأة الأمريكية على أن ترسلها إلى مدام قطاوى كبيرة الوصيفات حتى تتفادى مرورها على رقابة الملك.

وبالطبع كان ماورد فى هذا الحديث من الحقائق ما أثار الملك فؤاد فأصدر أمره السالف الذكر.

وتنفيذاً لتعليمات الملك فؤاد كانت أبواب السرايات حتى السراى التى يقيم فيها تقفل فى تمام الساعة التاسعة مساء لايخرج ولايدخل منها أحد سوى رجال الخدمات والحرس الملكى والبوليس الملكى. ومن ثم انعدمت حتى السهرات



رجال الياوران الملكى فى افتتاح البرلمان سنة ١٩٣٩. وفى أقصى اليمين الصاغ نجم الدين شاهين والذى تردد فى السراى إعجاب الأميرة فايزة به. مما أثار الملك فاروق فألغى خدمته فى الجيش وعينه فى شركة قنال السويس

العائلية، واقتصر النشاط الليلى فى القصور خلال هذه الفترة على الحفلات الرسمية والتى كان يحظر على الملكة وفاروق وإخوته حضورها. وحتى إن حضروا حفلا بالمسرح الملكى كانت تخصص لهم شرفة فى الخلف ويسدل عليها ستارة رقيقة.

ورغم تزمت الملك فؤاد فى رسم حياة أسرته والقيود التى فرضها عليها، إلا أن هذا التزمت لم يكن يطبقه على نفسه، إذ كانت له خليلة شركسية اسمها شفق نور، والتى ازداد نفوذها فى القصر حتى أطلقوا عليها «الخازنداره» أى سيدة القصر. ويمكن لزائرى القصور الملكية معرفة صلتها الوثيقة بفؤاد بملاصقة حجرتها لحجرة نوم الملك، بينما يبعد جناح الملكة عنه بعشرات الأمتار. ومن الطبيعى أن هذه العلاقة الخاصة أثارت غيرة الملكة نازلى، ولكنها لم تجرؤ على مواجهة الملك. فلا غرو أنه بمجرد سماعها بوفاته أن صاحت «طلعوا الخازنداره من السراى» والغريب فى الأمر أن فاروق كان يحبها ويعطف عليها، بل أمر أن تكون نفقات منزلها ومعيشتها من الخاصة الملكية. وعاشت الخازنداره فى فيلا متواضعة بالقرب من قصر الطاهره إلى أن توفاها الله.

عاش فاروق هذه الحياة الانعزالية غير الأسرية. فلم يتمتع بحقوق الحياة كصبى أو شاب صغير، كانت حياته محصورة مع إخوته دون الاختلاط بأولاد من سنه. وعندما توجه إلى إنجلترا فى أكتوبر ١٩٣٥ كان معه رقيبان أحدهما أحمد حسنين التشريفاتى بالسراى والآخر الفريق عزيز المصرى. ولم تستمر مدة الدراسة أكثر من سبعة أشهر إذ انتهت بعودته للقاهرة فى إبريل ١٩٣٦ عقب وفاة والده، فلم يأخذ الفرصة الكاملة لينال قسطه من التعليم والثقافة والمعرفة ما تساعده على ممارسة حياة سوية وواجباته كملك.

وعن هذه الفترة، أود أن أتعرض لما أثارته الكثير من الكتب عن حياة فاروق بإنجلترا. وهو أن عزيز المصرى لم يكن راضيا عن تصرفات أحمد حسنين حيال فاروق والتى كانت تشجعه على مخالطة الفتيات، وأنى أرى أن هذا الرأى لا يتمشى مع طبيعة الحياة فى إنجلترا، إذ أنه لا يمكن عزل فاروق عن مجتمع يرى الاختلاط فيه شىء عادى، بل يرى أن العزلة وعدم الاختلاط بالجنس الآخر

مـدعـاة لأن يوصف الشـخص بالشـذوذ ويـاليت فـاورق كـان كـأى شـاب فى سنه ووسامته ومركزه تعود على الاختلاط بالفتيات لكن تحت الرقابة، حتى تتولد لديه مشـاعر التعود على مخاطبتهم ومعايشتهم، وأنا هنا لا أقصد إفساده بل إعطائه حقا يمارسه غالبية الشباب. وأستشهد بذلك ما أقدمت عليه الملكة اليزابيث من إرسال ابنها شارل إلى أستراليا للدراسة هناك لمدة عامين بعيدا عن ظل البلاط الملكى البريطانى وقيوده على مدرسته الإنجليزية. فأتاحت هذه الفترة لشارل الاختلاط بمن هم فى سنه والتعرف على آمالهم ورغباتهم دون قيود بروتوكولية أو ملكية.

وعاد فاروق إلى القصر، ورغم قصور تعليمه وحدود تربيته إلا أنه كان بالنسبة للشعب

مـلـك الـبـــــــــلاد يـا زيـن　　　　يـا فــــــاروق يـا نـور الـعـــــين



السنون الأولى من الحكم

عندما عاد فاروق للقاهرة بعد وفاة والده لم يكن قد جاوز سن السادسة عشر إلا بأشهر قليلة. فبرزت على المسرح السياسى مسألة مجلس الوصاية وتكوينه ومدته وأيضا مشكلة تكملة تعليمه. وظهرت عدة آراء بخصوص مجلس الوصاية، وصممت الملكة نازلى أن تكون فترة الوصاية أقصر ما يمكن يتولى فاروق بعدها الحكم، إذ كانت تخشى من مؤامرات الأمير محمد على ولى العهد والذى كان على علاقة قوية بالدوائر البريطانية، ولم يتطرق إليه اليأس يوما ما فى تولى العرش. وكان يرى أنه أحق الناس به باعتباره أنه شقيق الخديو عباس الثانى والذى عزلته بريطانيا عند قيام الحرب العالمية الأولى. وبلغ من تمسكه بهذا الأمل أن بنى بقصره فى المنيل قاعة كبيرة أسماها قاعة العرش، ووضع على جدرانها صورا زيتية لكل حكام الأسرة العلوية حتى أخيه الخديو عباس ولم يضع صورا لكل من السلطان حسين والملك فؤاد والملك فاروق لعدم اعترافه بأحقيتهم فى العرش. وقد أثار الأمير محمد على موضوع بقاء فاروق تحت الوصاية لمدة خمس سنوات حتى ينال قسطا من التعليم المناسب والمطلوب له، ليكون ملكا صالحا. لكن الملكة نازلى خشيت من طول فترة هذه المدة والتى قد يستغلها محمد على فى توطيد ركائزه فى الدولة وتوثيق علاقاته مع الدوائر البريطانية، ويأمل الوثوب على العرش فأصرت على أن يتولى فاروق الحكم

عندما يتم الثامنة عشر هلاليه خاصة وأن هناك سابقة تاريخية فى تاريخ الأسرة المالكة عندما تولى الخديو عباس حلمى الثانى الحكم فى هذا السن. ولجأت الملكة نازلى إلى النحاس باشا والتى كانت تكن له تقديرا خاصا لتحقيق رغبتها، واستطاعت أن تحقق ما تصبو إليه.

وعندما أثيرت موضوع الشخصيات التى يتكون منها مجلس الوصاية، كان من الطبيعى أن يتولى رئاسته ولى العهد الأمير محمد على، ولكن الملكة نازلى صممت على أن يكون لها تواجد عن طريق تعيين شقيقها أى خال الملك فاروق شريف باشا صبرى حتى يحدث توازن فى اتجاهات المجلس. أما العضو الثالث فكانت لشخصيته ليس لها لون سياسى وتمت بصلة القرابة إلى الأسرة المالكة وهو عزيز باشا عزت.

وكان من المفروض أن ينتهز فاروق فرصة بعده عن مسئولية حكم البلاد خلال فترة الوصاية ويسعى بتثقيف نفسه، إلا أنه تقاعس عن ذلك بل لم يقابل المشرف الإنجليزى المستر إدوارد فورد والذى عينته الحكومة البريطانية للقيام بدور المعلم له سوى مرة واحدة ولمدة خمس دقائق خلال عام ١٩٣٧، وهو الأمر الذى دفع بالسفير البريطانى السيد مايلز لامبسون (لورد كيلرن فيما بعد) إلى لفت نظره ونصحه بضرورة الاستنارة والتثقف. لكن كان اهتمام فاروق فى هذه الفترة هو التمتع بالحياة وتعويض ما فاته من حرمان وعزلة، خاصة وأن الجو الجديد فى الدائرة الضيقة للأسرة أى أمه وإخوته شجعته للسير فى هذا الطريق.

وهكذا بدأت سنوات الانطلاق لفاروق ولنازلى والأميرات دون قيود الحرملك واليشمك. وجاء أول صيف سنة ١٩٣٧ وسافرت الأسرة كلها إلى عدة بلدان أوروبية فى رحلة استمرت ما يقرب من ثلاثة شهور. ونشرت الصحف أول صور للملكة نازلى وبناتها سافرى الوجوه، فكانت قفزة كبيرة فى تاريخ وتقاليد الأسرة المالكة. واصطحبت الملكة نازلى وصيفتها حرم يوسف باشا ذو الفقار والتى



فاروق يقول إن كلبه رويرت هو أخلص الناس له

أقنعت الملكة بأنه من المصلحة أن ترافقها ابنتها صافيناز لتكون مع الأميرات فى تحركاتهن ومشترواتهن، حيث إنها أكثر خبرة منهن بالحياة العامة بالإضافة إلى تقاربها منهن فى السن.

ونشرت الأخبار والصور التى تشير إلى مدى سعادة هذه الأسرة بجو الحرية، بل لا أكون مغاليا أن المجتمع المصرى كان متعاطفا معهم، ويرى أن من حقهم التمتع بما حرموا منه أيام الملك فؤاد.

خلال هذه الرحلة بدأ إعجاب فاروق بالآنسة صافيناز، إذ وجد فيها الفتاة المصرية المثقفة وفى الوقت نفسه المتمسكة بتقاليد المجتمع المصرى. كما أفرزت هذه الرحلة علاقة وثيقة بينها وبين شقيقاته فكثر ترددها على السراى، وازداد الارتباط بينها وبين فاروق، والذى أسر لوالدته برغبته فى الزواج منها. ولم تعارض الملكة نازلى فى تحقيق هذه الأمنية، ولتشبع رغبتها فى أن تكون عروس فاروق من الشعب أسوة بها، وردا على محاولات الأسرة المالكة والتى كانت ترشح بعض أميراتها لفاروق وتم عقد القران فى يناير ١٩٣٨ وسط احتفالات شعبية كبيرة. ورزقا بطفلتهما الأولى الأميرة فريال فى نوفمبر من نفس العام.

وفى السنين الأولى للزواج كانت حياة فاروق مع فريدة مثالا للحب الشديد وشقاوة الشباب، فكانا مثلا يتوجهان إلى أنشاص ويقفان تحت خزان المياه الموجود بحمام السباحة ويأمر فاروق بفتح ماسورة التصريف لتسقط المياه عليهما كشلال. وفى إحدى رحلاتهم إلى الأقصر طلب من إدارة الفندق ملاليم ليلعبوا بها «كوتشينه»، وبالطبع لم تكن الملاليم عملة تدخل خزانته، فاستعانت بالبوليس والذى جمعها من الشحاذين. وبعد غليها وتطهيرها سلمت لفاروق. وفى نفس الفندق حاولت إحدى فتيات المجتمع لفت نظر فاروق بالوقوف فى طريقه وملاحقته فى تحركاته، فما كان منه إلا أن أمر إدارة الفندق بترحيلها فورا.

لكن من الغريب أن الحياة مع فريدة فى سنتيها الأوليتين ساهمتا فى بداية «شقاوة» فاروق. إذ أنهما كثيرا ما لبيا دعوات صديقات الملكة فريدة فى

مناسباتهن الخاصة والتى حفلت بأشكال مختلفة من اللهو. ولم تتورع البعض منهن التقرب من الملك وإغرائه، ثم جاءت حفلات الأميرة شويكار لتكمل حركة الحصار عليه. وحاول فاروق الصمود لهذه الإغراءات المتتالية، لكن لكل فرد قدر من التحمل. فبدأت فى مقاومته لها تضعف. لكن لم تخرج هذه «الشقاوة» فى أولها عن مغازلات اتسمت بالبدائية لعدم خبرته، ولكنها تطورت بعد ذلك إلى أن خرجت عن المقبول والمعقول.

وبدأت دوائر القصر تتشاور لمواجهة هذا التطور، ووجدوا أن فاروق الشاب محاط بمجموعة من رجال الحاشية كبار السن ومن جيل غير جيله أمثال سعيد باشا ذو الفقار، ومراد باشا محسن وإسماعيل باشا تيمور، مما أدى إلى حدوث فجوة فكرية بينه وبين هذه المجموعة. فتوصلوا إلى فكرة تهدف إلى تعزيز الحاشية الملكية بمجموعة من شباب عائلات مصر العريقة ومن ذوى الأخلاق الحميدة، والحاصلين على درجة راقية من التعليم. وبناء عليه بدأ تنفيذ هذه الفكرة فتم تعيين السادة صالح يونس ومحمود يونس وإكرام سيف النصر ومحمد عبد الرازق وعلى الحمامصى وأحمد صادق للعمل فى إدارة التشريفات الملكية.

لكن للأسف أتت هذه الفكرة بنتائج عكسية تماما. إذ شعر فاروق بالفارق الكبير فى الثقافة والعلم بينه وبين هذه المجموعة من الشباب الجدد فابتعد عنهم ولم يجد سوى مجموعة من الخدم العاملين فى القصر ليتعايش بينهم ومعهم أمثال السائق على حسين والكهربائى بوللى ومهندس اللاسلكى إيلى ومدرب الكلاب كافتزى والحلاق جارو ومساعده حسنين. ومن الطبيعى أن هذه الفئة لاتستطيع أن تقدم له شيئا إيجابيا، بل وجد فيهم الخشوع والسرعة فى إرضاء نزعاته وإشباع مركبات نقصه فتوثقت علاقاته معهم وأصبحت خروجاته ونزهاته معهم.

وهكذا بحلول أواخر عام ١٩٤١ بدأت عوامل الانهيار لشخصية فاروق. فمن جهة تأكلت علاقاته مع فريدة والتى لم تنجح للمرة الثانية فى أن تنجب له وليا للعهد. وفى الوقت نفسه بدأت رائحة مغامراته العاطفية يتناولها المجتمع بل فى الواقع اخترعت فيها الكثير من القصص الخيالية. كما ابتعدت عنه والدته الملكة

نازلى لتنعم بأسلوب حياة تصورت أنها حرمت منها فى شبابها. وواجه فاروق موقفا صعبا بقيام الحرب العالمية الثانية ووقوف كل من بريطانيا وإيطاليا على طرفى النزاع، وأصبحت هناك مواجهة بين فاروق ودار السفارة البريطانية حول حاشية فاروق الإيطالية والتى كان على رأسها فيروتشى بك كبير مهندسى القصر. ورغم محاولات السفير البريطانى فى إبعادها عنه إلا أن فاروق تمسك بها إلى الحد الذى أوجد شعورا لدى الدوائر البريطانية يكاد يقترب من اليقين أن الملك بحاشيته هذه على علاقة قوية بدول المحور.

ودارت حول هذا الموضوع قصصا طريفة أذكر منها أنه حدث فى عام ١٩٤١ بعد حفل أقامته الأميرة شويكار على شرف عيد ميلاد الملك أن طلب سعيد باشا ذو الفقار كبير أمناء الملك مقابلة فورية مع السفير البريطانى والذى استقبله دون معرفته لسبب هذا الطلب العاجل. ولكن بادره سعيد باشا بقوله بأن الملك مستاء جدا لما ذكره السفير من أن فيروتش كلب قذر لأنه لا يتصور أن يتطاول أحد على فرد من حاشيته ويوصم أحد العاملين فيها بأنه «كلب قذر» فما كان من السفير البريطانى إلا أن رد قائلا له «إنه يأسف لهذا ويمكن أن يقول للملك على لسانه إن فيروتش كلب مدلل إن كان هذا يسعده».

وكان السفير البريطانى متزوجا من سيدة إيطالية الأصل وكلما كان السفير يطالب بإخراج الإيطاليين من دائرة الملك فاروق كان يرد على ذلك بقوله «قبل أن يطلب منى لامبسون إخراج الإيطاليين من قصرى، عليه إخراج الإيطالية من دائرة حياته».

حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وتوابعه

بدأ عام ١٩٤٢ والأحوال السياسية فى مصر فى غاية الاضطراب والتناقض. ولعل أبلغ وصف لها عندما سئل أحمد باشا زيور عن رأيه فى الأوضاع السياسية فى البلاد، فكانت إجابته معبرة فعلا عن حقيقة الأوضاع ولكنها مملوءة بالسخرية «سياسة إيه يا «إكسلانس» بلد حكامها إنجليز، والملك بتاعها طليانى، والشارع ألمانى» وإزاء هذا الموقف وانفجار المظاهرات التى كانت تنادى «إلى الأمام يا روميل» لم تتحمل بريطانيا على استمراره، وصممت على أن يتولى الوفد مهام الحكومة، فهو الحزب الذى له الأغلبية الشعبية ويستطيع السيطرة على الجوع. فأقدمت على حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الشهير وحاصرت سراى عابدين بقواتها العسكرية وأجبرت الملك على استدعاء النحاس باشا وتكليفه بتأليف الوزارة، وإلا يتنازل عن العرش.

شكل هذا اليوم فى حياة فاروق نقطة تحول كبيرة فى تفكيره وتصرفاته ونظرته للأمور، إذ عرف وقتئذ حقيقة وضعه وقوته. فالسلاح البريطانى هو الذى أنذره بالتنازل عن العرش، وهو الذى أجبره على تصرف - أى تكليف النحاس باشا بالوزارة - يرى أن من صميم اختصاصاته وحقه، ولم يجد من رجال الدولة وقفة صامدة خلفه تعزز من موقفه، بل حتى الشعب والذى كان يهتف ضد بريطانيا بالأمس يحمل سفيرها على الأعناق عندما توجه فى اليوم التالى

لرئاسة مجلس الوزراء لتقديم التهنئة للوزارة الجديدة، وأيقن أن الأحزاب الأخرى ليس لديها الشعبية الكافية التى تستطيع أن تشكل معارضة الوضع الجديد. فانتابه شعور بالإحباط وقسوة الهزيمة إذ كيف استطاع إقالة النحاس باشا من الوزارة ولم يكن عمره قد تجاوز التاسعة عشر ولم يكن قد مضى على توليه الحكم سوى شهور قليلة، ثم بعد ذلك وبعد أن اكتسب خبرة سياسية يجبر على تكليف النحاس باشا لتولى الوزارة وإلا يعزل عن العرش وينفى من البلاد إسوة بجده إسماعيل والخديو عباس.

وهنا بدأ الانهيار فى تصرفاته العامة والخاصة، وكثرت نزواته واستهتاره بأموال البلاد وبسمعته الشخصية، وحوصر بين هذه الهزيمة السياسية وبين التفكك العائلى وفى الوقت نفسه دون أن يقبل استشارة أو نصيحة من ذوى العقول الراجحة.

وبدأت مشاكل العائلة فى الظهور، بداية بالغيرة بين الملكة نازلى والملكة فريدة. وقد كانت للملكة نازلى من قوة الشخصية ما جعل فاروق يصدر يوم قرانه من الآنسة صافيناز فى ١٨ يناير سنة ١٩٣٨ وما يترتب على هذا القران من حملها للقب حضرة صاحبة الجلالة الملكة، أمرا ملكيا جاء فى مقدمته «نظرا لما نكنه لحضرة صاحبة الجلالة والدتنا العزيزة من أقدس عواطف الإجلال والإعظام، والإعزاز والإكرام، ولما نراه من اقتران اسمها الكريم بلقبها العظيم من تمجيد ذكراها، فوق ما لها من عظيم المكانة وجليل الاعتبار، فقد أمرنا بما هو آت «يكون لقب حضرة صاحبة الجلالة الملكة والدتنا العزيزة مقترن من الآن باسمها الكريم حضرة صاحبة الجلالة الملكة «نازلى».

وكان هذا القرار بداية للصراع بين الملكتين ، حيث إن هذا الأمر الملكى وبهذه الصيغة أعلى عن وجود ملكتين دون تحديد أقدميتهما. فتعددت مشاكل البروتوكول لمن تكون لها الأسبقية على الأخرى فى المناسبات التى تجمعهما سويا. وترتب على هذه المشاكل أن حوصر فاروق بين الأم والزوجة.



فى حفل تنكرى بقصر الأميرة سميحة كامل فاروق بملابس الأعراب وفريدة بملابس منطقة التيرول بالنمسا

ثم بدأ اندفاع الملكة نازلى نحو أحمد حسنين مما أثار الكثير من الإشاعات بأنها إما عشيقة له أو أنها تزوجت منه عرفيا، وأيا كان شكل العلاقة بينهما كان فاروق يعارضها خشية توحد شخصية أمه ذات الشخصية القوية ودهاء أحمد حسنين الأمر الذى سوف يضعه على هامش الحياة العامة. وتمادت هذه العلاقة ولاكتها الألسنة وفاروق يعارضها، وكان الأكرم له أن يقبل الأمر الواقع ويتم الزواج ويتعايش معه، وقد ذكر أحد رجال الحاشية «لماذا يعارض فى زواجها فهى لم تكن زوجة لنبى حتى تحرم من حقها».

وعنادا وإغاظة فى ابنها ودلالا على حسنين باشا سافرت نازلى إلى القدس ونزلت فى فندق الملك داود، وعلم فاروق بأنها تراقص الضباط الإنجليز كل ليلة. فحاول إرجاعها ولكنه فشل فالتجأ إلى غريمه النحاس باشا والذى كانت تكن له مشاعر الاحترام فسافر إليها وبرفقته السيدة حرمه واستطاعا إقناعها بالعودة. ولكن هذه العودة لم تكن نهاية لتصرفاتها بل استمرت ونمت مع حسنين باشا إلى أن انتقل إلى رحمة الله سنة ١٩٤٦ بعد حادث تصادم على كوبرى قصر النيل. ولم يكن أمامها إلا أن رحلت من مصر إلى الخارج ولم تعد بعدها إلى البلاد.

وبعد حادث ٤ فبراير ، لم يهتم فاروق بأحوال البلاد بل كان همه الأول والأخير هو محاربة الوفد والانتقام منه ومن رئيسه، بل لا أكون مغاليا فى أنه كان سلبيا فى معارضة أى خطأ تقع فيه الحكومة الوفدية إيمانا منه أنه كلما زادت فى أخطائها كلما بعد الشعب عنها وأصبح من السهل عليها إزاحتها فى الوقت المناسب دون معارضة قوية. وحتى لا يختفى من المسرح السياسى وحتى لا يهتم بإغفاله أحوال البلاد، أقدم على تصرفات مظهرية عديدة ليكتسب شعبية بين أبناء الوطن. فأوجد تقليدا بأن يتوجه إلى نادى الضباط بالزمالك يوم ٤ فبراير من كل عام ليجتمع بهم ولإحياء ولائهم له. وكان يتبسط معهم إلى حد إطلاق النكات. وكان عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش يعد له بعضا من المعروف عنهم إجادتهم لهذا النوع من السمر. كما استشرى النزاع بين عطا الله باشا ووزير الحربية حمدى سيف النصر أسفرت عن انتصار الأول والذى توج رفاقه بأن غير شعار الجيش من «الله الوطن الملك» إلى «الله الملك الوطن»

وحتى يجذب فاروق التيار الدينى إلى صفوفه، أخذ يتردد على الجوامع إما فى صلوات يوم الجمعة أو حضور الدروس الدينية خلال شهر رمضان. كما أمر الخاصة الملكية بإقامة سرادق فى ميدان عابدين خلال هذا الشهر لأبناء الشعب لسماع القرآن الكريم. بل وإمعانا فى هذا الاتجاه أطلق لحيته لفترة زمنية. وبعد سنوات فوجئ المجتمع بفتوى انتماء فاروق عن طريق والدته إلى السلالة النبوية الشريفة الأمر الذى قوبل بعلامات الاستغراب بل السخرية، حيث إن هذا النسب جاء عن طريق والدته والتى كانت تصرفاتها فى ذلك الوقت أبعد ما تكون عن المبادئ والقيم الإسلامية، حتى أنها أنهت حياتها باعتناقها الديانة الكاثوليكية.

كما استضاف الملك أوائل الطلبة من الجامعات والمعاهد الفنية دون تواجد حكومى وأيضا الإعلان عن جائزة «فاروق» العلمية ثم قام بزيارة المناطق المصابة بالملاريا.. وبالطبع لم تقف حكومة الوفد مكتوفة الأيدى بل قامت بأعمال مشابهة لها من زيارات النحاس باشا للعديد من المديريات، إلى إنشاء جائزة علمية أخرى باسم النحاس باشا للنوابغ من الطلبة.

وبعد معركة العلمين فى أكتوبر ١٩٤٢ وانتصار الحلفاء فيها على دول المحور وانحسار الخطر العسكرى على مصر، تصور فاروق أن الفرصة قد أصبحت سانحة له لعزل النحاس. فسعى جاهدا لدى السفارة البريطانية ألا تعارض فى إقالته، وكرر هذا المسعى عدة مرات. وفى إحدى المرات قال للسفير البريطانى إن النحاس باشا يتصرف وكأنه ملك ومصر لا تتحمل ملكان فى وقت واحد وكان رد السفير ساخرا إذ قال «لا قدر الله يا مولاى أن يكون بمصر ملكان فملك واحد يكفى ما بها» ويطلب السفير من تشرشل رأيه ويكون الرد «لا تغيير» وفى إحدى المرات نصحه تشرشل بأن يتصرف كما يتصرف مع طبق السلطة وذلك بخلط الزيت والخل مشبها الملك والنحاس باشا بهما.

وكان الملك أحيانا يجد خلاصه وراحة نفسه باللجوء إلى رحلات صيد فى الصحراء تحت شعار أنه يزور مناطق نائية لم يزرها أحد من المسئولين من قبل، وحدث فى يناير سنة ١٩٤٣ أن كانت البلاد تعانى أزمة حادة فى الخبز نظرا



أصدر الملك تعليماته بأن يحيط به رجال الياوران وبوليس السرای حتی لا تعطی الفرصة لمصطفى النحاس رئيس وزرائه مكانا ظاهرا

لكبر حجم استهلاك قوات الحلفاء وصعوبة إمداد مصر بالقمح، الأمر الذى أثار قلقا واستياء فى الأوساط الشعبية، أن قام فاروق برحلة صيد فى وادى الرشراش بالصحراء الشرقية، وخلال معاينته لحصيلة يومه من الصيد، إذ فوجئت الحاشية المصاحبة للملك بسليمان الشماشرجى الخاص به يواجه الملك بقوله «إنت قاعد هنا وتصطاد غزال وسايب بلدك مولعة نار، ارجع للملك اللى سابهولك أبوك وتعب فيه وحافظ عليه». ولم يكن من فاروق إلا أن ضحك من صراحته وقال له «اخرس يا عجوز» فرد عليه سليمان «كبرت أو صغرت فأنا برضه الشماشرجى بتاعك لكن أنا خايف عليك»

أما بالنسبة للحاشية الجديدة التى التفت حول فاروق، والتى كان رجال الحاشية الحقيقيون يهمسون بأنها «حاشية الخدم» فقد بدأ نفوذها يكبر بالمراكز والوظائف الجديدة التى بدأ فاروق يكلفهم بهم.

فبدأ أولا بسائقه حلمى حسين والحاصل على الشهادة الابتدائية ومنحه فى أوائل صيف ١٩٤٢ رتبة الصاغ وعينه وكيلا لإدارة السيارات الملكية. وفى السنة التالية رقاه إلى رتبة البكباشى (مقدم) واستمر فى ترقيته حتى وصلا إلى رتبة الأميرلاى (عميد)، وكبر نفوذ حلمى حسين حتى أنه أصبح ممثلا لفاروق فى كثير من المهام لدى الدول العربية، وأحيانا وكيلا له فى صفقات تجارية. ومازاد من نفوذ هذه الشخصية تحالفه مع عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش وحسين سرى عامر وكيل سلاح الحدود وقتئذ، وأصبح هذا الثالوث مسيطرا على حركة ترقيات وتنقلات ضباط الجيش. ويعرف الجميع ما حل بالجيش من تطورات ومشاعر تجاه هذا المحور والذى بلغ قمة أزمته فى انتخابات مجلس إدارة نادى ضباط الجيش سنة ١٩٥١ عندما تحدى رغبة الملك فى أن يكون حسين سرى عامر رئيسا لمجلس إدارته ونجاح الضباط فى انتخاب اللواء محمد نجيب رئيسا له.

وأضاف الملك فاروق لكافاتزى مدرب الكلاب وظيفة أخرى علاوة على إشرافه عليهم، إذ أصبح مسئولا عن تربية الأبقار ومعامل الألبان وتصنيع الجبن. أما الحلاق جارو فكان مكروها فى دوائر القصر لسوء أخلاقه وغطرسته وبلغ

سوء هذه الحاشية أن حاول حسنين مساعد الحلاق أن يمد فاروق بالحشيش، لكنه عزف عن تناوله، والحق يقال إن فاروق لم يكن أيضا من شاربى الخمر إلا فى مناسبات خاصة وبكميات قليلة جدا من الشمبانيا وكان يفضل عليها العصائر الطبيعية.

ويأتى دور أنطونيو بولى والذى أخذ شهرة كبيرة فى المجتمع المصرى باعتباره المورد الأول أو رجل التشهيلات الخاصة للملك فى موضوع عشيقاته. فقد بدأ حياته فى القصر ككهربائى ثم ولاه فاروق منصب سكرتيره للشئون الخاصة والتى منها تسهيل علاقاته مع الجنس الآخر. وكما قال فى محكمة الثورة «كل واحد فى مصر كبير وصغير وقتها كان يلبى ما يطلبه فاروق كل فى دائرة اختصاصه وأنا كأى واحد كنت أنفذ ما يطلبه منى الملك فى دائرة اختصاصى، لكن لم أتدخل فى السياسة زى محمد حسن الشماشرجى. وامتاز بوللى بأنه كان أكثر الناس معرفة بمزاج وأهواء فاروق، فألحق بمكتبه مخزنا يحوى كل ما يتصوره إنسان من هدايا لمختلف الأجناس والأعمار والمناسبات فى ترتيب غاية فى التنظيم حتى يلبى أى طلب لفاروق فى أسرع وقت. ولا غرو أن يعزه فاروق ويدلعه ب «بلبل» ورغم معرفة أفراد السراى بحقيقة عمله وبقوة علاقته بفاروق إلا أنه كان شخصية بسيطة ومتواضعة ومحبوبة، بل تتمتع بلمسات إنسانية، فقد كان هو السبب فى رفع الحظر على ضباط الحرس فى الخروج من ثكنات الحرس بقصر المنتزه لمنازلهم خلال انتشار الكوليرا سنة ١٩٤٨. وتدخل محتجا على عقاب عساكر الحرس الملكى الذين تجرؤا وقطفوا بعض ثمار الجوافة من حدائق قصر المنتزه، وفى الوقت الذى تزايد فيه البعض فى تحديد نوعية الجزاء وضرورة التشدد فيه. كان بوللى هو الوحيد الذى تصدى للدفاع عن عساكر الحرس وقال «عيب تعملوا تحقيق فى حاجة زى دى.. خير مولانا كثير.. وفاكهة بتاعة مولانا كثير.. وحرام تحاكموا عسكرى علشان جوافاية أو برتقالة. ومن ثم قفل باب التحقيق.

أما الشماشرجى محمد حسن فقد جاء تعيينه فى هذه الوظيفة عندما كان فاروق يلعب الورق فى نادى السيارات وخلال الجلسة اشتكى من أن الشماشرجى

الخاص به قد كبر فى السن وأنه تعب منه ومن صراحته، فأشارت عليه مدام سلفاجو . وكان زوجها من كبار رجال القطن فى الإسكندرية . بأن عندها الشماشرجى الخاص بزوجها دون عمل تقريبا بعد وفاة زوجها، وأضافت بأنه صغير السن وعلى قدر كبير من الذكاء ورشحته للعمل بدلا من الرجل العجوز.

وبالفعل تم تعيينه، واستطاع محمد حسن خلال سنوات قليلة وخاصة الأخيرة من حكم فاروق، أن تكون له كلمة نافذة فى حكم مصر وتعيين وزرائها ومنح الرتب والنياشين، وبلغ من نفوذه أن كون لنفسه مكتبا وخصص له فاروق عربة كاديلاك لتنقلاته، بل عرف أن أحد كبار رجال السراى كاد يقبل يده شاكرا عندما أنعم عليه برتبة الباشوية.

وقد رحل محمد حسن عن البلاد بعد قيام الثورة بطريقة غامضة وعاد إلى بلده السودان، وافتتح كازينو على النيل بالخرطوم وهو الآن من كبار أثرياء السودان.

وفى إطار نضاله مع الوفد، رأى أن من مصلحته إصدار جريدة تدافع عنه وتقف للوفد بالمرصاد . فهو فى صيف سنة ١٩٤٣ عن طريق أحمد حسنين الشقيقين مصطفى وعلى أمين بمبلغ عشرة آلاف جنيه وحضر تسليم هذا المبلغ شخصية لها وزنها بالقصر ومعروف عنها الأمانة حيث إن هذا المبلغ سيسلم لهما دون إيصال. وهكذا كان هذا المبلغ هو بداية لظهور جريدة أخبار اليوم والتى أصبحت اللسان الناطق بالسراى.

وفى ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٣ وقع حادث القصاصين والذى تصادم فيها فاروق وهو فى طريقه للإسماعيلية مع إحدى عربات الجيش البريطانى. وانتهزت دوائر المعارضة وخاصة الوفد هذا الحادث وأطلقت إشاعات أن الحادث أثر على قدرته الجنسية وردا على هذه الإشاعات تمادى فاروق علانية فى علاقاته النسائية ليؤكد أنه مازال فى عنفوانه. ولم يتورع أن تشمل مغامراته سيدات راقيات وفنانات. وأعتقد أن حبه الكبير فيما بعد كانت المغنية الفرنسية آنى بيرييه التى عرفها فى إحدى رحلاته فى الريفييرا الفرنسية ثم حضرت إلى

مصر وكانت تغنى فى الكونتنتال وسان استفانو. إذ حافظ على علاقاته معها سنين طويلة رغم الخناقات التى كانت تحدث بينهما خاصة عندما يتطرق إلى سمعها عن مغامراته مع نساء أخريات. وكثيرا ما كانت تغضب منه وتتجه إلى غرفتها لتنزوى فيها فيلاحقها فاروق ليرضيها.

ولعلى أقرن حادث القصاصين بموضوع آخر، إذ تعرف فى تلك الحادث على الدكتور يوسف رشاد طبيب يخت المحروسة والذى استدعى من الإسماعيلية حيث كان يرسو اليخت ليلازم فاروق خلال علاجه بالمستشفى البريطانى، وكان فاروق قد بدأ فى السمنة وزيادة فى الوزن لكن يوسف رشاد وهو رجل رياضى يجيد المصارعة، كان الشخص الوحيد القادر على نقله من السرير إلى الكرسى فأعجب به فاروق وجعله من حاشيته الخاصة وتعرف بعدها على زوجته السيدة ناهد رشاد والتى كتب عنها الكثير من القصص وأغلبها من سرد الخيال. وقد وصل الإعجاب بالدكتور رشاد أن بدأ فاروق فى هواية لعبة المصارعة، بل أمر بمد البساط الخاص باللعبة فى حدائق قصر القبة، وأصبح يوسف رشاد من أكثر الشخصيات التصاقا بفاروق مما أثار حقد كل من السائق حلمى حسين وبوللى، فساعدا كلاهما على نشر الإشاعات الضارة بيوسف رشاد وحرمه، وفى إطار هذه الصداقة القوية استعان فاروق بيوسف رشاد فى تكوين الحرس الحديدى والذى خصصه للخدمات السياسية الخاصة وعاونه فى ذلك الملازم عبد الله صادق ضابط مطافئ السراى. وشكل هذا الحرس من شخصيات خارج ضباط الحرس الملكى.

وخلال هذه الفترة بدأت تنمو فى فاروق حب الاستيلاء على مقتنيات الغير. فبدأ بقصر الطاهرة والذى أخذ منه بعض التحف، ثم أخذ يضغط على مالكه ابن عمته أحمد طاهر باشا أن يوافق على بيعه بمحتوياته بمبلغ زهيد بأربعين ألف جنيه. وما أن اشتراه فاروق حتى أهداه للملكة فريدة وأطلق عليه قصر الطاهرة.

وهناك قصص أخرى عديدة منها استيلائه على محتويات النادى الألمانى بالإسكندرية وبعض تحف قصر لطف الله (فندق ماريوت حاليا)، ومتعلقات شاه

إيران. وفى إحدى المرات توجه إلى قصر إحسان بك (الشهير بأبو شنب فضة) التشريفاتى الثالث حيث سمع عن محتوياته من تحف، وأخذ منه شمعدانين كبيرين من الفضة والكريستال دون أن يكون صاحب القصر متواجدا فيه. فما كان منه إلى أن كتب خطابا لفاروق ذاكرا فيه أنه كان سيشرفه لو أخبره فاروق مسبقا بهذه الزيارة حتى يكون فى شرف استقباله وإهدائه هذين المشعدانين ولكن فاروق استشاط غضبا لهذا الخطاب. ولما علم إحسان بك برد فعله هذا قدم استقالته والتى أحدثت دويا كبيرًا فى دوائر القصر والتى بذلت جهدا كبيرا فى احتواء هذا الخبر حتى لا يخرج عن حدود السراى.

وختم الصراع بين فاروق والوفد بأنه انتهز فرصة سفر السفير البريطانى إلى جنوب إفريقيا فأرسل للنحاس باشا خطاب إقالته فى أكتوبر ١٩٤٤.



الانهيار

حل عام ١٩٤٥ والملك فاروق فقد الكثير من توازناته وقدراته، بل ازداد التآكل في شخصيته وفتحت عليه أبواب الانهيار من كافة الاتجاهات، زوجة على وشك الطلاق والتهم والإشاعات متبادلة بين الاثنين والتى لم يتورع فاروق أن يطلقها على زوجته تغطية لتصرفاته، وعداء مستحكم مع حكومة الأغلبية أسفر عنها إقالتها، وحاشية فاسدة جاهلة تحيط به وهو يتمسك بها، وسلطة بريطانية لا تثق فيه، وأسرة متفككة بين أم لم تراع سنها ولا مركزها ولا سمعتها ولا دينها، وشقيقات مابين من هى فى طريق الطلاق وأخرى فى الزواج من غير دينها وثالثة تمرح بمفردها أو مع زوجها فى مصايف أوروبا. وشعب يئن من القصر وتفاوت فى الدخول وأفكار وآراء سياسية جديدة بدأت تدخل فى الميدان السياسى ما بين شيوعية واشتراكية ودينية، فكانت صورة مصر لا تبشر بالخير أو بسلامة سير السفينة.

ولم تتغير تصرفات فاروق فى الحقبة الجديدة بعد إقالة حكومة الوفد عن سابقتها بل زادت سوءا. فكان يصر على السفر إلى الخارج تحت اسم مستعار فؤاد باشا المصرى متنقلا بين نوادى القمار فى فرنسا وإيطاليا مما أعطى مادة غنية للصحافة الأجنبية للهجوم عليه. واعتمد على حكومات الأقلية والتى ليس لها سند شعبى. وحتى حزب الوفد بدأ يفقد الكثير من قواعده نظرا لعدم تطوير

مفاهيمه السياسية وإعطاء المتطلبات الاجتماعية مكانا متقدما فى أولويات سياسته.

وركز فاروق فى نزواته على لعبة القمار التى امتصت كل اهتماماته. وفى عام ١٩٤٦ قتل رائده السياسى ورئيس ديوانه أحمد حسنين فى حادث تصادم سيارته على كوبرى قصر النيل ومات فيها على الفور. وبذلك فقد شخصية كان لها ثقلها فى حياته. وحدث أنه بعد أسبوع زار فاروق أمه فى قصرها بالدقى وعند دخوله القاعة الكبرى فوجئ بمنظر غريب إذ وجد صورة بالحجم الطبيعى لأحمد حسنين مجللة بالسواد وجلست هى أمامها على الأرض وحولها رهط من السيدات والخادمات وجميعهن متشحات بالسواد وعلى جانبى القاعة جلس حوالى عشرين مقرئا يتلون القرآن والأدعية. وتوقف فاروق لحظة وتوجه لوالدته قائلا «على إيه ده كله وعلشان إيه. خلاص مات» فانفجرت فيه نازلى وتصيح «ده اللى عملك راجل ده اللى حافظ على عرشك، بكره راح تشوف حيجرا لك إيه بعد موته».

وبالفعل لم تطق نازلى البقاء فى مصر بل تركت مصر وسافرت برفقة ابنتيها فوقية وفتحية وبدأت فضائحها تلوكها الألسنة من زواج ابنتها فتحية من شاب مسيحى إلى اعتناقها هى نفسها الديانة الكاثوليكية، وكانت هذه الأخبار بمثابة معاول لتهدم شخصية فاروق أمام شعبه، ولا غرو أنه عندما طلق فريدة أن خرجت المظاهرات تهتف باسمها وتردد «خرجت من بيت الدعارة إلى بيت الطهارة».

ولم يحاول فاروق أن يخفى عن شعبه نشاطاته الليلية من التردد على أماكن اللهو كاوبرج الأهرام أو الأوبرج دى تيرف أو حلمية بَالاس أو نادى السيارات للعب الورق. فازدادت المهام الملقاة على الحرس الملكى وبوليس القصور الملكية. فتكون ما يسمى بالحرس المخصوص من ضباط الحرس الملكى والبوليس المخصوص من ضباط بوليس القصور. وللعلم ليس لهما أية علاقة بالحرس الحديدى والتى تكونت عناصره من خارج هاتين الفئتين ولأغراض أخرى. وكانت واجباتهما هى تأمين المكان الذى سيتردد عليه الملك وفى الوقت

نفسه تكون ما أطلق عليه «حرس الطريق» وهو مكون من ضابط وبرفقته ثلاثون جنديًا من الحرس الملكى بملابسهم العسكرية ومسلحون برشاش التومى وذلك لحراسة الطرق المؤدية لمكان السهرة وتوزع على الميادين ومفترقات الطرق. ولا تغادر هذه القوة أماكنها حتى انتهاء السهرة أيا كان توقيتها. ومن الطبيعى أن هذه الحراسة كانت بمثابة إعلان للكافة بأماكن سهرات فاروق وبالتالى عبثه ونزواته.

والغريب أنه رغم تردد فاروق على الملاهى الليلية فإنه أقدم على تصرفات لا منطق لها، إذ أضاف إلى حقه فى المُلك حقا آخر بأن يكون الملهى من حق المَلك فقط.

فقد حدث عام ١٩٤٩ أن كان أربعة من الوزراء يمضون سهرتهم فى ملهى حلمية بالاس، حين قدم فاروق مع حاشيته فغادر وزيران الملهى وبقى اللواء أحمد عطية وزير الحربية وعبد المجيد بدر وزير المالية. وأثار بقاء هذين الوزيرين مشاعر الملك فما كان منه إلا أن أمر بإخراجهما فى أول تعديل وزارى.

وفى حادث آخر مشابه لم تشر إليه الصحف، أن كان هناك ضابطان مصريان فى ملهى الأوبرج بملابسهما العسكرية ومعهما فتاتان أمريكيتان على جانب كبير من الجمال. وفجأة حضر الملك مع حاشيته وأعجبته الفتاتان، فأشار إلى أحد رجاله والذى توجه إلى الضابطين وطلب منهما مغادرة المكان بمفردهما ولكن الرد كان عنيفا منهما إذ كاد يصل إلى حد الضرب والشجار، وانتهى الموقف بانسحابهما مع الفتاتين.

وفى اليوم التالى طلب الملك من حيدر باشا عقد مجلس عسكرى لمحاكمة الضابطين بتهمة إهانة الزى العسكرى بتواجدهما وهما مرتديان فى ملهى عام. وطلب حيدر باشا من اللواء شعراوى مدير سلاح الطيران أن يقوم بهذه المهمة. وبعد أن قام الأخير بدراسة الموضوع، أشار على حيدر باشا بأنه لا داعى للمحاكمة، حيث إنه إذا كانت الملابس العسكرية دالة على شخصية مرتديها، فإن الملك فى حد ذاته سواء أكان مرتديا ملابس ملكية أو عسكرية فهو معروف

للكافة وفي الوقت نفسه فكلا الطرفين كانا في نفس الملهى. وما يرى عيبا في تصرف الضابطين يمكن أن يطبق على الملك وأنه من الأوفق عدم المحاكمة والنظر في جزاء إداري لا يطلن عنه.

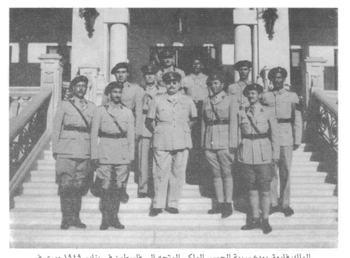
فما كان من حيدر باشا إلى أن أحالهما إلى الاستيداع لكن عاد أحدهما إلى الخدمة والآخر آثر البقاء للإشراف على أرضه الزراعية.

ومظهر آخر من مظاهر تطور أخلاق الملك وعلاقاته بضباط حرسه فعندما تولى الحكم كان يتردد كثيرا على الحرس الملكي ويسهر مع الضابط المناوب أو مع الضباط المتواجدين في ميس الحرس. وبالطبع لم يكن في مقدورهم تقديم ما يليق بجلالته. فكان أن قامت السراى بالتنبيه على جروبي في القاهرة وديليس في الإسكندرية بإرسال أطباق من الحلوى والمشهيات يوميا إلى الحرس لخدمة الملك. ولكن مع انشغاله بما هو أقرب إلى هواه بدأت علاقاته مع ضباطه في الانحسار، بل لم يعد يراهم أو يخاطبهم، بل أتذكر أنه في شتاء ١٩٥٢ بعد حريق ٢٦ يناير لم يكن أحيانا يرد التحية على الضباط المنوطين بحراسته في قصر عابدين وهو على بعد خطوات منهم.

ويحضرني في هذه النقطة ما حدث في ليلة عيد الميلاد في عام ١٩٤٨ ليؤكد ما ذهبت إليه، فعندما قامت حرب فلسطين في تلك السنة، بعث الملك بسرية من حرسه يقودها الصاغ محمد صادق (الفريق أول محمد صادق وزير الحربية في عهد السادات) وضباطها صبحي إبراهيم فهمي من أبطال مصر في لعبة السلاح وجمال خليفة من أبطال مصر في السباحة ووفيق أحمد على وعبد المنعم عبد الحي إدريس وكان لاشتراك هذه السرية رنة فرح وإعزاز من أفراد الشعب إذ أنها كانت الوحدة العسكرية الوحيدة التي سافرت في موكب شعبي سار من ميدان عابدين حتى ميدان المحطة متجهة لفلسطين. وعندما وصلت إلى أرض المعركة خصص لها واجب حراسة مركز قيادة القوات المصرية في غزة.



الملك فاروق مع ضباط الحرس الملكى فى إحدى مسابقات الرماية سنة ١٩٤٢



الملك فاروق يودع سرية الحرس الملكى المتجه إلى فلسطين فى يناير ١٩٤٩ ويرى فى الصورة الملازم سعد الشاذلى والملازم كمال رفعت

وفى يوم عيد الميلاد ٢٥ ديسمبر عام ١٩٤٨، وردت لنا الأخبار أن القائد العام اللواء أحمد فؤاد صادق دفع بهذه السرية مع وحدات أخرى لصد الهجوم الإسرائيلى على مركز قيادته، وفى الوقت الذى تلقينا فيه أخبار استبسال هذه السرية تلقينا أيضا خبر استشهاد كل من صبحى فهمى وجمال خليفة وإصابة محمد صادق ووفيق أحمد على. وسادتنا جميعا مشاعر الألم والحسرة مع مشاعر الرغبة فى تعويض هذه الخسائر وتقدمنا جميعا لقيادة الحرس لاختيار البدلاء. وبقينا فى الثكنات حتى المساء ولكن فى حوالى الساعة العاشرة مساء جاءت تعليمات من البلوك الخصوصى (جناح الملك) بأن يتحرك حرس الطريق لتأمين الطريق إلى الأوبرج دى تيرف حيث سيمضى الملك سهرة الكريسماس هناك مع كل من شقيقته فوزية وفايزة وأزواجهما إسماعيل شيرين ومحمد على رؤوف ومعهم المغنية آنى بيريه.

عندما تلقينا هذه التعليمات أصبنا جميعا بصدمة مقرونة بالأسف والغيظ إذ تساءلنا كيف لا يشارك الملك القائد أحزان حرسه لاستشهاد اثنين من خيرة ضباطه. ألم يكن من الأوفق إن كان جلالته مصمما على التمتع بليلة الكريسماس أن يقيمها فى جناحه الخاص بدلا من تحدى مشاعر حرسه بل أيضا مشاعر شعبه الذى كان فى قلق وقتئذ إزاء هجمات الجيش الإسرائيلى. ولاشك أن هذا الحادث يعطى إحدى الصور لتطور أخلاقيات وسلوك فاروق تجاه ضباطه.

وأصبح ضباط الحرس يشعرون بأنهم فى أداء واجبهم لا يقومون بحراسة ملك بقدر ماكانوا يحرسون قصورا ملكية، حتى أن البعض كان يردد أنه من الأوفق تعديل اسم حرس جلالة الملك إلى حرس القصور الملكية، وكان أى فراش من البلوك المخصوص له من السلطة أكثر من ضباط الحرس. ولم يكن مسموحا لهذا الضابط أن يرفع رأسه فى الحديقة الداخلية لأى قصر يقيم فيه الملك. ولم يكن يسمح له بالنزول فى مياه بحر قصر المنتزه حتى ولو لم يكن بها أحدا من الأسرة المالكية.

وكانت مزارع المعمورة (ضاحية المعمورة السياحية حاليا) محرمة عليهم وكان خط سير ضابط النوبه محددا ولا يتعداه بأى حال من الأحوال.

واستمر التدهور فى مركز فاروق بين صفوف الشعب وزادت تخبطاته السياسية. وانتشرت المنشورات المعادية له فى الأوساط الجامعية، ونشرت الكثير من الصحف مقالات اتسمت بالنقد اللاذع والصريح. أما المظاهرات فقد أخذت بعضها طابع التحدى بل وبلغت فى بعض الأحيان إلى أسوار قصر عابدين ورفعت عليها الأعلام الحمراء مع الهتاف بحياة الشيوعية. وفى الوقت نفسه ظهرت منشورات الضباط الأحرار بل وعثر على بعضها داخل السراى كما كثرت الأقاويل عن مشاركة فاروق مع إلياس إندراوس وكريم ثابت وإدموند جهلان فى صفقات الأسلحة الفاسدة وأضاف فاروق إلى صورته البشعة قرار طلاقه من فريدة فى ١٩ نوفمبر عام ١٩٤٨، فعم الاستياء كافة طبقات الشعب. وخرجت المظاهرات تهتف علانية «خرجت من بيت الدعارة إلى بيت الطهارة»

وأراد فاروق أن يعوض طلاقه بزواجه من سيدة أخرى وفضل أن تكون من الشعب لعل هذا يحسن من صورته أمام رعيته ولعل يرزقها الله بولى للعهد. ولكن لم يكن موفقا فى طريقة الاختيار. إذ تقدم للآنسة ناريمان صادق والتى كانت فى ذلك الوقت مخطوبة للدكتور زكى هاشم ليطلب يدها. وبالطبع لم يكن أمامها إلا الموافقة فهو ملك البلاد وهى كأى فتاة لا تتصور أن ترفض أن تكون ملكة. ولكن الشعب قابل هذا الزواج بفتور لأنه اعتبرها بمثابة عملية خطف لا تليق بملك القيام بها.

وعند عقد قرانه من ناريمان، اعترضت بعض الهيئات مثل سلاح المدفعية وبعض الأفراد مثل عضو البرلمان إبراهيم شكرى على ماكان يفرض عليهم بضرورة تقديم هدية للملك بمناسبة قرانه. وأتذكر أننى قد عينت حراسة على مدخل صالون قنال السويس يوم تقديم الهيئات الأجنبية والمصرية فروض التهنئة وبصحبتهم هداياهم. وكان فاروق سعيدا بهذه الهدايا وبمجرد خروج الشخصية بعد تقديم تهنئتها يقبل على الهدية ويفحصها بدقة ويعلق عليها. والغريب أن أثمن الهدايا كانت مقدمة من الدول غير الغنية فالأردن أرسلت نموذجا من الذهب لقبة الصخرة، أما السعودية فكانت هديتها مجموعة من السيوف والخناجر الذهبية والمطعمة بالأحجار الكريمة، كذلك كانت الباكستان

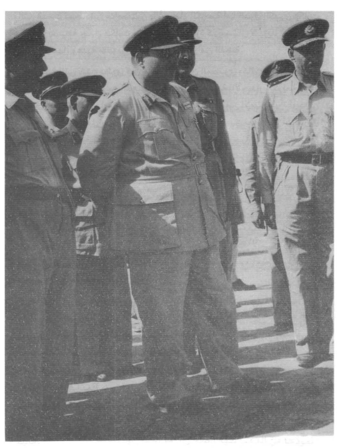
والتى قدمت سجادتين مرصعتين بالأحجار الكريمة أما الدول الكبرى فكانت هداياها بسيطة جدا. فكانت هدية أمريكا فازة كريستال لا يزيد ثمنها عن عشرين جنيها، وهدية ملك بريطانيا علبة سجائر من الفضة.

والهدية التى لفتت نظرى كان هدية البرلمان المصرى وكانت صينية وأربعة وعشرين فنجانا للقهوة من الذهب الخالص والمرصعة بالأحجار الكريمة. هذه الهدية كانت من مقتنيات القصر إذ أنها كانت مقدمة من الإمبراطورة أوجينى إلى الخديو إسماعيل بمناسبة افتتاح قناة السويس وتبين بعد ذلك أن فاروق أخرج بعضا من ذخائر القصر وكلف أحد كبار الجواهرجية بأن يكون وسيطا لدى الهيئات المصرية لشرائها مع إعطائه عمولته ثم يقبض الملك ثمنها وتعاد له التحفة باعتبارها هدية. ولاشك أن هذا تصرف لا يليق بملك.

ولم يحاول فاروق الاستماع إلى صوت العقل، أو إلى ما تتطلبه الغيرة على مصلحة بلاده. بل كان يلقى بكل نصيحة أو رغبة فى إصلاح عرض الحائط. فمثلا فى صيف عام ١٩٥٠ أرسل صدقى باشا من مستشفاه فى باريس إلى فاروق رسالة جاء فيها «إننى أخاطبك كما يخاطب الأب ابنه، لأننى الآن أستعد لملاقاة ربى، وأنت فى هذه الحالة لا تملك لى ضرا ولا نفعا» ثم سرد فيها أخطاءه وطالبه بالعدول عنها.

استشاط فاروق غضبا من صيغة الخطاب. ولما انتقل صدقى باشا إلى رحمة الله أصدر أوامره، ألا يشترك أحد من مسئولى القصر فى تشييع جنازته، بل لم يتورع فى تصرف غير لائق فى أن ينتقل أحد أمنائه ممن يمتون بصلة القرابة لصدقى باشا إلى وظيفة أخرى لمخالفته هذا الأمر.

وحدث أيضا عقب حريق القاهرة أن رفع مجموعة فاضلة من زعماء مصر مذكرة للملك يسردون فيها ماوصلت إليه حالة البلاد من فساد وتردى، وطلبت منه وقفة لدراسة هذه الأوضاع وما يجب اتخاذه من إجراءات لمنع الانهيار ولنهضة البلاد. فما كان إلا أن توعد كاتبيها وبأنهم لم يروا كرسى الوزارة فى حياته.



الملك فاروق فى تفقده لوحدات الجيش المصرى فى فلسطين

وبالطبع ألقت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بظلالها على الوضع السياسى بالبلاد، وزادها اشتعالا ما تردد عن اشتراك الملك فى صفقات الأسلحة الفاسدة. كما أضافت مناورات الأحزاب السياسية وتلهفها على الحكم بما فيها حزب الوفد وقودا على موجات الغضب والاستياء ولازم هذا حوادث الإرهاب وإلقاء القنابل فى دور السينما.

وفى الوقت نفسه تأزم الموقف مع بريطانيا التى تلاعبت بمشاعر المصريين وتسويفها فى تحقيق الجلاء التام وموضوع السودان. وتزايدت حدة التوتر عندما ألغت حكومة الوفد معاهدة ١٩٣٦، وشجعت العمال المصريين على ترك عملهم فى القاعدة البريطانية بمنطقة القنال، مع بداية حرب الفدائيين المصريين ضد هذا الوجود البريطانى. وبلغت ذروة الأزمة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢.

وحقا لقد كان يوما مؤسفا فى تاريخ مصر، وكان بداية لانهيار شامل لمؤسسات الحكم، وأصبح الجو العام مهيئا لانقلاب أو ثورة.



خاتمة

عندمـا قـامت ثورة ٢٣ يوليو، لم أكن متواجـدا فى مـصـر وقـتـئـذ بل كنت فى هلسنكى للمشاركة فى ألعابها الأوليمبية كعضو فى فريق كرة الماء. وجاءت برقية من القـاهرة تطلب فيهـا إعادة جمـيع أفـراد القوات المسلحـة فى أقـرب فـرصـة ممكنة. ومـا أن وصلت إلى ثكنات الحـرس بعابدين قـدمت نفـسى لأقـدم ضـابط هنـاك فى يوم ٥ أغـسطس عـام ١٩٥٢. لذلك حـتى أكـون أمـينا على شـهـادتى لاأستطيع أن أضع وصفا دقيقا لما حدث فى تلك الأيام.

لكن يمكننى القول بأن الجو العام بين وحدات الحرس، كان يخيم عليه جو من الذهول الهادئ والمعاناة. فـالضبـاط ساءهم المعاملة الصـفقة من بعض زملائهم بالجيش وخاصـة من ضباط البوليس الحربى الأمـر الذى جعلنا نرفع تظلمنا للواء محمد نجيب. فحضـر إلى عـابدين واجتمـع بنا وتكلم معنا بروح الأبوة ذاكرا أنه يعـرف مـا كـان علينا من واجبـات إذ أنه كان أيضـا فى شـبـابه ضـابطا بالحـرس الملكى فى عهد الملك فؤاد. واعتذر لنا عن سوء الفهم، وأنه وقد علم بمشاعرنا سيصـدر أوامر مشـددة لمنع الإسـاءة إلى ضبـاط الحرس. وبالفـعل سحبت قـوات البوليس الحربى بعد أيام قليلة.

أمـا الجنود فكان يخـيم عليهم الحـزن، إذ نظروا إلى الأمـر كله بوجـهـة نظر مـختلفـة كل الاختـلاف. وقد بذل الضباط جهدا كبـيرا للسيطرة عليهم وإخـراج

الحسرة من نفوسهم، وإفهامهم أن الثورة قامت من أجل تحسين أحوالهم وأسرهم ولكن لعل خير تعبير عن تفكيرهم ما قاله لى شاويش سريتى «أحمد نوح» يافندم إحنا مالناش دعوى بالسياسة لكن إزاى الكبير بتاعنا واللى إحنا موجودين لحراسته يخرج من بيته دون أن ندافع عنه.

بقيت كلمة .. من هو فاروق.. هل هو ضحية الظروف التى عاشها.. أم هو الذى خلق الظروف الذى أدت إلى مصيره المؤلم.. هل يستحق بتصرفاته ما أنهى حياته بعيدا عن بلده التى بدأ حياته فيها فى جو من الحب والأمل والولاء.. وانتهت بغضب واستياء بل ورغبة فى الخلاص منه ومن حكمه.

أميل إلى القول بأن حياته كانت مزيجا من العوامل.. فهو من جهة كان ضحية معاملة أبيه القاسية له ولأسرته والتى خالفت كل أصول التربية والتقويم بل الحياة.. وهو أيضا ضحية الجهل وعدم تثقيف نفسه.. ولكن لو كانت هذه الظروف قد أضاعت عليه فرص العلم إلا أنه كان بإمكانه خلقها، لكنه آثر الاندفاع نحو ما يروق له وما لا يشكل التزاما عليه.. ولو قيل إنه ضحية حاشيته. أقول.. ليس هناك ما يمنع من تحملهم جانبا من المسئولية، إلا أنه كان فى إمكانه إبعاد السيئ منهم أو على الأقل ليبتعد عمن لا يضيفوا إليه إيجابيات لشخصيته كان له حق الاختيار لكنه اختيار حاشية الخدم.. ودعنا نقول إنه عندما أتيحت له الفرصة بعد عودته لمصر لإعداد نفسه ليكون ملكا صالحا لم يستغلها بل تمادى فى ممارسة الخطيئة برغبته دون اعتبار للمشاعر القومية والمصلحة العامة بل حتى مبادئ الأخلاق.

فكانت نهايته فى ورقة وقعها.. وبرحلة ذهاب دون إياب.. وانتقال للآخرة بعيدا عن مصر وطن ولادته.

حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢
عرض وتحليل

اتصل بى أحد السادة المهتمين بتسجيل الأحداث التى مرت بها مصر؛ ليتناولها فى برنامجه بالبحث والتقيب مستعينًا بالشخصيات التى عاصرتها

ويتحليل السادة المختصين، وطلب منى بناء على توصية أحد الأصدقاء أن أملى عليه ما أعرفه عن حريق ٢٦يناير سنة ١٩٥٢على أساس أننى كنت فى ذلك الوقت ضابطًا بالحرس الملكى، وكنت فى سراى عابدين عند وقوع هذه الأحداث.

وأجبته بالإيجاب بأننى كنت معينًا بالخدمة فى قاعة الطعام الكبرى حيث كانت تقام الوليمة الخاصة بضباط الجيش والبوليس، فأسرع بسؤالى عمن تظن المدبر لهذا الحريق، أهم الإنجليز أم الملك، فأجبته بأنه لم يكن هناك تدبير مسبق للحريق لا من هذه الجهة أو ذاك، بل حدث حريق القاهرة تلقائيًا ولكن استغلته جهات أخرى فى توسيع نطاقه وشكله وخرجت الأمور عن قدرة الدولة فى احتوائها،مما أدى إلى هذا الحريق والتخريب.

للأسف ، لم تلق إجابتى قبولاً لديه وفوجئت بقوله إنه سوف يتصل بى فى فترة لاحقة ، ولكن لم يتم هذا الاتصال حتى اليوم .

أثار هذا الحديث ذكرياتى عن هذا اليوم المشئوم ووجدت لزامًا علىَّ أن أكتب ما شاهدته، وأعقِّب عليه بوجهة نظرى التى أتوقع أنها لن تلقى قبولاً من بعض الأفراد والهيئات .

عندما رُزق الملك فاروق بولى عهده الأمير أحمد فؤاد فى يناير عام ١٩٥٢، تقرر أن تقام ثلاث مآدب غداء احتفالاً بقدومه . الأولى لأعضاء الأسرة المالكة والعائلات المرتبطة بها من ناحية القرابة ، أما المأدبة الثانية فكانت للسادة الوزراء وكبار رجال الدولة ، والمأدبة الثالثة خُصصت لضباط الجيش والبوليس وحُدد لها يوم ٢٦ يناير . وفى الوقت نفسه، برزت فكرة تصاحب يوم وليمة الضباط وهو أن تتجمع فى ميدان عابدين وحدات رمزية من أسلحة الجيش المختلفة، ثم يطل عليهم الملك من شرفة القصر المطلة على الميدان حاملاً ولى عهده بين يديه، وبحركة مسرحية يرفعه لهم عندما يرددون الهتاف بحياة ولى العهد . ولكن نظرًا للظروف التى كانت تمر بها البلاد من غليان ضد الإنجليز لما يرتكبونه فى مدن القناة من تدمير وإهانة للمواطنين المصريين، فقد تقرر إلغاء هذه المسرحية والاكتفاء بدعوة الغداء .

فى ذلك اليوم كنت معينًا خدمة حراسة على الباب الرئيسى المؤدى إلى غرفة الطعام الكبرى حيث تُقام مأدبة الغداء ، ولم يكن يفصلنى عن الملك أكثر من عدة أمتار . وقبل اتخاذ الضباط أماكنهم على موائد الطعام ترددت الأخبار عن قيام مظاهرات ضخمة احتجاجًا على مذبحة أفراد البوليس بمحافظة الإسماعيلية فى اليوم السابق . ومع ذلك بدأت المأدبة عادية، لكن خلال تناول الطبق الأول رأيت أحد الأمناء يتقدم إلى الفريق حيدر باشا وزير الحربية والذى كان جالسًا على يمين الملك وأسَّر فى أذنه ما جعله يستأذن من الملك. وفعلاً تغيب قرابة خمس دقائق عندما عاد وانحنى على الملك فى حديث خافت ثم جلس . ولم تمض عشر دقائق أخرى إلا وعاد نفس الأمين وتكلم مع حيدر باشا الذى استأذن ثم عاد مسرعًا وانحنى على الملك والذى وقف فجأة فى عصبية وانسحب من قاعة الطعام ومعه رجال القصر وخرج مهرولا للخارج.

بعد ذلك سمعنا صوتا عاليًا يأمر الضباط بالعودة فورًا إلى ثكناتهم بالعباسية و الماظة متخذين طريق القلعة وهو طريق ضيق يخترق مقابر القاهرة، وأنه قد أعلنت حالة الطوارئ فى الجيش وعليهم الانتظار فى ثكناتهم لحين صدور تعليمات أخرى .

تلا هذا الأمر، صوت القائم مقام (عقيد) أحمد أبو النصر قائد الحرس الملكى يأمر ضباط الحرس بالتوجه فورًا إلى ثكنات الحرس بعابدين (محافظة القاهرة حاليًا) وإعلان حالة " الكبسة " والعودة بوحداتهم إلى السراى . وبالطبع تلا هذين الأمرين هرجلة وصياح من هنا وهناك وانتهت الحفلة دون إتمامها .

توجهنا نحن ضباط الحرس بسرعة إلى الثكنات ، وأسرعنا بجمع الجنود ببنادقهم مرتدين الخوذات، وأخذ كل ضابط يندفع نحو السراى بجنوده بالخطوة السريعة.. وأمرنا جنودنا بعدم الالتفات لأية إثارة من المتظاهرين الذين بدءوا يتدفقون على ميدان عابدين مرددين هتافات عنيفة ضد الإنجليز وضد الملك والسراى، وتملكنا أعصابنا رغم أقذع الشتائم والسباب التى وجهها المتظاهرون لنا. وعند الوصول إلى القصر وضعنا الجنود بجوار مبنى القصر، وأبعدناهم عن السور الحديدى، وبقينا نحن الضباط فى منتصف المسافة لمراقبة التطورات،

أمـا من كـان على بوابات القـصـر الثـلاث فلم يتـجـاوز عـشـرة من رجـال بوليس السراى. وهنا أود القول إنه لم تكن لدى الجنود طلقة واحدة؛ إذ أن مخزن ذخيرة الحرس موجودة خارج الثكنات فى المبنى الصغير والمبنىّ على الطراز العربى المجاور لمبنى السراى وكنا نطلق عليه "الباشحرس"، وكانت الذخيرة الموجودة معنا مقصورة على ست طلقات فقط فى طبنجة كل ضابط وبلغت حالة الارتباك أن نسيت قيادة الحرس تزويدنا بالذخيرة حتى الساعة الخامسة بعد الظهر، بواقع صندوق طلقـات للبنادق " لى أنفـيلد " على أن تبـقى فى الصناديق دون توزيعها إلا بأوامر من قيادة الحرس .

بدأت "الوفد " المتظاهرين فى التدفق على ميدان عابدين وازدادت جرأتهم، ولم يكتفوا بالهتافات المعادية للملك ، بل تسلقوا السور الحديدى ورفعوا الأعلام الحمراء مرددين هتافات بسقوط الملَكِّية وبحياة الشيوعية . وفى حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، رأينا سيارة ستروين سوداء تدور فى الميدان ويبرز علم مصر فى أحد المقاعد الخلفية . وفى دورتها الثانية سمعنا دوى طلقات رصاص صادر منهـا، مما زاد من صياح المتظاهرين وجرأتهم . فـوجدنا أنه من اللازم اتخاذ خطوة حازمة إزاء هذه التطورات ، فأمرنا الجنود بأعلى صوتنا بتركيب السونكى وبالتقدم نحو السور بشكل جعل المتظاهرين يبتعدون عنه إلى آخر الميدان ، بل آثر بعضهم الهروب منه . وحمدنا الله أن هذه الحركة المسرحية آتت بجدواها دون أى صدام أو خسائر .

وبدأت قيادة الحرس فى إعادة توزيع الجنود وتنظيم الحراسة. واستدعى الملك بناته الثلاث من قصر القبة وانضمـمن إليه وإلى الملكة ناريمـان وولى العهد . بل وانضمت إليهم السيدة أصيلة هانم والدة الملكة. وأمضى الملك أيامه التالية فى سراى عابدين وقلل من خروجه من القصر ومع هدوء الأحوال وتمُّلك الدولة زمام الأمور ، عاد الملك مرة أخرى إلى قصر القبة ونادى السيارات .

وبينمـا هدأت الأحـوال فى الشـارع المصـرى إلا أن الميـدان السيـاسى زاد نشاطه؛ ففى نفس اليوم أصدر الملك أمرًا بإقالة حكومة الوفد وبتكليف على ماهر بتشكيل الوزارة الجديدة. وبدأت الصحف فى الأيام التالية تنشر صورًا

للخراب الذى لحق بالقاهرة، وأسباب هذه المظاهرات الصاخبة، وكيف اتخذت طابع العنف والحرق والسلب، وأوضحت أن المظاهرات كانت سلمية عند خروجها من جامعة القاهرة أو من جامع الأزهر.

وإن كانت عنيفة إلى أن وصلت إلى ميدان الأوبرا حيث نشبت خناقة مع الجالسين فى كازينو أوبرا وانتهز الغوغاء هذه الفرصة فألقوا الحجارة على واجهات المحلات بالميدان وبدأ النهب . ومن ثَم اتخذت المظاهرات شكلاً آخر وزادها اشتعالاً دخول عناصر مشبوهة تحمل قنابل مولوتوف ومواد ملتهبة . ولم تهدأ الأحوال فى وسط القاهرة إلا بعد نزول الجيش فى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر.

ولكن هذا لم يمنع من انتقال معركة الحرائق والتدمير لأماكن اللهو فى شارع الهرم والتى استمرت حتى ساعة متأخرة من الليل .

هذه هى الأحداث الخاصة بيوم الحريق كما رأيتها وعايشتها وأبادر بمناقشة الجزء الثانى الخاص بالتعليق عليها، محاولاً توضيح وجهة نظرى التى لم تُتَح لى الفرصة لعرضها .

بدأ المجتمع بعد صدمة الحريق يتحدث عمن وراء هذه الأحداث واتجهت أصابع الاتهام إلى جهتين، إحداهما تتهم بريطانيا بأنها وراء الأحداث بغرض توجيه ضربة لحكومة الوفد التى كانت تشجع الفدائيين المصريين الذين يثيرون الرعب والإزعاج للقاعدة البريطانية فى منطقة القنال ،بالإضافة إلى قيامها بإلغاء معاهدة ١٩٣٦من جانب واحد . أما الجهة الثانية فكانت تتهم الملك والقصر؛ وذلك بقصد خلق حجة تعطى الملك المبرر لإقالة النحاس باشا من الوزارة .

وبالنسبة لبريطانيا ، فأود أن أعود بالذاكرة إلى عام ١٩٤٦عندما قامت بالبلاد مظاهرات عنيفة ضد معاهدة صدقى ـ بيفن . وكانت قمة هذه المظاهرات تلك التى وقعت فى ميدان الإسماعيلية (التحرير)، حيث حاصرت المتظاهرين النيران البريطانية الصادرة من ثكنات قصر النيل ومن العمارات المقابلة لها فى الميدان

مما أدى إلى مقتل أكثر من أربعين شخصًا وجرح العشرات ، ولم تتوقف هذه المذبحة إلا بعد تدخل الجيش المصرى والذى وقف حائلاً بين المتظاهرين والجنود البريطانيين .

فى ذلك الوقت كان المستر ونستون تشرشل فى المعارضة، فنصح وزارة العمال بسحب القوات البريطانية من كل من القاهرة والإسكندرية حيث تتمركز فيهما حركات الشباب الوطنية والمثيرة للتوتر ، واقتصار الوجود العسكرى البريطانى فى منطقة القنال لأنها هى المنطقة التى تمثل العصب الرئيسى للاستراتيجية البريطانية فى الشرق الأوسط . ومن ثم بدأت القوات البريطانية الانسحاب وتسليم مراكزها فى هاتين المدينتين بادئة بثكناتها فى القلعة ، تلاها مركز البوليس الحربى فى ميدان باب الحديد (مكان فندق إفرست) وكوم الدكة بالإسكندرية ، وأخيرًا ثكنات قصر النيل ، واكتفى الإنجليز بإحكام السيطرة على منطقة القنال بعيدًا عن أنظار المصريين التى تثور مشاعرهم كلما رأوا العلم البريطانى فى عاصمة بلادهم .

ولهذا؛ فإنى لا أرى ما يدعو لسلامة هذا الادعاء لا دفاعًا عن بريطانيا، ولكن لأنه لا فائدة تُرجى من حريق يثير مشاعر المصريين ويزيد من جبهة التصادم ولديها ما يكفيها من متاعب تثيرها حركة الفدائيين فى منطقة القنال .

أما وجه الاتهام الثانى فهو اتهام فاروق بتدبير هذا الحريق ليعطى نفسه المبرر لإقالة حكومة النحاس . وإنى أتساءل هل إقالة حكومة الوفد تتطلب من الملك حرق عاصمته؟ لقد سبق له أن أقالها مرتين دون حريق الأولى سنة ١٩٣٨ فور تولِّيه العرش عند بلوغه ثمانى عشرة هجرية من عمره. رغم أن النحاس باشا كان فى قمة مجده بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا ، بالإضافة إلى فضله فى تقلد الملك الحكم عند بلوغه هذه السن بتعاونه مع الملكة نازلى قاطعًا خط الرجعة على مؤامرات ولى العهد ورئيس مجلس الوصاية الأمير محمد على.

أما الإقالة الثانية فكانت فى أكتوبر سنة ١٩٤٤، بعد محاولات عديدة من الملك مع السلطات البريطانية للموافقة على إزاحته عن الحكم ورفض الأخيرة

لهذه المحاولات . واشتهرت وقتئذ فى الأوساط السياسية عبارة " لا تغيير " والتى كانت ترد بها السلطات البريطانية على الملك. أى أن الوفد كان لا يزال بجانب شعبيته سندًا غير ضعيف فى البقاء فى الحكم .. ومع ذلك نجح الملك أخيرًا فى إقالته دون حريق أو تخريب .

ونأتى إلى حكومة الوفد التى شُكلت عام ١٩٥٠، أى بعد ست سنوات من خروجه من الحكم . لم يكن الوفد بنفس القوة والشعبية التى كان عليها من قبل . إذ ظهرت على الساحة السياسية تيارات أخرى كالإخوان المسلمين والاشتراكيين بل والشيوعيين ، استطاعت أن تسلب من الوفد مجموعات قوية من قواعده الشعبية . كما أن الوفد نفسه كان يعانى من تضارب تيارات ثلاثة داخلية، الأول يمثله الحرس القديم مثل عبد السلام فهمى جمعة وزكى العرابى وسليمان غنام وعبد الفتاح الطويل، والتيار الثانى تقوده مجموعة من الأثرياء تحت قيادة فؤاد سراج الدين، أما التيار الثالث والذى أُطلق عليه الطليعة الوفدية فكان يقوده عزيز فهمى ومحمد مندور. وعلى هذا لم تكن صفوف الوفد بالصلابة التى كانت عليها من قبل. بل وزاد من ضعف الوفد خيبة أمل المجتمع المصرى فى سياسة الحكومة الوفدية تجاه الملك والتى يمكن تلخيصها فى التعايش السلمى.إذ تساهلت فى تصرفاته من الدفاع عنه وإبعاد الشبهة فى اتجاره فى الأسلحة الفاسدة إلى الموافقة على مصاريف إصلاح يخت المحروسة أو حتى تغاضيها عن تصرفاته المسيئة له وللسمعة البلاد مما جعله يتمادى فى غيه وسلوكه المشين، أى أنه لم تكن هناك قوى قوية تحول دون إقالة وزارة النحاس بشكل عادى .

وبالطبع كان هجوم الجيش البريطانى على مديرية أمن الإسماعيلية فى ٢٥ يناير لضرب قوات البوليس بحجة أنها تمد يد المساعدة للفدائيين المصريين، رغم علم الوزارة به مسبقًا واكتفت بمطالبتها لأفراد القوة بالصمود لآخر طلقة دون تعزيزها بأى أسلحة حديثة. أثار هذا الحادث مشاعر المصريين وأدى إلى هذه المظاهرات الجامحة .

أضيف إلى هذا نقطتين مهمتين، أن كلتا المظاهرتين الكبيرتين من جامعة القاهرة ومن جامعة الأزهر قد سارتا فى شوارع تجارية كشارع سليمان باشا (طلعت حرب) وقصر النيل وشارع الأزهر قبل أن تصلا إلى ميدان الاوبرا . وهى شوارع زاخرة بالمحلات التجارية والبنوك ودور اللهو والتى كثير منها يمتلكها اليهود والأجانب، ومع ذلك لم تُنهب ولم تُحرق إلا بعد انفلات الأمور وتطورها بعد الساعة الثانية عشرة ظهرًا. فلو كانت هناك خطة لحرق القاهرة لكانت هذه المحلات من باب أولى هى الضحية الأولى .

أما النقطة الثانية وهو أنه لو كان الملك قد خطط لهذا الحريق ، لكان واجبًا عليه تنسيقها مع قيادة الحرس لأخذ الترتيبات اللازمة لحمايته إذا ما تعدت الأمور الخط الأحمر . لكن كما سبق القول أن الحرس الملكى أُخذ على غرة وفوجئ بالأحداث بل تحرك دون ذخيرة حتى الساعة الخامسة بعد الظهر، بل لم يكن فى حراسة قصر عابدين ذلك اليوم أكثر من ثلاثين جنديًا بقيادة ملازم .

لهذا؛ فإنى أقول إن حريق القاهرة لم يدبره أحد ، ولكنه بدأ بتعبير شعبى وطنى ضد ما يحدث فى القنال ، تطور إثر حادث فرعى واستُغل من جهات أخرى كانت تستعد سرًا لمثل هذا اليوم.

ولعل كلمة حسن باشا يوسف وكيل الديوان الملكى عندئذ لهى خير تعبير موجز للموقف، بأن أمر التخلص من النحاس باشا لم يكن يتطلب أكثر من خطاب يحوى ثلاثة أسطر تحقق رغبة الملك .



الفهرس

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة ساقية
عبد المنعم الصاوى
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة
ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية
٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية
التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦
مدخل (أ) - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس
مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -
الجامعة الجديدة - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد
بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان
السوق السياحى - أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط
٦٠ ش الجمهورية - أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا
١٦ ش بن خصيب - المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)
مبنى كلية الأداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا
ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى
ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقًا

مكتبة دمنهور
ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة
٥ ش الثورة - المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف
مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

مكتبات ووكلاء
البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة - بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣
ص. ب: ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب
بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيداني - الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر ماريبا
ص. ب: ١١٣/٥٧٥٢
فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع - سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة . ٤ شارع الطاهر صفر - ٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض (ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧ - ت : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية - الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع
ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١
فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +
تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +
ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg



وتحت مظلة هذه الأفكار سوف أعرض مواقف كنت فيها طرفًا، لكن هذا العرض سيعطى للقارئ دلائل كثيرة، سوف يطلع القارئ.

. سبب معارضة هولانده لمصر فى حرب ١٩٥٦.

. وفى اليونان كان موجه الدعوة للرئيس عبد الناصر متخوفًا من الزيارة.

. وانتقل بعد ذلك إلى جزيرة قبرص ونظرًا لأننى خدمت فيها على فترتين الأولى عام ١٩٦٠ والأخرى عام ١٩٦٩. وكل فترة كانت لها خصائصها، لكن الذى كان ثابتًا ومؤيدًا طوال هذه المدة كان الأسقف مكاريوس والذى يستحق من جميع الدول العربية التقدير اللازم.

. وبالطبع شمل هذا الكتاب العلاقات السورية المصرية والتى وضع لها الرئيس عبد الناصر حدًا فاصلاً، وذلك بجعل العلاقة بين الدولتين علاقة سياسية وليست نظرية.

. أما بالنسبة للمكسيك فقد تعرضت لمشكلة كبيرة يوم تقديم أوراق الاعتماد

وانتهت خدمتى الخارجية فى المانيا الديموقراطية والتى وضعت اهتمامها الأكبر حل مشكلة الإسكان والتى اعتبرتها أنها مشكلة أمن قومى.

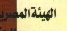
فى القسم الأول من الكتاب

وأخيرًا فى القسم الأول من الكتاب فقد ركزت فيه على محاولاتى المتواضعة لوقف غطرسة الإسرائيليين.

أما القسم الثانى من الكتاب والذى يتناول حياة الملك فاروق وكيف كان وكيف أصبح، وقد ساعدنى فى ذلك ما سمعته من والدى والذى خدم السراى من سنة ١٩١٥ حتى سنة ١٩٤٣ ومع هذا السرد التاريخى ذكرت ما شاهدته يوم حريق القاهرة.

وفى النهاية أتمنى أن يلقى هذا الكتاب رضاكم واقتناعًا بما جاء فيه.

والله الموفق.




ISBN# 9789774209366
6 221149 012820